A.U.B. LIBRARY

20[illegible]
tA
.24
[illegible] Sept. 1951

V.22-24 m1

A5.

297.207
M29tA
V.22-24
C.1

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثاني والعشرون

مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
مصر

77596

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ م — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثانى والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

يقنت : أى يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريما : أى سالما من كل آفة وعيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، ففى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحدّ ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

الإيضاح

(ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والمثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها فى بيت النبوة ومنزل الوحى ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعتدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعددنا لها الكرامة فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما فى الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى فى جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

شرح المفردات

أصل أحد وَحَد بمعنى الواحد وهو فى النفى عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرئت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف فى اللغة قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد

أى استقبلتنا باليد قاله أبوحيان فى البحر، ومنه قوله تعالى : «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ». فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع لين، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلنّ الكلام ولا ترققنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولا معروفا : أى حسنا بعيدا من الريبة غير مُطْمِع لأحد ، قرن ، من قرّ يقرّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشىء القذر ؛ والمراد به هنا الإثم المدنس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكنّ ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذاهن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهمّ أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعنه من النبى صلى الله عليه وسلم من السنة .

الإيضاح

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أى يا نساء النبى إذا استقصيت النساء جماعةً لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والكرامة .

والخلاصة — إنه لا يشبهكن أحد من النساء ولا يلحقكنّ فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا) أى إذا استقبلتن أحدا من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع فى الخيانة من فى قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق ، وقلن قولا بعيدا عن الريبة غير مطمع لأحد.

وتفسير الاتقاء بهذا المعنى أبلغ فى مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهيهن عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله فى أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى قاله فى البحر ، وقال فى الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات اهـ ، يريد إن اتقيتن مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم .

و إجمال هـذا — خاطِبن الأجانب بكلام لا ترخيم فيه للصوت ولا تخاطبنهم كما تخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن فى بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لهن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبزّار عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها » .

(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدين زينتكن ومحاسنكن للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك فى الجاهلية قبل الإسلام .

و بعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدّين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعا ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار فى طهارة النفس وطهارة المال .

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تذرن واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهى .

ثم ذكر السبب فى هذه الأوامر والنواهى على وجه عام فقال :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعْلَق بأرباب الذنوب والمعاصى .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبى أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : «شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحى بقوله :

(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) أى واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكن .

ولا يخفى ما فى هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفْنَه ، كما لا يخفى ما فى تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة فى صلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، فمن استمسك به رَشَد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

(إن الله كان لطيفا خبيرا) أى إن الله كان ذا لطف بكنّ ؛ إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

شرح المفردات

الإسلام: الانقياد والخضوع لأمر الله، والإيمان: التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى، والقنوت: هو الطاعة فى سكون، والصبر: تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصى، والخشوع: السكون والطمأنينة، أعد الله لهم مغفرة: أى هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم، وأجرا عظيما: أى نعيما عند ربهم يوم القيامة.

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى، ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده فى الدار الآخرة، روى أحمد عن عبدالرحمن بن شيبة قال: «سمعت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم تقول: قلت للنبى صلى الله عليه وسلم: ما لنا لانذكر فى القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت فلم يرُعْنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر يأيها الناس إن الله يقول فى كتابه: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات — إلى قوله: أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما).

الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التى يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده وهى :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين فى القول والعمل .

(٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل فى هدوء وطمأنينة كما قال : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع .

(٤) الصدق فى الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفى الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار » .

(٥) الصبر على المكاره وتحمل المشاق فى أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفا من عقابه كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصدق بالمال والإحسان إلى المحاويج الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت فى الصحيح « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفى حديث آخر « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » .

(١٠) ذكر الله ذكرا كثيرا بالألسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا. وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله ذكراً. فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ، زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لاينبغى له ، والخيرة : الاختيار ، مبينا : أى ظاهر الانحراف عن سَنن الصواب ، أنعم الله عليه : أى بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتخشى الناس: أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجناكها : أى جعلناها زوجة لك ، والحرج: المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكائنا لا بد منه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخير زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شىء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شىء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبى صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم أُمَيْمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مُدًّا من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبى بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعىّ جميع حقوق الابن ويُجْرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

محو ذلك بالإسلام حتى لايعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال فى أول السورة « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ إلى من تبناه ، وأن يكون للمتبنَّى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لايمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تسْخر بسلطانها ، ولا تجعل لها حكما فى الأعمال إذا كانت المصلحة فى خلاف ذلك ، ومن ثمّ ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول فى أحد عتقاه ، ومن ثمّ أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخَر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء حينئذ فى تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قُضى فيهم ويخالفوا أمر الله ورسوله وقضاءهما ويعصياهما .

والخلاصة — لاينبغى لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكّر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذى أنعم الله عليه فوفّقه للإسلام وأنعمت عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله فى أمرها ولا تطلقها ضرارا وتعللا بتكبرها وشموخها بأنفها ، فإن الطلاق يشينها ، وربما لايجد بعدها خيرا منها .

وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء والاحتشام ، وكلاهما مما لاينبغى أن يكون مع زيد مولاه .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه بما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك ، وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك ما الله مبديه من الحكم الذى ألهمك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذى أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه، فكان عليك أن تمضى فى الأمر قدُما تعجيلا لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملّها ثم طلقها جعلناها زوجا لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كنّ من قبل أزواجا لأدعيائهم .

(وكان أمر الله مفعولا) أى وكان ماقضى الله من قضاء كائنا لامحالة ؛ أى إن قضاء الله فى زينب أن يتزوجها رسول الله كأمر ماض لابد منه .

روى البخارى والترمذى «أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات» وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : «كانت تقول للنبى صلى الله عليه وسلم إنى لأُدِلّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدِلّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام» .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أى ليس على النبى حرج فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا فى الرسل فيما أباح له من الزوجات والسرارى فقال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى إن الله سن بك أيها الرسول سنة أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسرارى ، فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفى هذا ردّ على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج.

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائنا لامحالة وواقعا لامحيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ رسالته فقال :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء الذين جعل محمد متبعا سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .

والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه يحميك ممن يريدك بسوء أو يمسك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله :

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبناك لا ابنك ، فإنك لست أبا لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد بأب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب للمؤمنين جميعا فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أولاد النبي صلى الله عليه وسلم

ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والطاهر، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحُلُم، وولد له إبراهيم من مارِيَة القبطية ومات رضيعا، وولد له من خديجة أربع بنات: زينب ورُقَيَّة وأم كلثوم وفاطمة، وقد مات الثلاث الأول فى حياته صلى الله عليه وسلم، وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور.

(وكان الله بكل شىء عليما) فيعلم من هو الأجدر بالبدء به من الأنبياء، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم، ويعلم المصالح فى ذلك.

ونحو الآية قوله: « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن، وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون كما يومىء إلى ذلك قوله: (يأيها النبى قل لأزواجك) الخ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا، فهو الذى يرحمهم وملائكته يستغفرون لهم كى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده المؤمنين رحيما.

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى ونزهوه عما لايليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعدّ كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومى ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا — هو الذى يرحمكم ويثنى عليكم فى الملإ من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لايخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم — أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحيتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ » .

(وأعدّ لهم أجرا كريما) أى وهيأ لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتيهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشارب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر.

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٤٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله - ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أى يأيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر مايفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدّى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة إن صدّقوك ، وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى ، وسائر مايجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن -

وسراجا منيرا يستضىء بك الضالون فى ظلمات الجهل والغواية ، ويقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون مناهج الرشد والسعادة .

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى وراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، فإنهم سيغيّرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصلاح ، ويدخلون الأمم المتعثرة فى أثواب الضلال فى زمرة الأمم التى عليها صلاح البشر فى مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » .

ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ماينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع مَن دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حسبك فى جميع أمورك ، وكالئك وراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمسّ معروف؛ والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتفشى والإتيان ، والعدّة : الشىء

المعدود ، وعدّة المرأة : الأيام التى بانقضائها يحل بها التزوج ، فمتعوهن : أى أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار (ماتغطى به المرأة رأسها) وملحفة (ماتلتحف به من قرنها إلى قدمها ـ ملاية) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكم ، سراحا جميلا : أى إخراجا مشتملا على لين الكلام خاليا من الأذى .

المعنى الجملى

أدّب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأيها النبى اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله : يأيها النبى قل لأزواجك ، وثلث بذكر معاملته لأمته بقوله : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبى مكرمة ، وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم فقال: لاتدخلوا بيوت النبى الخ، وقال: يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

الإيضاح

أى يأيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل المسيس ، فلا عدّة لكم عليهن بأيام يتربصن بها تستوفون عددها ، ولكن اكسوهن كسوة تليق بحالهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك باختلاف البيئة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيئوا لهن من المركب والزاد وجميل المعاملة ماتقرُّ به أعينهن ويسرُّ به أهلوهن ؛ ليكون فى ذلك بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع العشرة التى كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين (ضرب من الثياب مشهور فى ذلك الحين) .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما ملكت يمينك : أى ما أخذته من المغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى يأيها النبى إنا أحللنا لك الأزواج اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وقد كان مهره عليه السلام لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونصفا أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله أربعمائة دينار .

(وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى وأحللنا لك الإماء اللواتى سبيتهن فملكتهن بالسباء ، وصرن لك من الفىء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حيى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجُوَيْرِيَة بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكانتا من السرارى .

(وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُّدّى عن أبى صالح عن أم هانئ قالت : « خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعذرنى ؛ ثم أنزل الله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك ـ إلى قوله ـ اللاتى هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء » .

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التى تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله فى بَرْوَع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصداق مثلها .

والموت والدخول سواء فى تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل فى المفوَّضة لغير النبى صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوَّضة شىء لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولىّ ولاشهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها .

(قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) أى قد علم الله ما ينبغى فرضه على المؤمنين فى أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لاتحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفى الإماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والمجوسية ـ وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتى :

ثم ذكر العلة فى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :

(لكيلا يكون عليك حرج) أى أحللنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق فى نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ، رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

شرح المفردات

ترجى : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرئ ترجئ ، وتؤوى : أى تضم وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت ، عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرّ : أى تسرّ .

الإيضاح

(ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قَسْم بينهن ، بل الأمر فى ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

والخلاصة : إنه لا ضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبى رَزِين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفية وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء » .

ثم بين السبب فى الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك فى مصلحتهن ، فقال :

(ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القَسْم ، فإن شئتَ قسمتَ ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أىّ ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لا وجوبا عليك - فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك بينهن .

(والله يعلم ما فى قلوبكم) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبَّر الله من ذلك ، وفوّضه إلى مشيئته ، وبَعْث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وكان الله عليما حليما) أى وكان الله عليما بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القَسْم لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تحريم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : (ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .)

الإيضاح

تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(١) (لايحل لك النساء من بعد) أى لايحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم كِفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك .

أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال : « لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهنّ عليه).

(٢) (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك) أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسرّاها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا.

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبة قال : « خطبت امرأة فقال لى النبى

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

(وكان الله على كل شىء رقيبا) أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شىء ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) .

شرح المفردات

إناه : أى نضجه : يقال أنى الطعامُ يأنى أنًى ؛ أى أدرك وفرغ ، وفيه لغات : إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصورا وممدودا قال الحطيئة :

وأخرتِ العَشاء إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرَى فطال بى الأَناءُ

فانتشروا : أى فتفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أى مستمعين له ، متاعا :

أى شيئا تمتعون به من ماعون وغيره ، أطهر لقلوبكم : أى أكثر تطهرا من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إرشادا لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملإ ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله : « لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » الخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان فى الملإ بقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله : (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) الآية .

الإيضاح

أدب الله عباده بآداب ينبغى أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال:

(١) (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير

ناظرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لاتدخلوا بيوت نبى الله إلا أن تُدْعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه.

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت فى شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البِذْلة والعمل فلا يحسن أن تروهنّ وهنّ على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن مالايحل النظر إليه.

(٢) (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا فى البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال: كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبى صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأنزل الله (يأيها الذين آمنوا) الآية.

وأخرج ابن أبى حاتم عن سليمان بن أرقم قال: نزلت هذه فى الثقلاء ومن ثم قيل هى آية الثقلاء.

ثم علل ذلك بقوله:

(إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق) أى إن ذلك اللُّبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفى هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يَطْعَم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبى صلى الله عليه وسلم فالتثقيل مذموم فى كل مكان، محتقر لدى كل إنسان.

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما « حسبك فى الثقلاء أن الله عز وجل لم يحتملهم »

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآدب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما فى العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لانسامح فيه .

(٣) (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتى لسن لكم بأزواج ، شيئا تمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عُرْس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت: يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه فى الغيرة « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر ، وجاء فى الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :

والمرء ما دام ذاعين يقلبهـــا فى أعين العِينِ موقوف على الخَطَر
يسر مُقْلَتَهُ ما ســاء مُهْجَته لا مرحبا بانتفاع جاء بالضرر

ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس بالحديث الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعلينا أن نقابله بالحسنى كِفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قُصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله .

(ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده أمر عظيم وخطب جلل لا يقدر قدره غير الله تعالى .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا .

ثم بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله :

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما) أى إن ما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام وإن كان عاما بظاهره فالمقصود ما يتعلق بزوجاته عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أَنُنْهَى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجنّ نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس « أن رجلا أتى بعض أزواج النبى فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لاتقومنّ هذا المقام بعد يومكَ هذا ، فقال يا رسول الله إنها ابنة عمى ، والله ماقلت منكرا ولا قالت لى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم: قد عرفت ذلك : إنه ليس أحد أغير من الله تعالى ، و إنه ليس أحد أغير منى ، فمضى ثم قال ما يمنعنى من كلام ابنة عمى ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية ، فأعتق الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله ، وحج ماشيا لأجل كلمته » . وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن نساء النبى لايكلَّمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهنّ من وراء حجاب ؟ فنزلت .

الإيضاح

لا إثم على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد لما فى الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله فى السر والعلن فإنه شهيد على كل شىء لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم فاتقوه فيما تأتون وما تذرون .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبى حال خلوته بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أردف ذلك بوجوب احترامه فى الملإ الأعلى بقوله : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفى الملإ الأدنى بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبى) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ؛ فالمعنى كما قال ابن عباس : إن الله يرحم النبى والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه فى الملإ الأعلى بأنه يثنى عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلى عليه طالبين له مغفرة من الله .

وقد أمرنا بأن نصلى عليه بقوله :

(يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) أى يأيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعته والانقياد لأمره فى كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بألسنتكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن عُجْرَة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد) .

روى عبدالله بن أبى طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى تُرى فى وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى فى وجهك ، فقال : جاءنى جبريل فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) .

المعنى الجمل

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيه فى بيته وفى الملإ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بإلصاق عيب أو نقص به .

الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصى ، ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» والنصارى الذين قالوا «الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ» والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً .

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم ، فمن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

(لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله فى الدنيا ، فجعلهم يتمادون فى غيهم ، ويدسّون أنفسهم ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التى ترديهم فى النار وبئس القرار ، وفى الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه .

(وأعد لهم عذابا مهينا) أى وهيأ لهم عذابا يؤلمهم ويجعلهم فى مقام الزراية والاحتقار ، والخزى والهوان .

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه ، بين ذلك بقوله :

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا : أى بغير جناية يستحقون بها الأذى ، والبهتان : الكذب الذى يبهت الشخص لفظاعته ، وإثما مبينا : أى ذنبا واضحا بينا .

الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات مالم يعملوه وماهم منه براء ، اجترحوا كذبا فظيعا ، وأتوا أمرا إدًّا ، وذنبا ظاهرا ليس له ما يسوّغه أو يقوم مقام العذر له .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت فى عبد الله بن أبىّ وناس معه قذفوا عائشة رضى الله عنها ؛ فخطب النبى صلى الله عليه وسلم وقال : «من يعذرنى من رجل يؤذينى ويجمع فى بيته من يؤذينى؟».

وروى أبو هريرة «أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «أىّ الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » .

يَأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، يدنين : أى يرخين ويسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدنى ثوبك على وجهك ،أدنى : أى أقرب ، أن يعرفن : أى يميزن عن الإساءة ، مرض : أى ضعف

إيمان بانتها كهم حرمات الدين ، والمرجفون : هم اليهود الذين كانوا يلفقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزلة ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مزلزلة غير ثابتة ، لنغرينك بهم : أى لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتانا و إثما مبينا ، زجرا لهم عن الإيذاء — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع .

روى أنه لما كانت الحرائر والإماء فى المدينة يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان و بين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلّموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر ليتمايزن ويُهبن فلا يطمع فيهن طامع .

الإيضاح

(يأيها النبي قل لأزواجك و بناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات و بخاصة أزواجه و بناته بأن يسدلن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليتميزن عن الإماء .

روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب و يبدين عينا واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .

و إجمال ذلك — إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطى الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .

ثم علل ذلك بقوله :

(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يُتَعَرَّض لهن ولا يَلْقَيْنَ مكروها من أهل الريبة احتراما لهن منهم ، فإن المتبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد فى كل عصر ومصر ، ولا سيما فى هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :

(لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى لئن لم يكفّ أهل النفاق الذين يستسرّون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف فى المدينة الذين ينشرون الأخبار الملفقة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكنّ من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكُراعهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لنسلطنك عليهم ولندعوَنّك إلى قتالهم وإجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد توعد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النفى من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرًّا .

(٢) من فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غُلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يجاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله و بابك ، و إذا خرجوا لاينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا و يؤخذوا و يقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم كما قال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلوهم و يقهروهم ، وهذه السنة لاتتغير ولا تتبدل ، لابتنائها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) .

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أي وأيّ شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أي نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أي ملوكنا ، وكبراءنا : أي علماءنا ، ضعفين من العذاب : أي مثلى عذابنا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث فى الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة فذكّرهم بيوم القيامة وبيّن ما يكون لهم فى هذا اليوم .

الإيضاح

(يسألك الناس عن الساعة) أي يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهكم والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيجيب بمثل ما فى التوراة من ردّ أمرها إلى الله أم يجيب بشيء آخر؟

فلقنه الله الجواب عن هذا بجعل ردّ ذلك إليه تعالى فقال :

(قل إنما علمها عند الله) الذي أحاط علمه بكل شيء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفى علمها من أحد غيره بقوله :

(وما يدريك) أي وأيّ شيء يعلمك وقت قيامها ؟ أي لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

(لعل الساعة تكون قريبا) أي لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

وفى هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيت للمتعنين والممتحنين .

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

(إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا) أى إن الله أبعد الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتقد وتتسعر ليَصْلِيهمُوها ، ما كثين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولىّ والنصير بقوله :

(لايجدون وليّا ولا نصيرا) أى لايجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير وينجيهم من عذاب الله بشفاعة أو نصرة كما هى الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصايب والنكبات .

(يوم تقلّب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أى لايجدون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة - يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم   والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .

ثم ذكر بعض معاذيرهم بالقائهم التبعة على من أضلوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لايجديه نفعا .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى ممن أوردهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوعهم فى بلواهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لايخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثلى عذابنا الذى تعذبنا به : مِثْلاً على ضلالهم ، ومثلا على إضلالهم إيانا ، واخزهم خزيا عظيما واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (٦٩) .

شرح المفردات

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين - أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لايورث الكفر كعدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم للفىء ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله لاتؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لايحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبى الله فرموه بالعيب كذبا وباطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لايسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعينه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خُلُقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هٰرون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فاحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وروى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لايُبَلِّغْنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال فمررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبتّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئا وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمرّ وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أوذى موسى بأ كثر من هذا فصبر» .

ومن هذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالقدح فى أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب فى بدنه كما روى .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً (٧١) .

شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذى يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمىّ ولم يعدل به عن سمته .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والحظوة إليه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه فتستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا فى رسول الله والمؤمنين قولا قاصدا غير جائر ، حقا غير باطل ، يوفقكم لصالح الأعمال ويغفر لكم ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها .

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينته عما نهاه عنه ويقل السديد من القول فقد ظفر بالمثوبة العظمى والكرامة يوم العرض الأكبر .

والخلاصة — إنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق فى الأقوال ، والخير فى الأفعال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ، ثم وعدهم على ذلك بأمرين :

(١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم فى الجنة خالدا فيها أبدا .

(٢) مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

إنا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) .

شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قِبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشىء منها ،

فأبين : أى كنّ غير مستمدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزّ اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعيها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم - أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاقّ على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام .

الإيضاح

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها وقوة أمرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهى والتبصر فى شئون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنّته وصغر جِرْمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتخفف من سلطانها عليه وتكْبت من جماحها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر فى العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله ستارا لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

تنبيـــه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشئون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم وجدوا مغمزا فى الإسلام وأصابوا هدفا يصمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه السامعين ، وأنّى لهم ذلك ، وليتهم فكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش مع خديجة خمسا وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت

الحسين ، وكان قد تزوجها فى شرخ شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيا لها حتى توفيت فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التى حدت النبى صلى الله عليه وسلم إلى التعدد ؛ وهى قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج فى تلقينه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحيي المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحيي الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة ممسّكة (قطعة قطن) فتوضئ - قالها ثلاثا وهو فى كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبى دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة رضى الله عنها ، والعرب تقول امرأة حمراء : أى بيضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة فى أول أمرها كانت فى حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لذَود عوادى الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يرون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه وقربهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لايعبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن عليا كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رغب فى أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبى طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصّر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سَوْدة بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلا معين ، وهى أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظا بعقيدته ، وقد شاركته هذه الزوجة فى أهوال التغريب والنفى ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاما، وكان زواجه منها سببا فى دخول خالد بن الوليد فى دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذى غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله فى الإسلام أيام غُرٌّ محجلة - إلى أن زواجها بالنبى صلى الله عليه وسلم يسر لذوى قرباها وسيلة للعيش فطعموا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جُوَيرية وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فحاربهم حتى هزموا ووقعت جويرية فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبى صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنسبها وطلبت حريتها فتذكر النبى صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدُد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق : إن أصهار رسول الله لايُسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبى بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرة عين لها ولأبويها وفخرا لذوى قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) يفاخر بنى هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذى توفى مجروحا فى موقعة بدر ؛ وفى تلك الحقبة كانت السيدة رُقية بنت الرسول وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة فى أم كلثوم بَضْعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأنفت نفسه فشكاه إلى أبى بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ويتزوج من هى خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبى صلى الله عليه وسلم) .

(٦) تزوج صفية بنت حيىّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكانت قد وقعت

فى السبى مع عشيرتها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رأفة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهى السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا فى كنف الإسلام و ينضووا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهى التبنى بتنزيل الدعىّ منزلة الابن الحقيقى ، و إذ أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فى هذا، فسعى فى تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينب ذات الحسب والجد فأنفت هى وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعىّ غير كفء ، فأنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هذا القران مترفعة عن زيد ضائقة به ذرعا فآثر فراقها فسأل الرسول الإذن فى ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنه .

ولما لم يبق لزيد فيها شىء من الرغبة طلقها فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهى إعطاء المتبَنّى حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا فى أثناء تفسير السورة بشىء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبى صلى الله عليه وسلم خوّل لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه ـ لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النصرة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن فى سن الكهولة أو جاوزنها .

أسباب إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام

يجدر بذوى الحصافة فى الرأى أن ينظروا إلى الأسباب التى دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقِموا عليه ذلك و يرموه بالقسوة ، فإن فى بعضها ما هو موجب للتعدد لا مجيز له فحسب .

وهاك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحياناً بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافى الشرف والمروءة و يُغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التى تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لا يجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن و يقومون بشئونهن ، فيكثر الفساد و يلحق الأسر العار وتعضهن الحياة بأنيابها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتعلو سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتتقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع مفض إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم فى الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص فى النسل بسبب منع التعدد من ناحية و إحجام كثير من شبانهم عن الزواج والاجتزاء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحِلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، و بذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء فى كثير من البلاد الغربية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا بعض المفكرين إلى النظر فى توريثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتغلغل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التى تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمى بخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التى تجعل النسل ضعيفا ضاويا لا يستطيع الكفاح فى الحياة .

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

(١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .

(٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحى مع ضرب المثل لذلك .

(٣) إبطال العادة الجاهلية وهى إعطاء المتبنى حكم الابن وبيان أن الدين منه براء .

(٤) إبطال التوريث بالحلف والتوريث بالهجرة ، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة .

(٥) ذكر النعمة التى أنعم بها عليهم فى وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب.

(٦) تخيير النبى نساءه بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة .

(٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع فى القول وأمرهن بالقرار فى البيوت ، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله ، ونهيهن عن التبرج .

(٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٩) ما أحل لنبيه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .

(١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه .

(١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شىء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .

(١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .

(١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .

(١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟

(١٥) النهى عن إيذاء النبي حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .

ســـورة سبأ

هى مكية إلا الآية السادسة منها فمدنية ، وعدد آيها أربع وخمسون نزلت بعد لقمان .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إن الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها تشا كل الصفات التى نسبت إليه فى مختتم السورة السالفة .

(٢) إنه فى السورة السابقة قد ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحا وطعنهم، على من يقول بالبعث، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله ، والحكيم : الذى أحكم أمر الدارين ودبره على حسب ماتقتضيه الحكمة، والخبير : هو الذى يعلم بواطن الأمور وخوافيها، يلج فى الأرض : أى يدخل فيها ، ويعرج : أى يصعد .

الإيضاح

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما فى السموات وما فى الأرض دون كل ما يعبدونه ودون كل شىء، سواه إذ لا مالك لشىء من ذلك غيره .

والخلاصة — إن له عز وجل جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة .

ولما بين اختصاصه بالحمد فى الدنيا أعقبه ببيان أن له وحده الحمد فى الآخرة فقال:

(وله الحمد فى الآخرة) أى وله الحمد فى الآخرة خالصا دون سواه على ما أنعم به فيها كما حكى عن أهلها من قولهم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وقولهم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ » .

(وهو الحكيم الخبير) أى وهو المدبّر لشئون خلقه على ما تقتضيه الحكمة، الخبير ببواطن الأمور ومكنوناتها .

ثم فصل بعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالح عباده الدنيوية والأخروية فقال :

(يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم ما يدخل فى الأرض كالغيث ينفذ فى موضع وينبع فى آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون والمعادن التى مضى عليها آلاف السنين ، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم كمخلفات المصريين القدماء ونقوش آشور وبابل وعجائب أهل سبأ وصناعاتهم مما استخرجه علماء العاديات من الأوربيين فى القرن الماضى والعصر الحاضر ، ولا يزالون كل يوم يكشفون جديدا يدل على أن الشرق كان ذا مدنية وحضارة لايدانيها أعظم ما يوجد فى الغرب الآن فى أرقى ممالكه .

(وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والأرزاق والمطر والصواعق .

(وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والدخان والطائرات والمطاود الجوية .

(وهو الرحيم الغفور) أى وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ، رحيم بعباده فلا يعاجل بالعقوبة ، غفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦).

شرح المفردات

لايعزب عنه : أى لايفوته علمه ، مقدار ذرة : أى مقدار أصغر نملة ، والكتاب المبين : اللوح المحفوظ ، رزق كريم : أى حسن لاتعب فيه ولا منّ عليه ، معاجزين: أى مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، رجز : أى عذاب شديد ، العزيز أى الذى يَغلِبُ ولا يُغلَب ، الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه ، وصراطه : هو التوحيد والتقوى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن له الحمد فى الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم ، أردف ذلك ببيان أن كثيرا منهم ينكرها أشد الإنكار ويستهزئ بمن يثبتها ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر أن مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان أن الناس فريقان : مؤمن

بآيات ربه يرى أنها الحق وأنها تهدى إلى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى إبطالها ، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) أى وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة : إنه لارجعة بعد هذه الدنيا ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما نحن بمبعوثين .

وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكدا لهم بطلان ما يدعون .

(قل بلى وربى لتأتينكم) أى قل لهم إنها وربى لآتية لاريب فيها .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكره من أهل الشرك والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وثانيتها فى سورة التغابن « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا. قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » وثالثتها ما هنا .

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم وعظيم الإحاطة بالموجودات مما يؤكد صحة البعث فقال :

(عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى إن وقت مجيئها لايعلمه سوى علام الغيوب الذى لايغيب عن علمه شىء فى السموات ولا فى الأرض من ذرة فما دونها ولا ما فوقها، أين كانت وأين ذهبت ، فكل ذلك محفوظ فى كتاب مبين ، فالعظام وإن تلاشت، واللحوم وإن تفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، فيعيدها كما بدأها أول مرة وهو بكل شىء عليم .

ثم بين الحكمة فى إعادة الأجسام وقيام الساعة بقوله :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى أثبت ذلك فى الكتاب المبين ليثيب الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به وانتهو عما نهاهم عنه، وأولئك لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم، وعيش هنىء فى الجنة لاتعب فيه ولا منّ عليه.

والخلاصة — إن الحكمة تقتضى وجودها وليس هناك مانع منها، فالعلم المحيط بالغيب موجود، فقد وجد المقتضى لوجودها وارتفع المانع من إثباتها.

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى وليجزى الذين سعوا فى إبطال أدلتنا وحججنا عنادامنهم وكفرا، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم بشديد العذاب، لما اجترحوا من السيئات ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال.

وإجمال ذلك — إن الساعة آتية لامحالة، لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين.

ونحو الآية قوله: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» وقوله: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ».

ثم استشهد باعتراف أولى العلم ممن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما بصحة ما أنزل إليك ليردّ به على أولئك الجهلة الساعين فى الآيات الذين أنكروا الساعة فقال:

(ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) أى وقال الجهلة المنكرون للبعث والحشر والحساب — إنه لارجعة بعد هذه الدنيا؛ وقال العالمون من أهل الكتاب ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من بعدهم من أمته: إن الذى أنزل إليك من ربك مثبتا لقيام الساعة

ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر - هو الحق الذى لاشك فيه وأنه هو الذى يرشد من اتبعه وعمل به إلى سبيل الله الذى لايغالب ولا يمانع وهو القاهر لكل شىء والغالب له، وهو المحمود على جميع أقواله وأفعاله وما أنزله من شرع ودين.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩).

شرح المفردات

تمزيق الشىء: تقطيع أوصاله وجعله قطعا قطعا، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق، ومنه قوله:

إذا كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

والافتراء: اختلاق الكذب، والجنة: الجنون وزوال العقل، كسفا: قطعا واحدها كسفة، منيب: أى راجع إلى ربه مطيع له.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا وأكده كل التأكيد، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن على ما عمل من صالح الأعمال وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات لقاء ما دسّى به نفسه من

اجتراح المعاصى وفاسد المعتقدات - أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلهم يرجعون عن عنادهم ويثوبون إلى رشادهم.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد؟) أى وقال قريش بعضهم لبعض تعجبا واستهزاء وتهكما وإنكارا: هل سمعتم برجل يقول: إنا إذا تقطعت أوصالنا، وتفرقت أبداننا، وبليت عظامنا، نرجع كرة أخرى أحياء كما كنا ونحاسب على أعمالنا، ثم نثاب على الإحسان إحسانا ونجزى على اجتراح الآثام آلاما، ونارا تلظى تشوى الوجوه والأجسام.

وخلاصة ذلك — إنه يقول إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطير ستحيون وتبعثون ثم تحاسبون على مافرط منكم من صالح العمل وسيئه؛ ثم قسموا حاله فى الإخبار بهذا فى نظرهم قسمين فقالوا:

(أفترى على الله كذبا أم به جنة؟) أى إن أمره فى هذا دائر بين أمرين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه أوحى إليه ذلك، أو أنه لُبِّس عليه كما يلبّس على المعتوه والمجنون.

وإجمال ذلك — إنه إما أن يكون مفتريا على الله وإما أن يكون مجنونا.

فرد الله عليهم مقالهم وأثبت لهم ماهو أشد وأنكى فقال:

(بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل إن محمدا هو البر الرشيد الذى جاء بالحق وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء الذين بلغوا الغاية فى اختلال العقل وأوغلوا فى الضلال، وبعدوا عن الإدراك والفهم، وليس هذا إلا الجنون بعينه، وسيؤدى ذلك بهم إلى

العذاب ، إذ هم قد أنكروا حكمة الله فى خلق العالم وكذبوه فى وعده ووعيده ، وتعرضوا لسخطه .

ثم ذكّرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته ، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التى تهلكهم ، وتهديد على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون للبعث بعد الممات ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضى وسمائى محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيرتدعوا عن جهلهم ، ويزدجروا عن تكذيبهم حذر أن نأمر الأرض فنخسف بهم أو نأمر السماء فنسقط عليهم كسفا ، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم فعلنا لكنا نؤخره لحلمنا وعفونا .

وإجمال ذلك — إنه تعالى ذكّرهم بأظهر شىء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا ، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا ، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء ، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لا تعجزه إعادة الأجسام ، فهى إذا قيست بها كانت كأنها لا شىء كما قال : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

وفى هذا ما لا يخفى من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة فى الحث على الاستدلال بذلك ، ليزيح إنكارهم بالبعث فقال :

(إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) أى إن فى النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن منيب إلى ربه على كمال قدرتنا على بعث الأجساد ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها ، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها — قادر على إعادة الأجسام ، ونشر

الرميم من العظام ، كما قال « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

فضلا : أى نعمة وإحسانا ، أوّبى معه : أى رجّعى معه التسبيح وردّديه ، وألنا له الحديد : أى جعلناه فى يده كالشمع والعجين يصرّفه كما يشاء من غير نار ولا طَرْق ، وسابغات من السبوغ وهو التمام والكمال : أى دروعا كاملات ، قدّر أى اقتصد ، والسرد : النسج : أى اجعل النسج على قدر الحاجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله ورجع إليه - أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين ، ومن جملتهم داود عليه السلام فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوى العدد والعُدد ومنحه الصوت الرخيم ، فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات ، وتقف له الطيور السارحات ، وعلمه سرد الدروع لتكون عُدّة للمقاتلين ورِدْءا للمجاهدين .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير) أى ولقد أعطينا داود منا نعما ومننا فقلنا للجبال وللطير رجّعى معه التسبيح وردّديه إذا سبح ، وذلك بأن تحمله عليه إذا تأمل عجائبها فهى له مذكرات كما يذكر المسبّح مسبحا آخر .

(وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) أى وجعلنا الحديد فى يده لينا يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء ، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم النظم وأحكم الأوضاع ، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة فلا هى بالضيقة فتضعف ولا تؤدى وظيفتها لدى الكر والفر والشد والجذب ، ولا هى بالواسعة التى ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى ، وهنا تعليم من الله له فى إجادة نسج الدروع .

قال قتادة : إن داود أول من عملها حِلَقا وكانت قبل ذلك صفائح فكانت ثقالا .

(واعملوا صالحا) أى واعمل ياداود أنت وآلك بطاعة الله فأجازيكم كفاء ما عملتم .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إنى بما تعملون بصير) أى إنى مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لايخفى على شىء منها .

وفى هذا ما لايخفى من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل والإخلاص فيه .

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) .

شرح المفردات

غدوّها شهر : أى جريانها بالغداة مسيرة شهر ، ورواحها شهر : أى وجريانها بالعشى مسيرة شهر ، وأسلنا : أى أذبنا ، والقطر : النحاس المذاب ، ومن يزغ منهم عن أمرنا : أى ومن يعدل عن طاعة سليمان ، عذاب السعير : أى العذاب الشديد فى الدنيا ، والمحاريب واحدها محراب : وهو كل موضع مرتفع قال الشاعر :

وماذا عليه أنْ ذكرتُ أوانسا		كغزلان رمل فى محاريبِ أقيال

والتماثيل : الصور ، والجفان واحدها جفنة : وهى القصعة ، والجوابى واحدها جابية : وهى الحوض الكبير ، وقدور : واحدها قدر ، وراسيات : أى ثابتات على أثافيها لاتتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمها ، الشكور : الباذل وسعه فى الشكر قد شغل قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافا واعتقادا وعملا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مامنّ به على داود من النبوة والملك ـ أردف ذلك بذكر ماتفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح ، فتجرى من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس على نحو ما كان لداود من إلانة الحديد وتسخير الجن عَمَلَة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من قصور شامخات وصور من نحاس وجفان كبيرة كالأحواض وقدور لاتتحرك لعظمها .

إذ كل منهما أناب إلى ربه وجال بفكره فى ملكوت السموات والأرض وكان من المؤمنين المخبتين الذين هم على ربهم يتوكلون .

الإيضاح

عدّد سبحانه ما أنعم به على سليمان عليه السلام وهو أمور :

(١) (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح تجرى بالغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، وتجرى بالرواح من منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر .

قال قتادة تفسيرا للآية : كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدوّ إلى الزوال مسيرة شهر ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر. وقال الحسن البصرى: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصْطَخْر يتغدى بها، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابُل، و بين دمشق و إصطخر شهر كامل للمسرع ، و بين إصطخر وكابل شهر كذلك .

(٢) (وأسلنا له عين القطر) أى وأذبنا له النحاس كما ألنا الحديد لداود ، فكان يعمل منه أعماله وهو بارد دون حاجة إلى نار ، وقد سال من معدنه فنبع نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا .

(٣) (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخرنا له من الجن من يبنى له البنايات وغيرها بقدرة ربه وتسخيره ، ومن يخرج منهم عن طاعته يذقه عذابا أليما فى الدنيا .

وإنا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن ولا نعلم كيف كان يستخدمهم فى أعماله ، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المبانى الشاهقة والقصور العظيمة والتماثيل البديعة التى فصلها سبحانه بقوله :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) أى يعملون له مايشاء من القصور الشامخة والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها ، والجفان الكبيرة التى تكفى لعشرات الناس ، قال الأعشى يمدح آل جَفْنَةَ من الغساسنة بالشام :

نفى الذمَّ عن آل المحلَّق جفنةٌ   كجابية الشيخ العراقىِّ تفهقُ

القدور الثوابت فى أماكنها التى لا تتحرك ولا تتحول لكبرها وعظمها .

(اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له على نعمه التى أنعمها عليكم فى الدين والدنيا . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود ، فقلنا ماهن ؟ فقال العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وخشية الله فى السرّ والعلانية » أخرجه الترمذى .

والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول و يكون بالنية كما قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

ثم ذكر السبب فى طلب الشكر منهم فقال :

(وقليل من عبادى الشكور) أى وقليل من عبادى من يطيعنى شكرا لنعمتى ، فيصْرِف ما أنعمت به عليه فيما يرضينى ، وقد قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر .

ونحو الآية قوله : (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ) وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الله حتى تَفَطَّرَ قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال أفلا أكون عبدا شكورا » خرجه مسلم فى صحيحه .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَادَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) .

شرح المفردات

قضينا عليه : أي حكمنا عليه ، دابة الأرض : هي الأرضة (بفتحات) التي تأكل الخشب ونحوها ، والمنسأة : العصا ؛ من نسأت البعير إذا طردته ، قال الشاعر :

ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا

لأنها يطرد بها ، وخر : سقط ، وما لبثوا : أي ما أقاموا ، في العذاب المهين : أي في الأعمال الشاقة التي كلفوا بها .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عز اسمه عظمة سليمان وتسخيره الريح والجن ـ أردف ذلك ببيان أنه لم ينج أحد من الموت بل قضى عليه به ، تنبيها للخلق إلى أن الموت لابد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة .

الإيضاح

إنا لما قضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات لم يدل الجن على موته إلا الأرضة التي وقعت في عصاه من داخلها ؛ إذ بينما هو متكئ عليها وقد وافاه القضاء المحتوم انكسرت فسقط على الأرض واستبان للجن أنهم لايعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ، ولو علموه لما أقاموا في الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها ظانين أنه حي .

والكتاب الكريم لم يحدد المدة التي قضاها سليمان وهو متوكئ على عصاه حتى علم الجن بموته ، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة ، ومثل هذا لاينبغي الركون إليه ، فليس من الجائز أن خدم سليمان لايتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوما كاملا دون أن يحادثوه في ذلك ويطلبوا إليه القيام بخدمته ، فالمعقول أن الأرضة بدأت العصا وسليمان لم يتنبه لذلك ، وبينما

هو متوكئ عليها حانت منيته ، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها فى العصا فانكسرت فخرّ على الأرض فعلمت الجن كذبها ، إذ كانت تدعى أنها تعلم الغيب ، إذ لو علمته مالبثت ترهق نفسها فى شاقّ الأعمال التى كلفت بها .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

شرح المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحْطان ؛ والمراد به هنا القبيلة ، والمسكن : موضع السكنى وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب ، جنتان : أى بستانان ، فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم ، والعرم : واحدها عرمة ؛ وهى الحجارة المركومة كخزان أسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل ، وكانت له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، والمطر يجتمع أمام ذلك السد ، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل ، والأكل : الثمر ، والخمط : كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : الطرفاء ؛ وهو المعروف فى مصر (بالأثل) والسدر : شجر النبق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين إليه ـ أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه ، المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب ، موعظة لقريش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

الإيضاح

(لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى لقد كان أهل هذا الحى من ملوك اليمن فى نعمة عظيمة وسعة فى الرزق ، وكانت لهم حدائق غناء وبساتين فيحاء عن يمين الوادى وشماله ، وقد أرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن ، وأحسن إليهم بتلك النعم ، فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل عليهم فتفرقوا فى البلاد شذَرَ مَذَرَ ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) أى فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل فأرسل الله عليهم سيلا كثيرا ملأ الوادى وكسر السدّ وخربه وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت فى البلاد ، وبدلوا من تلك الجنان والبساتين التى سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها كالخمط والأثل وقليل من النبق .

ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله :

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى وجازيناهم ذلك الجزاء الفظيع من جرّاء كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه ، وتكذيبهم بالحق ، وعدولهم

عنه إلى الباطل ، وما نجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الكفران للنعم ، الجحود للفضل والمنن .

سد مأرب — سد العرم

وصف هذا السد مؤرخو العرب فى عصور مختلفة . وأصدق من أجاد وصفه الهمدانى فى كتابه (وصف جزيرة العرب) قال : فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال هى شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالى ، و بين هذه الجبال أودية تصب فى واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى آذنة ، وهو يعلو سطح البحر بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق ، أحدهما بلق الأيمن وثانيهما بلق الأيسر والمسافة بينهما ستمائة ذراع يجرف السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى فى وادى أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلق و بنوا فى عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، و إنما يستقى أهلها من السيول التى تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها فى الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا وجفت أغراسهم ، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى فنالهم منه أذى كثير .

و بين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضا و بساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين الجنة اليمنى والجنة اليسرى اهـ بتصرف .

وقد ظل الباحثون والمنقبون فى العصر الحديث فى شك من أمر هذا السد حتى

تمكن المستعرب الفرنسى أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له مصورا نشر فى المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفى وغلازر ووافقاه فيما قال وصادقاه فيما وصف وهو يطابق من وجوه كثيرة ما قاله الهمدانى فى كتابه ثم عثروا فيما بعد على نقوش كتابية فى خرائب السد وغيرها تحققوا بها صدق خبره .

قال الأصفهانى : إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربعمائة سنة ، وقال ياقوت: إنه هدم فى نحو القرن السادس للميلاد ، وقال ابن خلدون : إنه تهدم فى القرن الخامس للميلاد .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) .

شرح المفردات

القرى التى باركنا فيها : هى قرى الشام ، قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الآكام وهى أصح القرى ، وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل ، فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ، ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدو ولا سبع ، آمنين : أى من كل ما تكرهون ، وظلموا أنفسهم لأنهم بطروا النعمة ، والأحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب ، ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق ، الصبار : كثير الصبر

عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات ، والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه ما أُوتُوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار — قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

الإيضاح

(وجعلنا بينهم و بين القرى التى بار كنا فيها قرى ظاهرة) أى وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التى باركنا فيها بالتوسعة على أهلها قرى متواصلة يظهر بعضها لبعض ، لأنها مبنية على آكام عالية .

(وقدرنا فيها السير) أى وجعلنا بين بعضها و بعض مقادير متناسبة بحيث يقيل الغادى فى قرية ، و يبيت الرائح فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام وهو لا يحمل معه زادا ولا ماء .

(سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) أى وقلنا لهم سيروا فى هـذه القرى التى بين قراكم وقرى الشام التى باركنا فيها ليالى وأياما وأنتم آمنون لا تخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوّا يبطش بكم ، بل تغدون فتقيلون ، وتروحون فتبيتون فى قرية ذات جنان ونهر .

وخلاصة هذا — إنهم كانوا فى نعمة وغبطة وعيش هنىّ رغد فى بلاد مرضية وأماكن آمنة وقرى متواصلة ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ؛ فالمسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، فهو يقيل فى قرية و يبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم .

ثم ذكر أنهم بطروا وملّوا تلك النعم وآثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير كما فعل بنو إسرائيل فطلبوا أن يُفصل بين القرى بمفاوز وقفار، ليُظهر القادرون منهم الأزواد والرواحل تكبرا وفخرا على العاجزين كما حكى سبحانه عنهم بقوله :

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فاجعل بيننا و بين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، فأجاب الله طلبهم وعاقبهم على بطرهم بالنعمة كما قال :

(وظلموا أنفسهم) إذ قد عرّضوها للسخط والعـذاب بغمط النعمة وعدم الوفاء بشكرها .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أى فجعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها و يعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيّ وصاروا مضرب الأمثال فقيل للقوم يتفرقون ؟ تفرقوا أيدى سبا ، فنزل آل جفنة ابن عمرو الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت أزد السّراة السّراة ، ونزلت أزد عمان عُمانا ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه .

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى ذلك الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام — لعبرة لكل عبد صبار على المصايب ، شكور على النعم .

روى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » وكان مُطرّف بن الشِّخِّير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابْتُلِى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) .

شرح المفردات

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا ، لانهما كهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى اللذات ، سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة ، حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ ، وما كان من أمرهم فى اتباع الهوى والشيطان - أردف ذلك بالإخبار بأنهم صدقوا ظنّ إبليس فيهم وفى أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال ، إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته ، وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لاسلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

الإيضاح

(ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط عقوبة منالهم - ظنا غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه فى معصية الله ، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا ربهم تحقق صدق ظنه فيهم ، إلا فريقا من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس .

ثم ذكر أنه ابتلاهم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين فى الآخرة فقال :

(٢٠) (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها، ولكنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم ليظهر حال من يؤمن بالآخرة ويصدّق بالثواب والعقاب ممن هو منها فى شك، فلا يوقن بمعاد، ولا يصدق بثواب ولا عقاب .

قال الحسن البصرى : والله ماضربهم بعصا، ولا أكرههم على شىء، وما كان إلا غرورا وأمانىّ دعاهم إليها فأجابوه .

وخلاصة ذلك : لاسلطان لإبليس على قلوب الناس، ولكنى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة، والأوبئة على البلاد التى لم يراع أهلها شروط النظافة فى مساكنهم وملابسهم ومآكلهم، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة، فإذا حل الوباء بأرض مات من لاقدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض وبقى من هو قادر على المقاومة ولديه قوة المناعة، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزلها، ومن انقاد لها فلا يلومنّ إلا نفسه وهو المذنب وحده، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصايب وآلام يثبت لها ذوو العزيمة الصادقة، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذى ليس له جلد ولا صبر .

(وربك على كل شىء حفيظ) أى وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم، لايعزب عن علمه شىء، وهو يجازيهم جميعا يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من خير أو شر، فمن أخبت لله وأناب إليه لاقى من الثواب ما لاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن دسّى نفسه الأمارة بالسوء وانهمك فى شهواته لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا ؟ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) .

شرح المفردات

ادعوا : أي نادوا ، زعمتم : أي زعمتموهم آلهة ، من شرك : أي شركة، والظهير: المعين، والتفزيع: إزالة الفزع؛ وهو انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزت قدرته ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل - أعقب ذلك بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فاعلموا أنهم مبطلون .

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شىء من ذلك ، إذ لاتصرف لهم فى شىء فى السموات والأرض لا استقلالا ولا شركة ، ولا هم معينون للخالق فيهما ، ولا تنفع شفاعتهم لديه ، فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبخا لهم ومبينا لهم سوء ما يصنعون : ادعوا هؤلاء الأصنام فى مهام أموركم ليدفعوا الضر عنكم أو يجلبوا النفع لكم ، لعلهم يستجيبون لكم إن كان ذلك فى مُكْنتهم و بيدهم مقاليد أموركم .

ثم أبان لهم عظيم خطئهم وكبير جرمهم فقال :

(لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أى هؤلاء الآلهة لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض من خير أو شر ، فكيف يكونون آلهة يرجى معهم نفع أو يخشى منهم ضر .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » .

(وما لهم فيهما من شرك) أى ولا هم يملكون مثقال ذرة فيهما على سبيل الشركة ، والمراد أنهم لايملكون شيئا لاعلى سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة للخالق لهما .

(وما له منهم من ظهير) أى وما لله من الآلهة التى يدعون من دونه ـ معين على خلق شىء من ذلك ، ولا على حفظه .

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى ، إذ لاشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع ، وهو لايأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين كما قال تعالى : « لَايَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » . والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبدا .

ثم ذكر ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة فقال :

(حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أى يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة وجلين حتى إذا أذن للشافعين وأزيل الفزع عن قلوب المنتظرين قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فى الإذن بالشفاعة ؟ قالوا قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .

والآيات تدل على أن المشفوع لهم هم المؤمنون ، والكافرون بمعزل عن موقف الاستشفاع .

والخلاصة — إن الشفاعة لاتنفع فى حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين

والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ثم ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق الكون وقصور كل ما سواه فقال :

(وهو العلى الكبير) أى وهو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لايشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه .

وفى هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم بالشفاعة ، وفيه أيضا ثناء على الله كما لايخفى .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَاتُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

شرح المفردات

أجرمنا : أى وقعنا فى الجُرْم، وهو الذنب ، ويفتح : أى يحكم ، والفتاح : الحاكم، أرونى الذين ألحقتم به شركاء : أى أعلمونى بالدليل وجه الشركة ، كلا: كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب .

المعنى الجملى

بعد أن سلب سبحانه عن شركائهم ملك شىء من الأكوان ، وأثبت أن ذلك له وحده - أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية ، وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد - مبطل والآخر

محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخَذون بما نعمل ولا نؤاخذ بما تعملون ، وأن يقول لهم : إن ربنا هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل ما يفعل .

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنامَ : من يرزقكم من السموات بإنزال الغيث عليكم، حياة لحروثكم وصلاحا لمعايشكم ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم ـ ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأقوات أنعامكم ؟

فإن هم قالوا لاندرى فأجبهم :

(قل الله) هو الذى يرزقكم ، إذ لاجواب عندهم سواه فى قرارة أنفسهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عنادا مع علمهم بصحته ، ولأنهم لو تفوّهوا به لقيل لهم : فما لكم لاتعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لايقدر على الرزق ؟ كما قال سبحانه تبكيتا لهم : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ » .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم بعد الإلزام الذى ليس بأقل من الاعتراف بأنفسهم .

(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجماد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع ـ لعلى الهدى أو فى الضلال المبين الذى لاشك فيه .

وهـذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى محاوراتها لإرخاء العنان للمخاطب حتى إذا سمعه الموافق أوالمخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك.

ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء ٍ	فشركما لخـــيركما الفداء

وفى ذكر هذا بعد ما تقدمه من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضالّ ، والإيماء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأســـند الإجرام إلى أنفسهم والعمل للمخاطبين فقال :

(قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) أى قل لهؤلاء المشركين : أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الآثام وارتكبنا من الذنوب ، ونحن لانسأل عما تعملون من عمل ـ خيرا كان أو شرا .

ونحو الآية قوله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَـكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهنالك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية كما قال : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتا لهم فقال :

(قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى قل لهم : ما الذى عراكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم وعظيم خطئهم بقوله :

(كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم) أى ليس الأمر كما وصفتم ، فلا نظير له تعالى ولا ندّ ، بل هو الله الواحد الأحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياتيه الأولى والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة لمستزيد ــ شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيحملهم ذلك على مخالفتك ، ثم ذكر سؤال منكرى البعث عن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

الإيضاح

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى وما أرسلناك إلى قومك خاصة ، بل أرسلناك إلى الخلق جميعا عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاعنى بالثواب العظيم ، ومنذرا من عصانى بالعذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقوله : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم فيه من الغى والضلال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء لفرط تعنتهم وجهلهم : متى هذا الذى توعدوننا به مبشرين ومنذرين إن كنتم أيها الرسول والمؤمنين صادقين فيما تقولون .

ونحو الآية قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » .

ثم أمر رسوله أن يجيبهم عن سؤالهم فقال :

(قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى قل لهم أيها الرسول إن لكم ميعاد يوم هو آتيكم لا محالة ، لاتستأخرون عنه ساعة إذا جاء فتنظروا للتوبة والإنابة ولا تستقدمون قبله للعذاب ، لأن الله جعل لكم أجلا لاتعدونه .

والخلاصة — دعوا السؤال عن وقت مجيء الساعة ، فإنه كائن لامحالة ، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون فهذا أليق بكم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) .

المعنى الجملى

لما ذكر الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا - ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الإهانة بوضع الأغلال فى الأعناق، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيىء الأعمال، وما دسّوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى وقال مشركو العرب : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته ، ولا بما اشتملت

عليه من أمور الغيب التى تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء .

روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون صفته فى كتبهم فأغضبهم ذلك وقالوا ما قالوا :

ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضالهم ومضليهم حين الوقوف بين يدى الملك الديان للحساب والجزاء فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) أى ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين وما هم فيه من مهانة وذلة ، يحاور بعضهم بعضا ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال والسبب فيمن أوقعهم فى هذا النكال والوبال - لرأيت العجب العاجب والمنظر المخزى الذى يستكين منه المرء خجلا .

ثم فصل ذلك الحوار فقال :

(يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) أى يقول الأتباع للذين استكبروا فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال ، لولا أنتم أيها السادة صددتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول .

ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله :

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذجاءكم ؟ بل كنتم مجرمين) أى قال الذين استكبروا فى الدنيا وصاروا رؤساء فى الكفر والضلالة للذين استضعفوا فكانوا أتباعا لأهل الضلال منهم : أنحن منعناكم من اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم وإيثاركم الكفر على الإيمان .

والخلاصة — إننا لم نَحُلْ بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه ، بل كنتم مجرمين ، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى .

ثم حكى رد المستضعفين على قول المستكبرين بقوله :

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى وقال الأتباع للرؤساء فى الضلال: صدنا مكركم بنا وخداعكم فى الليل والنهار، حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أمثالا وأشباها فى العبادة.

وإجمال ذلك — ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى وأنا على شىء، كل ذلك باطل وكذب.

ثم ذكر مآل أمرهم وسوء عاقبتهم فقال:

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين ـ الندم على ما فرط منهم فى الدنيا حين رأوا العذاب، إذ هم بهتوا مما عاينوا فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة.

والخلاصة — إنهم ندموا على ما فرّطوا من طاعة الله فى الدنيا حين شاهدوا عذابه الذى أعده لهم.

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى وجعلنا أغلال الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار.

ثم ذكر أنه لا جزاء لأمثالهم إلا هذا فقال:

(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى وما يفعل ذلك بهم إلا جزاء لما اجترحوا من الكفر والآثام «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» وقد قالوا فى أمثالهم: إنك لا تجنى من الشوك العنب.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قول المشركين لرسوله لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد أن طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ـ سلاه مما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعداوتهم إياه آمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فإنه ليس بدعا من بينهم ، فما من نبى بعث فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤها كما قال : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » ثم ذكر حجتهم بأنهم لاحاجة لهم إلى الإيمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره كما يكون للبر يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ؛ ثم ذكر أن المتقين يمتعون إذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف ، وأوعد الممسكين بالإتلاف .

الإيضاح

(وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) أى وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا ينذرهم بأسنا أن ينزل عليهم على معصيتهم إيانا إلا قال

كبراؤها وأولو النعمة والثروة فيها : إنا لانؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد .

وليس فى ذلك من عجب ، فإن المنغمسين فى الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحى ، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة ، فالضدان لايجتمعان : انغماس فى الشهوة وعلم وحكمة ، ثروة مادية وثروة روحية .

ثم ذكر تفاخرهم بما هم فيه من بسطة العيش ، وكثرة الولد وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب فى الآخرة بقوله :

(وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أى وقال المستكبرون فى كل قرية أرسلنا فيها نذيرا : إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة فى الأموال فنحن لانعذب ، لأن ذلك دليل على محبة الله لنا ، وعنايته بنا ، وأنه ما كان ليعطينا ما أعطانا ثم يعذبنا فى الآخرة .

هيهات هيهات ، إنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا ، وأخطئوا القياس « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ » .

وخلاصة آرائهم — نحن فى نعمة لاتشوبها نقمة ، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا ، إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه ـ مخالفا لما يرضيه ـ لما كنا فيما نحن فيه من نعمة و بسطة فى العيش وكثرة الأولاد .

فرد الله عليهم مقالتهم آمرا رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يبسط الرزق من معاش ورياش فى الدنيا لمن يشاء من خلقه ويضيق على من يشاء ، لا لمحبة فيمن بُسط له ذلك ، ولا خير فيه ولا زلفى استحق بها ذلك ، ولا لبغض منه لمن قُدِر عليه ولا لمقت منه له ، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها

لكسب المال فى هذه الحياة ، فمن سلك سبيلها وصل إلى ما يبغى . ومن أخطأها وضل لم ينل شيئا من حظوظها ؛ ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله ، ألا ترى أنه ربما وسع سبحانه على العاصى وضيق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على المطيع أو العاصى تارة ويضيق عليهما أخرى - يفعل كل ذلك على حسب ما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة التى قد نعلمها وربما خفى علينا أمرها ، ولو كان البسط دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع ، ولو كان التضييق دليل الإهانة لاختص به العاصى ، ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الله يفعل ذلك على حسب السنن التى وضعها فى الكون ، بل يظنون أن ذلك لمحبة منه لمن بسط له ، ومقت منه لمن قُدِر عليه ، حتى تحير بعضهم واعترض على الله فى البسط لأناس والتضييق منه على آخرين ومن ثَمَّ قال :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا

ثم بين سبحانه لعباده أن الزلفى عنده ليست بكثرة المال والولد ، بل بالتقوى وصالح العمل ، فقال :

(وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) أى وما أموالكم التى تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتى تقربكم منا ، لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقربانهم منى ، وأولئك أضاعف لهم ثواب أعمالهم فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون من كل خوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

روى عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها ، فقال أعرابى لمن هى ؟ قال : لمن طيَّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

ثم بين حال المسىء الذى يبعده ماله وولده من الله فقال :

(والذين يسعون فى آياتنا معاجزين فأولئك فى العذاب محضرون) أى والذين يصدون عن آيات كتابنا بالطعن فيها يبتغون إبطالها ، و يريدون إطفاء أنوارها ظانين أنهم يفوتوننا وأننا لن نقدر عليهم ، فأولئك فى عذاب جهنم يوم القيامة تحضرهم الزبانية إليها ولا يجدون عنها محيصا ، ولا يجديهم نفعا ما عوّلوا عليه من شفاعة الأصنام والأوثان .

ثم زهد عباده فى الدنيا وحضهم على التقرب إليه بالإنفاق فقال :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده حينا و يضيقه عليه حينا آخر، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا إليه بأموالكم لتنالكم نفحة من رحمته .

(وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) أى وما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم و يعوضكم بدلا منه فى الدنيا مالا وفى الآخرة بالثواب الذى كلٌّ خلف دونه ، وفى الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة إذ قال : إذا كان لأحدكم شىء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه » فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

(وهو خير الرازقين) فيرزقه من حيث لا يحتسب ولا رازق غيره .

روى الشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، و يقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن حال النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه ليس بدعا بين الرسل، فحاله معهم كحال من تقدمهم منهم مع أقوامهم، فكلُّهم كُذّبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله؛ ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لاصلة لها بمحبة الله، ولا سخطه - أردف ذلك بما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة أمامهم: هل هؤلاء كانوا يعبدونكم؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم إليهم، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لايقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم: ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون.

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك: يوم نحشر العابدين منهم والمعبودين المستكبرين منهم والمستضعفين، ثم نسأل الملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟

وهذا سؤال وجه إلى الملائكة ظاهرا، والمراد منه تقريع المشركين وتيئيسهم مما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم، فهو وارد على نهج قولهم: إياك أعنى واسمعى ياجاره،

وعلى نهج قوله تعالى لعيسى « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ؟ » .

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى بُرَآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، ولكن جاء ليقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون توبيخهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم .

(قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى قالت الملائكة : تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله ، نحن عبيدك نبرأ إليك من هؤلاء وأنت الذى نواليه دونهم ، فلا موالاة بيننا و بينهم .

والخلاصة — إننا براء من عبادتهم والرضا بهم .

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله :

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) أى بل هم كانوا يعبدون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون ، إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم ويستغيثون بهم فى قضاء حاجتهم كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة .

ونحو الآية قوله : « إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ » .

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم زادهم أسى وحسرة فقال :

(فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) أى فاليوم لايقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم ، لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، لايملك أحد فيه منفعة لأحد ولامضرة له.

(ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) أى ونقول للمشركين زجرا لهم وتأنيبا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم ،

فها أنتم أولاء قد وردتموها وسمعتم شهيقها وزفيرها ، وليس الخبر كالخبر ، ولا السماع كالمعاينة، فعضوا بنان الندم أسى وحسرة على ما قدمتم فى دنياكم، فجنيتم صابه وعلقمه فى أخراكم .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة وأنه يـ[illegible]ـل لهم يومئذ : ذوقوا عذابها الذى كنتم به تكذبون ــ أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب

وهو صدهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى ، وإنه سحر واضح لاشك فيه ، وقد كان فيما حلّ بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ماهم فيه وأوصاهم بأن يشمروا لطلب الحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوّفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة وقد كان لهم من حاله مايرغبهم فى دعوته ، فهو لايطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شىء ؛ ثم أبان لهم أن الحق قد وضح وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور الحق « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على المشركين دالة على التوحيد وبطلان الشرك ، قالوا إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد ، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدعى ، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل .

ثم زادوا إنكارهم توكيدا وأيأسوه من الطمع فى إيمانهم .

(وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) أى وقالوا إن القرآن الذى يدّعى محمد أنه وحى من عند ربه ـ كذب مختلق من عنده ، وقد نسبه إلى ربه ترويجا للدعوة واجتلابا لقلوب الكافة .

ثم شدّد مافى الإنكار فجعلوه سحرا بيّنا لاشك فيه عندهم كما حكى عنهم بقوله :

(وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى وقال المشركون

لِمَا جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه مشتملا على الهدى والشرائع التى وجهتهم فى حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة تكون بها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وغيَّرت الطريق التى ورثوها عن الآباء والأجداد ـ ما هذا إلا سحر بيّن لاخفاء فيه عندنا ، وقد أعمى أبصارنا وأضل أحلامنا فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل ، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها ويداخل النفوس ويستحوذ عليها ، ونحن فى حيرة من أمره لانجد طريقا للتغلب عليه بالوسائل التى نعرفها وهى بين أيدينا.

والخلاصة — إنهم نفوا أن يكون وحياً من عند ربه وجعلوه إما كلاما مفترى جاء به لترويج دعوته ، وإما سحرا فعله ليخْلُب به العقول ويصد الناس عن الدين الحق الذى ورثوه عن الآباء والأجداد .

فرد الله سبحانه عليهم منكِرا دعواهم أن دينهم هو الدين الحق بقوله :

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى إن الدين الصحيح إنما يأتى بوحى من عند الله وبكتاب ينزل على الرسول ليبلغه للناس ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التى تكون بها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، وهم أمة أميّة لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذى يرشد إلى صحة الإشراك بالله ، وينفى توحيد الخالق حتى يكون لهم معذرة فيما يدّعون ، وحجة على صحة ما يعتقدون ؟ .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم والتجهيل لهم :

ونحو الآية قوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » وقوله : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم لو كانوا يعقلون ، سلك بهم سبيل التهديد والوعيد وضرب لهم المثل بالأمم التى كانت قبلهم وسلكت سبيلهم ولم تجدِها الآيات والنذر ، فحل بها بأس الله وأتاها العذاب من حيث لاتحتسب فقال :

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أى ولقد كان لهم فيمن قبلهم من الأمم البائدة والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره ، فكذبوا رسلى حين أرسلوا إليهم لحل بهم النكال والوبال ودُمّروا تدميرا ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وإنهم ليشاهدون آثارهم فى حلهم وترحالهم فى غدوّهم ورواحهم كما قال فى آية أخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

والخلاصة — إن فيما حل بمن قبلهم من المثلات نكالا لهم على تكذيبهم رسلهم — لعبرة لهم لو كانوا يعقلون .

ثم أطال لهم الحبل ومدّ لهم الباع وأنصفهم فى الخصومة فقال :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى قل لهم : إنى أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا ، بل اتئدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه وجدّوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل وتكونون قد أنصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورانت على قلوبكم فلم تجعل الحق ينفذ فيها .

وإنما طلب إليهم التفكر وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا ، لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف ، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب وتبلبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة مايؤيد صدق هذا .

ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدى بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

(ما بصاحبكم من جنة) إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لايتصدى لادّعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لايبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه .

وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى ؛ فوجب عليكم أن تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم مشهور لديهم ، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنُّبل وكرم الخلال مما لم يتهيأ لأحد من أترابه ولِدَاته .

وإذ قد استبان بالدليل أنه ليس بالمجنون فى كل مايقول ويدعى ، اتضح أنه صادق كما قال :

(إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) أى ماهذا الرسول بالكاذب ، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه ، لكفركم به وعصيانكم أمره .

وإنما جعل إنذاره بين يدى العذاب ، لأن محمدا مبعوث قرب الساعة كما جاء فى الحديث « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : ياصباحاه ، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » .

ولما نفى عن رسوله الجنون وأثبت له النبوة — ذكر وجها آخر يؤكد ذلك فقال :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد) أى قل لهم : إنى لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة ربى إليكم ونصحى لكم وأمرى بعبادته ، إنما أطلب ثواب ذلك من الله ، وهو العليم بجميع الأشياء ، فيعلم صدق وخلوص نيّتى .

وإذا علم أن الذى حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمرا دنيويا، ثبت أن الذى حفزه إلى ذلك هو أمر الله تعالى له وقد صدع به « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » وبهذا ثبت أنه نبىّ .

ولما استبان أنه ليس بالمجنون ولا هو بطالب الدنيا ـ علم أن الذى جاء به هبط إليه من السماء وقذفه الوحى إليه ، وقد أمر أن يبلغه إليهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) القذف الرمى بدفع شديد: أى قل لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث : إن ربى يلقى الوحى وينزله على قلب من يجتبيه من عباده ، وهو العليم بمن يصطفيهم كما قال سبحانه : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وقال : « يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

وقد يكون المعنى كما روى عن ابن عباس : إن ربى يقذف الباطل بالحق ؛ أى يورده عليه حتى يبطله ويزيل آثاره ويشيع الحق فى الآفاق .

ولا يخفى ما فى هذا من عِدَة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس وتبلج نوره فى الكون ، ونحوه « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

ثم أكد ما سلف بأمره صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه بأن الإسلام سيعلو على سائر الأديان وأن غيره سيضمحل ويزول فقال :

(قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى قل جاء الإسلام ورفعت رايته وعلا ذكره ، وذهب الباطل فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده .

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

وأصله فى هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أى فعل أمر ابتداء، ولا إعادة أى فعله ثانيا ، وأنشدوا لعَبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله عَبِيد   فاليوم لا يُبدى ولا يُعيدُ

روى البخارى ومسلم « أنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعُن الصنم منها بسِيَة قوسه ويقرأ : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ــ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ولما سد عليهم مسالك القول ، لم يبق إلا أن يقولوا عنادا : إنه قد عرض له ما أضله عن محجة الصواب ، فأمر رسوله أن يقول لهم :

(قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب) أى قل أيها الرسول لقومك : إن ضللت عن الهدى وسلكت غير طريق الحق فإنما ضُرّ ذلك على نفسى ، وإن استقمت على الحق فبوحى الله إلىّ وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى ، إنه سميع لما أقول وتقولون ، ويجازى كلا بما يستحق ، قريب مجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريباً مجيباً » .

والخلاصة — إن الخير كله من الله وفيما أنزله علىّ من الوحى والحق المبين .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

شرح المفردات

الفزع : انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف ، التناوش: التناول السهل لشيء قريب ؛ يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته ، ناشه : ينوشه نوشا ، وأنشدوا لغيلان بن حُرَيث فى وصف الإبل :

فهى تنوش الحوض نوشاً من علا نوشا به تقطع أجواز الفلا

يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، يقذفون بالغيب : أى يرجمون بالظنون التى لا علم لهم بها ، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه : هو يقذف بالغيب . بأشياعهم : أى أشباههم ونظرائهم فى الكفر جمع شيع وشيع جمع شيعة ؛ وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع ، مريب: أى موقع فى الريبة والظنة ، يقال أراب الرجل : أى صار ذا ريبة فهو مريب .

المعنى الجملى

بعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول، وأنَّى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مكنتهم فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا من جرّاء ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وتلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

الإيضاح

(ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) أى ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد - لرأيت من الأمر مايعجز القول عن وصفه، فهم لا يتمكنون من الهرب ، ولا يفوتهم ذلك العذاب ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يبتعدون فيه .

(وأخذوا من مكان قريب) أى وأخذوا حين الفزع من الموقف إلى النار ولم يمكّنوا أن يمعنوا فى الهرب .

(وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وقالوا حينئذ : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأنى لهم ذلك وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان ؟ إذ هذه الدار ليست أهلا لقبول التكاليف من الإيمان بالله والعمل الصالح .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » .

(وقد كفروا به من قبل) أى وكيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أى وهم قد كانوا يرجمون بظنون لا مستند لهم فيها ، فيتكلمون فى الرسول بمطاعن ليس لها مايؤيدها ، فتارة يقولون إنه شاعر ، وأخرى إنه كاهن ، وثالثة إنه ساحر ، إلى نحو ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والحساب والجزاء .

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى وحيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا كما قال : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

ثم بين أن هذه سنة الله فى أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم فقال :

(كما فعل بأشياعهم من قبل) أى فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التى كذبت رسلها فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا ولكن لم يقبل منهم .

ثم علل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى بغيتهم حينئذ بقوله :

(إنهم كانوا فى شك مريب) أى لأنهم كانوا فى الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء ، وقد تغلغل الشك فى قلوبهم حتى صاروا لا يطمئنون إلى شىء مما جاءوا به .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) حمد الله والثناء عليه بما هو أهله .

(٢) مقال المشركين فى إنكار البعث والرد عليهم بأنه آتٍ لاشك فيه .

(٣) الاستهزاء بالرسول وحكمهم عليه بأنه إما مفتر وإما مجنون .

(٤) النعم التى آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام .

(٥) ما كان لسبأ من النعم ثم زوالها لكفرانهم بها واتباعهم وسوسة الشيطان.

(٦) النعى على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لاتفيدهم يوم القيامة شيئا .

(٧) الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر .

(٨) بيان أن المترفين فى كل أمة هم أعداء الرسل، لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم ثم رده سبحانه عليهم .

(٩) سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ؟ ليكون فى ردهم مايكفى فى تبكيتهم .

(١٠) مقال المشركين عند سماع القرآن وادعاؤهم أنه ليس بوحى من عند الله بل الداعى مفتر ليصد الناس عن دين الآباء والأجداد .

(١١) عظتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم .

(١٢) أمرهم بالتأمل والتدبر فى الأدلة التى أمامهم لعلهم يرعوون عن غيهم .

(١٣) إثبات أن الرسول نذير مبين ، لامفتر ولا مجنون .

(١٤) الرسول لايطلب أجرا على دعوته ، بل أجره على الله .

(١٥) طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ويعملوا صالح الأعمال ، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه وأن لا سبيل إلى تحقيقه .

سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .

ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين و إنزالهم منازل العذاب — لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فطر الشىء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه و بين أنبيائه يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة.

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تدبيرهما على أتم نظام ، كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة وسائط بينه و بين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته — ذوى أجنحة إما اثنين اثنين، و إما ثلاثة ثلاثة ، و إما أربعة أربعة .

والأجنحة فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهى فى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربهم إلى أنبيائه .

وفى هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحى. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود «أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح» وفى هذا رمز إلى قوة استعداده الروحى وقربه من الملإ الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد فى الخلق مايشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة مايشاء، كما يزيد فى أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحيانا ، وهكذا يزيد فى تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

(إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شىء أراده ، لما له من القدرة والسلطان على كل شىء .

مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

شرح المفردات

يفتح: يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لا يحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة ـ أيد ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من الضيق حينا والسعة حينا آخر، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد، وجلب النعمة لو أراد.

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه، وأى خير يمسكه فلا يبسطه ولا يفتحه لهم فاتح، لأن الأمور كلها بيده، ومنه البذل والعطاء، والمنع والإمساك.

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى منها الفتح والإمساك، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم، والإعراض عما سواه من جميع خلقه.

ونحو الآية قوله: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ».

روى أحمد عن المغيرة بن شعبة أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ».

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شىء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالى ما أصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .

يأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أنى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد فى نفسه ـ أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أيها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أىّ وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

والخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد ـ ثنى بذكر الأصل الثانى وهو الرسالة وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كُذّب كثير منهم قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لاشك فيه ، وأنه لاينبغى أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار .

الإيضاح

(وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) أى وإن استمر قومك على تكذيبك فيما بلغته إليهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج وضربت الأمثال ، فتأسّ بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .

ثم ذكر أن البعث آت لاريب فيه فقال :

(يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لاشك فيه ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فيذهلكم التمتع بمتاعها ، و يلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لاتغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتفعلوا مانهيتم عنه .

ثم ذكر العلة فى عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى إن الشيطان معلن عداوته لكم بوسوسته ، فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه و كذبوه فيما يغركم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أى ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم و إلقاؤهم فى العذاب الدائم من حيث لايشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) .

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى الغم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار - ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصى ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .

أخرج جويبر عن الضحاك أن الآية نزلت فى عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار، من جراء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه - لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير كفاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصالح الأعمال.

ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الفئتين فقال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أفمن حسن له الشيطان سيئ الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سيئ ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، ألك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه باستعداد النفوس للخير وللشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم وإجابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده ويهدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإخباتها إلى ربها وإنابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، وإما بتدسيتها وحبها لاجتراح السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً» .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تثير : أى تحرك ، مَيْت ومَيّت بمعنى قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْت ميت الأحياء
إنما الميْت من يعيش كئيبا كاسفاً باله قليلَ الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذى مات، والميت بالتشديد، والمائت هو الذى لم يمت بعد وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميّت وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل

والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت وأنشره ، أى أحياه، العزة : أى الشرف والمنَعَة من قولهم أرض عزاز : أى صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أى يقبله ، يمكرون : أى يعملون على وجه المكر والخديعة، والسيئات : المكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين فى أعمالهم يوهمونهم أنهم فى طاعة الله ، يبور : أى يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجا : أى أصنافا ذكرانا وإناثا ، يعمر من معمر : أى يمد فى عمر أحد ، فى كتاب : أى فى صحيفة المرء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم فى ذلك اليوم ـ أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لاريب فيه ، وضرب المثل الذى يدل على تحققه لامحالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد فى الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلا عليه بما يرى فى الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نطفة ثم وضعت فى الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يمد فى عمرها ، ومنها ما يُخْـتَرَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعقلون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تـكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزل منها الغيث إلى الأرض الجُرُز التى لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتنبت كل زوج بهيج ـ أفليس ذلك القادر الحـكيم الذى أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيى الموتى بعد بلاها ، وبعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شىء قدير .

وعن أبى رزين قال : «قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك مُمْحِلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فـكذلك يحيى الله الموتى» .

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ لله العزة فيهما جميعا.

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الـكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

(والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراءاة للناس لا يتقبلها الله كما قال سبحانه « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الـكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح: أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لايقبل الله قولا إلا بعمل ، من قال وأحسن قبل الله منه .

والخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لايقبل ، وأنشدوا :

لا ترضَ من رجلٍ حلاوةَ قوله حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فِعالُ

وإذا وزنتَ فعاله بمقاله فتوازنا فإخاءُ ذاك جمالُ

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل كثَريدٍ بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .

وبعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله ، ذكر أن المرائين لايتقبل منهم عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أي والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سببا فى ضعف الإسلام والحط من قدره والإفساد بين بينهم حتى يمحى أثره من الوجود كما فعلت قريش فى دار الندوة ، إذ تدارست الرأى فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر ، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فالمرائى لايروج أمره ولا يستمر إلا على غبيّ ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لاتخفى عليه خافية .

ثم ذكر دليلا على صحة البعث بما يرى فى الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) أى والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهى آخرا إلى الماء والتراب ، فهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافا ذكرانا وإناثا بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان يستويان عددا ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لايتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فيفنى الإنسان والحيوان .

ونحو الآية قوله : « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

(وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ماقدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم ـ هيّن على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شىء عليه .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ: هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عذب : أى حلو لذيذ طعمه ، فرات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أى سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حلية : أى لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أى شاقات للماء حين جريانها ، يولج : أى يدخل ، والقطمير : لفافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، يكفرون بشرككم : أى يجحدون بإشراككم إياهم وعبادتكم لهم ، ولا ينبئك مثل خبير : أى ولا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها ــ أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسْقَى منه الإنسان والحيوان وينبت النبات الذى فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحما طريًّا فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا فى قصر ذاك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثوابت والسيارات ، كل يجرى بمقدار معين وعلى نهج ثابت لايتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شَرْوَى نقير ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجرى فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

(ومن كل تأكلون لحما طريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنة .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منها تشقها شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المَخْمَصَة وتسدّ العَوَز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة — أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر، ويدخل النهار فى الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك.

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم، لتعلموا عدد السنين والحساب، ولتسكنوا فى الليل وتبتغوا فضلا منه فى النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لايقصران دونه ولا يتعديانه، وهو يوم القيامة.

(ذلكم الله ربكم له الملك) أى ذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لاتصلح العبادة إلا له، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبروت، وكل من فى السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه.

(والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لايملكون شيئا ولو كان حقيرا، بل هم ملك لخالق القوَى والقُدر.

ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله:

(إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لاتسمع لكم دعاء، لأنهم جماد لا أرواح لهم، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوكم ويستجيبوا لشىء مما تطلبون.

والخلاصة — كيف تعبدون من لاينفع ولا يضر وتدَعون من بيده النفع والضر، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون.

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة، وهو مجىء النفع والضر من قِبَلهم، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال:

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم.

ونحو الآية قوله: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا».

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لا يخفى عليه شىء كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تطهر من دنس الأوزار والذنوب ، والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا - أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضر بيده لا شريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا تستطيع دفع ضر عنها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ، وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردها إليه .

الإيضاح

(يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) أى أنتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فسارعوا ، وهو الغنى عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو المحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم فهى منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم فى حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لاشريك له ، والمحمود فى جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .

ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى إن يشأ ربكم أن يهلككم أهلككم ، لأنه هو الذى أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هيّن عليه .

وليس بخاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، وزجر وتأنيب .

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس وزرها فحسبُ ، ولا تنافى بين هذا وما جاء فى سورة العنكبوت من قوله سبحانه : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن هذا فى الضالين المضلين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يجيبها إلى ما تطلب ولو كان المدعو ذا قرابة لها كأب أو ابن، إذ كلٌّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَىَّ : أىّ والد كنت لك ؟ فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانة : أىّ زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصح والإنذار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لإيمانهم بما أتيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ــ إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم ويقيمونها على ما رسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فنفع ذلك عائد إليه ؛ كما أن من يتدسى بالذنوب والآثام فضر ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثّل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر ومخوف وهو النبى ، والبينات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزبر : واحدها زبور وهو الكتاب ، النكير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه ـ ضرب مثلا به تنجلى حاليهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور) أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتعث به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وصدّقه وقبل عن الله ما ابتعثه به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلا آخر لهما فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نيّر القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لاخروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسموم ، وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لايسمعون فقال :

(وما أنت بمسمع من فى القبور) أى فكما لاتقدر أن تسمع من فى القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لاتقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب لايستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لاينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ـ كذلك هؤلاء المشركون لاحيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طبع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ماجئتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لابيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك .

ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبك وردّ عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس عما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاهم الرسل بما أتوهم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابى بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا فى عمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لاتبديل لها ولا تغيير . « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) .

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها غربيب وهوشديد السواد ؛ يقال أسود غربيب وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، وفى الحديث « إن الله يبغض الشيخ الغربيب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طامحة واليدّ سابحة والرجل لافحة والوجه غربيب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون عنادا واستكبارا — أردف ذلك ذكر مايرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يقول سبحانه منبها إلى كمال قدرته : ألم تشاهد أيها الرائى أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشىء

الواحد ، فأنزلنا الماء من السماء وأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وطعومها وروائحها كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرابيب كما هو مشاهد ، وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ، فهم الذين يفهمون ذلك حق الفهم ويعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فيتقى عقابه بطاعته ـ العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فخطب فحمد الله ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :

(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : و إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، ومن حق المعاقِب والمثيب أن يُخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لانفع فيها ، وقد ورد : «رُبَّ قارئٌ للقرآن والقرآن يلعنه» والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه ـ أردف ذلك ذكر حال العالمين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

و إيتاء الزكاة فى السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، ويطمعون فى غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله و يعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، و يتصدقون مما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف – هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه ، و يبتغون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجترحوا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات ، الشكور لطاعاتهم ، فجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصدقا لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أى محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة، ومخالف له أخرى، سابق: أى متقدم إلى ثواب الله راجٍ دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوفيقه وتيسيره، والحزَن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبدا ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، ولغوب : أى كلال وفتور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم ـ أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساما ثلاثة : ظالم لنفسه، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار وأنهم يحلَّون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، ويقولون : إنه أحلنا دارا لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إمامًا لها .

(إن الله بعباده لخبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس فى كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التى هى خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

(١) ظالم لنفسه مفرّط فى فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .

(٢) مقتصد مؤدّ للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنات .

(٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

والخلاصة — إن الأمة فى العمل أقسام ثلاثة : مقصر فى العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .

وقال الحسن : الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لايقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بيّن جزاءهم ومآلهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلئ ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا مما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة .

ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين، شكور للمطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتحليتهم بالحلى وإدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها فقال :

(الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لا نتحوّل عنها ولا نقلة ، ولا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دائمة فى الآخرة كما قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لايقضى عليهم : أى لايحكم عليهم بموت ثانٍ ، يصطرخون : أى يصيحون أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أى نمهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير : أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال فى مثلها القائل :

علياء لاتنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء

أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وحبور لايدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أى والذين ستروا ماتدل عليه العقول من شموس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار جهنم لايحكم عليهم فيها بموت ثان فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب فيها ، بل كلما خبت زيد سعيرها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وقوله: « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» وقوله : « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزى كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكر لرسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى وهم يستغيثون ويضجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا نطعك ونعمل غير الذى كنا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقريعا وتوبيخا :

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفعون بالحق لانتفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لا يجيبكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسول ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمر ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله: « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لايخرجون منها ، ومن ثم قال :

(فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء فى حياتكم الدنيا ، ولن تجدوا لكم ناصرا ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحدهم خليفة ؛ وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقتا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا : أى خسارة ؛ فالعمر كرأس مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، وإذا اشترى به سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ـ أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علما ، فلو كان لهم نصير فى وقت مّا لعلمه .

إلى أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلّدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات ـ أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ماهم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون فى أنفسكم وما تضمرون وما ستنوون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم فى السموات والأرض ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التى لا تنفعكم شيئا يوم القيامة .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه عليم بذات الصدور) أى لأنه عليم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .

وفى هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبدا ، فلا مطمع فى صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :

(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .

(فمن كفر فعليه كفره) أى فمن غمط مثل هذه النعمة العظيمة فإنما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لا سواه .

ثم فصل ذلك و بيّنه بقوله :

(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين على سبيل الاستقلال .

قلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أماكنها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض - أكد هذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان - أرونى أىّ جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلٰهية والشركة .

والخلاصة — أعلمتم هذه الآلهة ما هى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرونى أثرها ؟ .

(أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم .

(أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .

وخلاصة ما تقدم — أخبرونى عمن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق شىء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ، وآتيناهم برهانا بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لايخلق شيئا ، وإما بدليل من النقل ، وإنا لم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء .

وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعاء يشفعون لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء أسلافهم وضلالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما برباط خاص ، وهو مايسميه العلماء نظام الجاذبية ، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ، ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت فى مواضعها واستقرت فى مداراتها .

(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفتا على الزوال ما استطاع أحد أن يمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لايقدر على دوامهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حليما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .

والخلاصة — إنه يحلم وينظر ، ويؤجل ولا يعجل ، ويستر ويغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير : أى رسول ، أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أى تباعدا عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام وبكّتهم على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا، فقالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى: ليست اليهود على شىء ، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لامحيص منه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم ، وسنته لاتبديل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم) أى وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة : لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم بأسه ، ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولا له من أى أمة من الأمم التى خلت من قبلهم .

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء) أى ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية ، فما زادهم مجيئه إلا بعدا من الإيمان بالله وانصرافا عن الحق واستكبارا عن اتباع آيات الله ، ومكروا بالناس مكرا سيئا فصدوهم عن سبيل الله .

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ، وصار مثلهم مثل الإبل التى نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها .

ثم بين أن عاقبة مكرهم عادت عليهم بالوبال بقوله :

(ولايحيق المكر السيء إلا بأهله) أى ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

روى الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لاتمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فإن الله سبحانه يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا فإن الله يقول : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا فى كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًا.

والعبرة فى الأمور بالعواقب ، والله يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم يجاز الماكر فى هـذه الدار فسيلقى الجزاء فى الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك إلا أن أحل بهم من نقمتى على شركهم بى وتكذيبهم رسولى ـ مثل ما أحللت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسلهم .

ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى وهذه سنة الله فى كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد المشركين بجريان سنة الله فيهم بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسُلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العَدد والعُدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لايعجزه شىء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أى أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله فى الأرض التى أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التى يسلكونها إلى طريق الشام فى تجاراتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتعظوا بهم وينزجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لايفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض) أى ولن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لايعجزه شىء يريده فى السموات ولا فى الأرض .

وغير خافٍ مافى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شىء فيهما بقوله :

(إنه كان عليما قديرا) أى إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يعجل له العقوبة، ومن قد تاب وأناب إلى ربه ورجع عن ضلالته، قدير على الانتقام ممن شاء منهم، وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » بيّن أنه لايعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا، لعلهم ينيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه، ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب لشؤم المعاصى التى يفتتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لايقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أى فإذا حل الأجل فإن الله يجازى المكلفين بما عملوا من خير أوشر، لايخفى عليه شىء من أمرهم، دقّ أو جلّ، ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير .

مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل.

(٢) تذكير الناس بالنعم ليشكروها .

(٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين.

(٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، ويتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات فى الأرض والسموات .

(٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .

(٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .

(٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .

سورة يس

هى مكية إلا قوله : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » فمدنية .

وآيها ثلاث وثمانون ، نزلت بعد سورة الجن.

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه لما جاء فى السورة السالفة قوله: « وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ » وقوله: « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ » وقد أعرضوا عنه وكذبوه — افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

(٢) إنه قال فيما قبلها « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » وقال فى هذه : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا
جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) .

شرح المفردات

(يس) تقدم الكلام فى نظائره من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وأن الرأى الرجيح فيها أنها حروف تنبيه نحو ألا ويا ، وينطق بأسمائها فيقال (ياسين) .

روى عن ابن عباس أنه قال يس : أى يا إنسان بلغة طىء ، والحكيم : أى ذى الحكمة ، على صراط مستقيم : أى طريق قويم من عقائد صحيحة وشرائع حقة، حق : أى ثبت ووجب ، الأغلال : واحدها غُلّ ، وهو ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، والمقمح : الذى يرفع رأسه ويغض بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، من بين أيديهم : أى من أمامهم ، فأغشيناهم : أى فغطينا أبصارهم ، والذكر : القرآن ، وخشى الرحمن : أى خشى عقابه ، بالغيب : أى قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ماقدّموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ، وآثارهم : أى ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علّموه ، أو كتاب ألّفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كغرس بذور الضلالات بين الناس ، فى إمام مبين : أى فى أصل يؤتم به .

الإيضاح

(يس والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم) أى أقسم بالقرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنك أيها الرسول لمن المرسلين الذين هم على دين قديم وشرع مستقيم .

(تنزيل العزيز الرحيم) أى هذا الصراط المستقيم ، والدين القويم ، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) أى إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك ، فهم فى غفلة عن معرفة الشرائع التى فيها سعادة البشر ، وإصلاح المجتمع .

وذكرهم وحدهم هنا ؛ لأن الخطاب كان معهم ، وهذا لايمنع أنه مرسل إلى الناس كافة كما قال : « قُلْ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » .

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون) أى لقد وجب العقاب على أكثرهم ، لأنه سبحانه سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لايؤمنون به ولا يصدقون برسوله ، لما علم من خبث نفوسهم وسوء استعدادهم ، فلا تعمرُ قلوبهم بالإيمان ، ولا تُخْبِت لله فى أى زمان .

ثم ضرب لهم مثلا فقال :

(إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) أى إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى واصلة إلى الأذقان ملصقة بها ، فهم من جرّاء ذلك مقمحون أى مرفوعو الرءوس ، إذ أن طوق الغلّ الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقةٌ فيها رأس العمود خارجا من الحلْقة إلى الذقن ، فلا يمكِّنه من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحا .

والمراد منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر ، فهم غاضو أبصارهم لايلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رءوسهم له .

ثم أكد ماسبق وزاده بيانا وتفصيلا فقال :

(وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) أى إنه زُيِّن لهم سوء أعمالهم وأعجبوا بأنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسول وشمخوا بأنوفهم ولم يخضعوا لما جاءهم به وسدوا أبواب النظر عما ينفعهم ولم يقبلوا شيئا سوى ماهم عليه ؛ فما مثلهم إلا مثل من أحاط به سدّان من الأمام والخلف فحجباه عن النظر فهو لايبصر شيئا .

والخلاصة — إنهم محبوسون فى سجن الجهالة ، ممنوعون عن النظر فى دلائل الأنفس ودلائل الكون ، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية والتفكر فى العواقب المستقبلة .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

(وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) أى وسواء على هؤلاء الذين حق عليهم القول ، إنذارك إياهم وتركه ، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لايؤمنون ، إذ قد خبثت نفوسهم وساء استعدادهم وغُشِّيت أبصارهم فلا تقدر على النظر فى الدلائل المشاهدة ، ولا تستطيع التأمل فى جمال الكون .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

ثم أعقب ذلك ببيان من يتأثر بالإنذار فقال :

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) أى إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن واتبع ما فيه من الأحكام وخشى عقاب الله قبل حلوله ومعاينة أهواله ، فإنه سبحانه عظيم الرحمة ، أليم العذاب كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

فبشر هذا الذى اتبع أحكام الدين وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلات ، وأجر كريم ، ونعيم مقيم ، لا يستطاع وصفه مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

ثم ذكر ما يؤكد الخشية من الله وخوف عقابه بقوله :

(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) أى إنا نحيي الموتى جميعا من قبورهم يوم القيامة ، ونكتب ما أسلفوا من عمل ، وتركوا من أثر حسن بعدهم كعلم علّموه أو حبيس فى سبيل الله وقفوه ، أو مستشفى لنفع الأمة أنشئوه ، أو أثر سيء كغرس الأحقاد والأضغان ، وترتيب مبادى الشر والعدوان بين الأنام .

روى ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئا ، ثم تلا : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » والمراد من كتابة ذلك مجازاتهم عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بنى آدم ، بل يتناول جميع الأشياء فقال :

(وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) أى وبيّنا كل شىء وحفظناه فى أصل عظيم يؤتم به ويتبع ولا يخالف ، وهو علمنا الأزلى القديم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ونحو الآية قوله : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وقوله : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ

مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ،
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)
وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ،
أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا
وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)
أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)
بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ.

شرح المفردات

ضرب المثل : يستعمل تارة فى تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما فى قوله : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ » الآية ، ويستعمل أخرى فى ذكر حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : « وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » أى وبينا لكم أحوالا غاية فى الغرابة كالأمثال ، والقرية : هى أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة ، والمرسلون : هم رسل عيسى من الحواريين ، فعززنا : أى فقوّينا وشددنا ، البلاغ المبين : أى التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ،

تطيّرنا : أى تشاء منا ، لنرجمنكم : أى لنرمينكم بالحجارة ، طائركم : أى سبب شؤمكم مسرفون : أى مجاوزون الحد فى العصيان ، أقصى المدينة : أى أبعد مواضعها ، يسعى : أى يعدو و يسرع ، لاتغن : أى لاتنفع ، ولا ينقذون : أى لايخلصونى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لايؤمنون — أردف ذلك بذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى الغلوّ فى الكفر والإصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن سماع الوعظ والإرشاد ، وهم أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك فى العناد والاستكبار والعتوّ والطغيان .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) أى واجعل أصحاب قرية أنطاكية مثلا لهؤلاء القوم إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم كما أصر قومك على تكذيبك عنادا واستكبارا .

والمشهور لدى المفسرين ومنهم قتادة وغيره أن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين بعثهم إلى أهل أنطاكية، وكان منهم ماقصه الله علينا فى كتابه.

ويرى ابن عباس واختاره كثير من جلّة العلماء أن الرسل هم رسل الله أرسلهم ردءا لعيسى عليه السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليه السلام، ويؤيد ذلك:

(١) قولهم (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) .

(٢) إنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

(٣) إن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، فقد كانوا أول أهل مدينة آمنت بالمسيح ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتى فيهن بطارقة ، وهن القدس

وأنطاكية والإسكندرية ورومية ، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم ووطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطريق من رومية إليها .

ثم فصل ما تقدم وزاده بيانا فقال :

(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) أى حين أرسلنا إليهم رسولين من عندنا فأسرعوا فى تكذيبهما فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث فقالوا لأهل القرية : إنا إليكم مرسلون من ربكم الذى خلقكم بأن تخلصوا له العبادة وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام .

والمشهور أن الرسولين الأولين كانا يوحنا و بُولُس والرسول الثالث شمعون .

ثم ذكر شبهةً كثيرًا ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية .

(قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون) أى قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا من غير مزية داعية لاختصاصكم بما تدّعون ، وما أنزل الرحمن إليكم رسالة ولا كتابا ولا أمركم فينا بشىء ، ما أنتم إلا كاذبون فى قِيلكم إنا مرسلون إليكم .

وفى قولهم «ما أنزل الرحمن» إيماء إلى أنهم يعترفون بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام . وحينئذ رد عليهم الرسل مؤكدين رسالتهم .

(قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى فأجابهم الرسل قائلين : الله يعلم إنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عقبى الدار ؟.

ونحو الآية قوله : « قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

ثم ذكر الرسل ما أمروا به فقالوا :

(وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم ربحتم وكانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم حين يحيق بكم الوبال والنكال .

والتبليغ المبين إنما يكون إذا اصطحب بالآيات الباهرة ، والمعجزات الدالة على أنهم رسل من عند الله .

والخلاصة — ماعلينا من جهة ربنا إلا التبليغ المعزّز بالآيات البينات وقد فعلنا. فأىّ شيء تطلبون منا حتى تصدقوا دعوانا ؟ .

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل وأعيتهم الحجج لجئوا إلى التهديد والوعيد .

(قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) أى قالوا إنا تشاءمنا من تبليغكم ودعوتكم ، فقد افتتن بعض القوم بكم وتفرقت كلمتنا وانفرط عقد وحدتنا ، ولئن لم تنتهوا عن بثّ هـذه الدعوة بيننا لنرجمنكم بالحجارة رجما ولنمثلن بكم شر التمثيل أو لنعذبنكم عذابا شديدا وأنتم أحياء .

والخلاصة — إنا إما نقتلكم أو نلقيكم فى غيابات السجون وننكل بكم تنكيلا عظيما .

حينئذ أجابهم الرسل :

(قالوا طائركم معكم) أى قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم لامن قِبَلنا كما تزعمون ، فأنتم أشركتم بالله سواه وأولعتم بالمعاصى واجترحتم السيئات ، أما نحن فلا شؤم من قِبلنا ، فإنا لاندعو إلا إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له والإنابة إليه، وفى ذلك منتهى اليمن والبركة .

(أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) أى أمن جرّاء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد ؟ ، بل أنتم قوم دَيْدَنكم الإسراف ومجاوزة الحد فى الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم ولادخل لرسل الله فى ذلك.

والخلاصة — أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم متمادون فى غيكم تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من هداة الدين ، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابا للشقاء .

ولا يخفى ما فى ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ » .

ثم أبان أن الحق لا يعدم نصيرا وأن الله يقيض له من يدافع عنه فقال :

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) أى وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل فتقدم للذبّ عنهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه ، قال يا قوم اتبعوا رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم ولا يطلبون علوا فى الأرض ولا فسادا ، وهم سالكون طريق الهداية التى توصل إلى سعادة الدارين .

روى أن هذا الرجل يسمى حبيبا ، وكان نجارا ، قال ابن أبى ليلى : سباقو الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون . ورواه الزمخشرى حديثا ، وقال ابن كثير إنه حديث منكر .

ثم أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال :

(وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟) أى وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى ، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وفى هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره ، وتهديد بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب .

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حمقهم فقال :

(أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟) أى أأعبد من دون الله آلهة لاتملك من الأمر شيئا ، وهو لو أرادنى بسوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عنى ولا منعه .

(إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إنى إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لفى ضلال بيّن لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشراك من لايخلق وليس من شأنه النفع والضر بمن يخلق وهو القادر على كل شىء - خطأ ظاهر وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجا .

ثم التفت إلى الرسل وخاطبهم منيبا إلى ربه فقال :

(إنى آمنت بربكم فاسمعون) أى إنى آمنت بربكم الذى أرسلكم فاشهدوا لى بذلك عنده .

روى أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يجد من يدافع عنه .

قال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون ، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة .

ثم ذكر مآل أمره وما قاله حين وجد النعيم والكرامة ، فقال :

(قيل ادخل الجنة ، قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) أى قال الله له : ادخل الجنة كفاء ماقدمت من عمل وأسلفت من إحسان ، فلما دخلها وعاين ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره قال : ليت قومى يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عميم لإيمانى بربى وتصديقى برسله وصبرى على أذى قومى ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى حظيرة الإيمان والطاعة اتباعا لسنن أولياء الله الذين يكظمون الغيظ ويترحمون على الأعداء .

قال ابن عباس : نصح قومه حيا بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) و بعد مماته بقوله : (يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) .

و إلى هنا وقف القلم فى تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم . وكان الفراغ منه بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية فى اليوم الثامن عشر من شعبان سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية .

والحمد لله على إحسانه و إنعامه ، وصلّ ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار وصحبه الأبرار .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	مضاعفة ثواب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .
٥	مكانتهن بين النساء وأمرهن بالقرار في البيوت .
٧	من هم أهل البيت ؟ .
٨	ما أعده الله للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة في الدار الآخرة .
٩	الأوصاف التي يستحق بها عباده الثواب العظيم .
١٠	أيّ المجاهدين أعظم لله أجراً ؟ .
١١	قصة زينب بنت جحش .
١٢	الحكمة في زواجه صلى الله عليه وسلم بها .
١٥	ما كانت تفخر به زينب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .
١٦	أبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أبوة تعظيم و إجلال .
١٧	أولاد النبي عليه الصلاة والسلام .
١٩	أمره عليه الصلاة والسلام باحتمال أذى المشركين و بالتوكل عليه .
٢٠	لا عدّة للمطلقة قبل الدخول .
٢٣	بعض خصائص النبي صلى الله عليه وسلم في الزواج .
٢٥	تخييره صلى الله عليه وسلم في مضاجعة من شاء من نسائه .
٢٦	نهيه صلى الله عليه وسلم عن زواج غير الموجودات معه ، وعن استبدال غيرهن بهنّ .
٢٧	آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب .
٢٨	النهي عن إزعاج النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في الخلوة .
٢٩	يحرم اللبث على المدعوّ إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت.

الصفحة	المبحث
٣٠	قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث .
٣١	منع المؤمن عن نكاح أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .
٣٣	احترام النبى صلى الله عليه وسلم فى الملإ الأعلى والملإ الأدنى .
٣٥	من نسب إلى مؤمن أو مؤمنة مالم يعملا فقد اجترح إثما عظيما .
٣٧	أمر النساء بالتستر وإرخاء الجلابيب صيانة لهن عن الأذى .
٣٨	توعد الله أصنافا ثلاثة : بالقتال ، والقتل ، أو النفى من الديار .
٤١	ندم المشركين يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا أطاعوا الله .
٤٤	الأقوال والأفعال التى تكون سبب الفوز العظيم .
٤٦	فعل التكاليف الشرعية وسيلة الظفر والفلاح .
٤٧	أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم .
٤٨	الأسباب العامة لذلك .
٤٩	الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين .
٥٢	أسباب إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام .
٥٣	ما حوته سورة الأحزاب من أغراض ومقاصد .
٥٥	وجه اتصال سورة سبأ بما قبلها .
٥٦	شمول علمه تعالى لكل ما فى السموات والأرض .
٥٧	إثبات البعث والجزاء .
٥٨	الحكمة فى البعث والجزاء .
٥٩	أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يعتقدون قيامها ومجيئها
٦٠	ما قاله المشركون على سبيل التهكم ممن قال بالبعث .
٦١	ادعاؤهم أن هذه المقالة لا يقولها إلا مفتر أو مجنون .
٦٢	تنبيههم إلى ما يرون من آثار قدرته تعالى .
٦٣	ما آتى الله داود من فضل ونعمة .
٦٤	تسخير الريح لسليمان .
٦٦	تسخير الجن .
٦٧	الأرضة دلت على موت سليمان عليه السلام .

الصفحة	البحث
٧٠	عقاب المعرضين عن شكر النعم . ٧١ سدّ مأرب — سدّ العرِم .
٧٢	الكشف الحديث دل على صدق ما جاء فى القرآن .
٧٣	النعم التى أوتيها السبئيون .
٧٤	عقاب أهل سبأ باتباعهم لوساوس الشيطان .
٧٥	طغيانهم فى الأرض وإفسادهم إلا قليلا منهم .
٧٦	تأنيب قريش على عبادتها الأوثان والأصنام .
٧٨	الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن الله له بها .
٧٩	أمر الرسول بأن يقول للمشركين : علىّ إجرامى وعليكم إجرامكم ، والحاكم بيننا هو الله .
٨٢	رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأسود والأحمر .
٨٣	استعجال المشركين للعذاب تهكما وازدراء .
٨٤	إنكار المشركين للقرآن والكتب التى قبله .
٨٥	الحوار الذى بين المشركين ومعبوديهم يوم القيامة .
٨٦	تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على إنكار مترفى قومه له ، و بيان أنهم ليسوا بيدع فى ذلك .
٨٨	سعة الرزق لا تدل على رضا الله عن المرء ولا غضبه عليه .
٨٩	العمل الصالح مع الإيمان هو الزلفى عند الله .
٩٠	فى الحديث : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وممسكا تلفاً » .
٩١	أكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون .
٩٤	قال المشركون : القرآن إفك مفترى و إنه سحر بين .
٩٥	ما ردّ به سبحانه على هذه المقالة .
٩٦	طالب الله الكفار بالتريث فى هذا الحكم ليعلموا الحق .
٩٧	سبب نزول الآية (تبت يدا أبى لهب) .

الصفحة | المبحث

٩٨ العدة بنشر الإسلام وتبلج نوره .

٩٩ « إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً » الحديث .

١٠١ أنى لهم الإيمان يوم القيامة وقد كفروا من قبل؟.

١٠٤ الأجنحة ـ فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وفى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة .

١٠٥ ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة و بعد الرفع من الركوع.

١٠٦ الأمر بذكر النعم والشكر عليها .

١٠٧ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ليس ببدع بين الرسل .

١٠٩ لحزب الشيطان العذاب الشديد ولحزب الله المغفرة .

١١٠ ضرب المثل على تحقق البعث والنشور .

١١٣ لمن سعى فى ضعف الإسلام عذاب شديد والله يحبط عمله .

١١٤ الآجال والأعمار أحصاها الله فى كتاب .

١١٥ البراهين الدالة على الوحدانية والقدرة .

١١٧ النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .

١١٨ من أصول الدين أن لا تزر وازرة وزر أخرى .

١١٩ البشارة والإنذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله .

١٢٠ تسلية الرسول عن عدم قبول المشركين دعوته .

١٢١ لم يترك الله أمة سدى بلا نذير . ١٢٣ الهداية والتوفيق بيد الله سبحانه .

١٢٤ قومك ليسوا ببدع فى الأمم . ١٢٥ الاعتبار بالآيات الكونية .

١٢٦ لايعلم بديع صنع الله إلا العالم بأسرار الكون .

١٢٨ الذين يتبعون أحكام الدين لهم تجارة لن تبور.

١٢٩ القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية .

الصفحة	المبحث
١٣٠	المؤمنون أقسام ثلاثة .
١٣١	المؤمنون حين يدخلون الجنة يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .
١٣٢	الكافرون يوم القيامة يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .
١٣٣	ما أجيبوا به عن هذا الطلب . ١٣٤ علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء .
١٣٦	تبكيت المشركين على عبادة الأوثان .
١٣٧	نظام الجاذبية .
١٣٩	إنكارهم لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مترقبين لها .
١٤٠	تهديد المشركين بحلول العقاب كما حل بمن قبلهم .
١٤١	تنبيههم إلى آثار الغابرين الذين خلوا من قبلهم .
١٤٢	لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .
١٤٣	مجمل ما حوته سورة فاطر من حكم وأحكام .
١٤٤	وجه اتصال سورة يس بما قبلها .
١٤٥	المراد بياسين .
١٤٦	جعل الأغلال فى عنق أهل النار .
١٤٧	لا فائدة فى إنذار هؤلاء المشركين .
١٤٨	من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .
١٤٩	ضرب المثل بأهل أنطاكية .
١٥٠	من رسل الله الذين أرسلوا إلى أهل أنطاكية ؟ .
١٥١	مقالة أهل القرية للرسل .
١٥٢	ما ردّ به الرسل عليهم .
١٥٣	الحق لا يعدم نصيراً .
١٥٤	مآل أمر ذلك الواعظ .

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثالث والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثالث والعشرون

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً
عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا
كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ
لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الجند : العسكر ، والمراد بهم الجند من الملائكة ، والخمود : انطفاء النار ؛ والمقصود به الموت ، والحسرة على ما قال الراغب : الغم على ما فات ، والندم عليه ؛ كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء ، وإنْ : بمعنى ما ، ولما : بمعنى إلا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة : إن تقسيم الكتاب الكريم إلى الأجزاء الثلاثين لوحظ فيه العدّ اللفظى لا الاتصال المعنوى ، إذ كثيراً ما تكون بداءة الجزء فى أثناء القصة الواحدة كما هنا ، فإنه بعد أن بين حال الناصح الشهيد ودخوله الجنة ـ أردف ذلك بذكر حال المتخلفين المخالفين له ، ثم ذكر سنة الله فى أمثالهم فى العذاب الدنيوى ثم هم يُرَدُّون إلى ربهم فيعذبهم فى الآخرة .

الإيضاح

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن الذى قتلوه لدعائه إياهم إلى الله ونصيحته لهم ـ من بعد مهلكه جنداً من الملائكة ، بل كان الأمر أيسر من ذلك .

وإجمال المعنى : إنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، وما كاثرهم سبحانه بالجنود وإنزال الملائكة ، بل كان أمرهم أهون من ذلك ، إذ ليس من سنته أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير من السماء .

ثم بين ما كان من هلاكهم بقوله :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) أى ما كان هلاكهم إلا بصيحة واحدة فإذا هم أموات لا حراك بهم ، قد ذهبت منهم حرارة الحياة كما تذهب حرارة النار حين الخمود .

وفى هذا إيماء إلى أن الحى كشعلة النار ، والميت كالرماد ، وإلى هذا يشير لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ويقول أبو العلاء :

وكالنـــار الحياة فمن رماد		أواخرها وأولهـــا دخان

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم كيف كانت الصيحة ولا كيف نزل بهم العذاب ، وتفصيل ذلك لا يعنينا ، فالعبرة تحصل بدون بيانه ، إذ المراد انتقام الله وعذابه لمن كذب أولياءه على أى نحوٍ كان ذلك العذاب .

وفى هذا ما لا يخفى من تهوين أمرهم وتحقير شأنهم وتفخيم شأن رسل الله .

(يا حسرة على العباد) المراد بالعباد هنا مكذبو الرسل ، أى يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب على تكذيبهم رسل الله ومخالفة أوامره .

ثم بين سبب الحسرة والندامة فقال :

(ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى ما جاءهم رسول إلا استهزءوا به وكذبوه وجحدوا ما أرسل به من الحق .

والخلاصة : إن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين ، جديرون أن يتحسروا على أنفسهم ، إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية وعرّضوها لعذاب مقيم ، وكأنه قيل : يا حسرة احضرى ، فهذه شدة لا سبيل للخلاص منها .

ولما بين حال الأولين نبه الحاضرين فقال :

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟) أى ألم يعتبروا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا كما يعتقد الدُّهْرِيَّة ، جهلا منهم بأنهم يعودون إليها كما كانوا .

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك ، أعقب هذا بأن لهم حساباً وعقاباً فقال :

(وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أى وإن جميع الأمم ماضيها وحاضرها

وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدى الله فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له ، وما أحسن قوله :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعده عن كل شئ

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » .

والخلاصة — إن الناس يجمعون للحساب والجزاء ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر .

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل ـ أردف ذلك بما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل ، وآية ذلك أن الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً .

الإيضاح

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأ كلون) أى ومن الأدلة على قدرتنا على البعث إحياء الأرض الهامدة التى لانبات فيها بإنزالنا الماء عليها فإذا نزل اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأخرجت الحب الذى هو قوت لكم ولأنعامكم وبه قِوام حياتكم .

(وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأ كلوا من ثمره وما عملته أيديهم) أى وأنشأنا فى هذه الأرض التى أحييناها بساتين من نخيل وأعناب ، وجعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة تنتشر فيها ، ليأ كلوا من ثمر الجنات ومما عملت أيديهم مما غرسوا وزرعوا .

ثم لما عدد النعم طلب منهم الشكر فقال :

(أفلا يشكرون ؟) أى أفلا يشكر هؤلاء القوم على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعدّ ولا تحصى .

ولما أمرهم سبحانه بالشكر ، وشكرُه تعالى بعبادته وقد تركوها وعبدوا غيره وأشركوا به سواه قال :

(سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون) أى تنزيهاً لمن خلق هذه الأنواع كلها من الزرع والثمار ومختلف النبات ، وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ، وخلق مما لايعلمون من الأشياء التى لم يطلعهم عليها ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفتها تفصيلا ، بل علمهم ذلك بطريق الإجمال بنحو قوله : « وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » ليستدلوا بذلك على عظمة الخالق وسعة ملكه وجلالة قدره .

والخلاصة — تنزه ربنا خالق هـذا الخلق العظيم من نبات وحيوان وإنسان عن كل نقص، وخالق مالانعلم من خلق ولا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته مما هو دليل على عظيم ملـكه وواسع قدرته.

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَاهُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠).

شرح المفردات

أصل السلخ: كشط الجلد عن الشاة ونحوها؛ واستعمل هنا فى كشف الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله، مظلمون: أى داخلون فى الظلام، لمستقر لها: أى حول مستقر لها وهو مركز مدارها، وقدّرناه: أى صيرنا مسيره فى منازل، والمنازل واحدها منزل: وهو المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة، عاد: أى صار فى أواخر سيره وقرب من الشمس كالعرجون فى رأى العين، والعرجون: هو العود الذى عليه الشماريخ، فإذا أتى عليه الحول تقوس ودقّ واصفرّ.

قال أعشى بنى قيس:

شرق المسكُ والعَبِيرُ بها فهى صفراء كعُرْجون القمر

ينبغى لها: أى لايتيسر لها، أن تدرك القمر: أى تجتمع معه فى وقت واحد فتداخله وتطمس نوره، لأن لكل منهما دورة خاصة فى فلكه سيأتى ذكرها بعد، والفلك: مجرى الـكواكب، سمى بذلك لاستدارته، والسباحة الجرى فى الماء للسمك ونحوه، ثم استعمل فى سير الـكوكب فى الفضاء فى مداره الخاص.

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث والنشور بأحوال الأرض وما يطرأ عليها من تغير مما هو دليل القدرة الشاملة - أردف ذلك بذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته يتصرف فيها بعظيم سلطانه .

الإيضاح

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) أى ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر والنشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأتى الظلمة ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له .

وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس وسعى على الرزق ، وفى زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ؛ كما أن فيه تركا للعمل الذى به قِوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .

والخلاصة — إن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وإن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

(والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم) أى والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله على حسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رحوية حول هذا المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

(والقمر قدرناه منازل) أى وجعلنا لسير القمر منازل، وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل فى واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، فإذا كان فى آخر منازله دقّ وتقوس، وهذا مايشير إليه قوله:

(حتى عاد كالعرجون القديم) أى يسير فى منازله إلى آخرها حتى يدقّ ويتقوس ويصفر ويكون كالعود الذى عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول.

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) أى لايصح للشمس ولا يسهل لها أن تدرك القمر فى سرعة سيره، لأن الشمس تجرى مقدار درجة فى اليوم، والقمر يسير مقدار ١٣ درجة فى اليوم، ولأن لكل منهما مداراً خاصاً لا يجتمع مع الآخر فيه.

(ولا الليل سابق النهار) أى ولا تسبق آية الليل وهى القمر، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها، إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لايتغير ولا يتبدل.

(وكل فى فلك يسبحون) أى وكل من: الأرض والشمس والقمر يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى الماء، فالشمس تجرى فى مدارها، والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر.

وعلماء الفلك قديماً جعلوا الكواكب مركوزة فى الأفلاك على ما نراه فى كتبهم فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به، وكيف يسبح ما لاحرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره؟ هكذا كان الرأى عندهم، ولكن رأى علماء الفلك المحدثين: أن جميع الكواكب تسير فى مدارات فى عالم الأثير، فهى إذاً كأنها سمك فى بحر لجىّ.

فاعجب أيها القارئ الكريم للقرآن كيف أثبت ما دل على صحته الكشف

الحديث ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

وقد طلبت إلى الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الفلكى المصرى بحلوان أن يدلى إلىّ بما أثبته علماء الفلك حديثاً فى النظريات التى تضمنتها الآيات ، فكتب إلىّ مايلى :

الآية الأولى

من آيات الله و بديع صنعه تعاقب الليل والنهار دائبين . وقد جاء ذكر ذلك مرارا فى القرآن الكريم لما لهذه الظاهرة الفلكية من الأهمية العظمى فى حياة الجنس البشرى وكافة الأحياء التى على ظهر البسيطة ، فهى من الأمور الجديرة بالتفكير للاستدلال بها على عظمة الخالق جل شأنه ؛ فالليل يسلخ من النهار والنهار يسلخ من الليل ، نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على بعض الآفاق ، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام تام بديع .

الآية الثانيـــة

وزيادة على دوران الشمس الظاهرى وسط النجوم الناشئ عن دوران الأرض حول الشمس مرة فى السنة ـ ثبت لدى العلماء أخيرا أن للشمس حركتين أخريين حقيقيتين :

إحداهما حول محورها مرة فى كل ست وعشرين يوما تقريبا وتدل عليها أرصاد كلف الشمس ؛ وهى نقط سوداء تظهر على سطحها بين حين وآخر ، وتتغير مواقعها بالنسبة إلى السطح وتقطع المسافة بين حافتى القرص فى زمن قدره ١٣ يوما .

ثانيتهما : دوران الشمس (ومن حولها توابعها الكواكب السيارة وأقمارها) حول مركز النظام النجومى بسرعة تقدر بنحو مائتى ميل فى الثانية ، فالشمس

واحدة من ملايين النجوم التى تكوّن النظام النجومى ، والذى ثبت أنه يدور حول مركزه ، ونظرا لأن الشمس لا تقع عند مركزه فإن لها حركة دورانية .

والذى يفهمه الفلكى أو الرياضى من المستقر لجسم متحرك حركة دورانية ، أنه المحور الثابت الذى تكون الحركة حوله ، أو مركز المدار الدائرى لهذه الحركة ، ففى الحالة الأولى يكون المستقر هو الخط الواصل بين قطبى الشمس ، وفى الحالة الثانية : يكون هو مركز النظام النجومى بأسره ، الذى تدور حوله الشمس وكافة النجوم الأخرى .

و إذا علمنا أن هاتين الحركتين الحقيقيتين للشمس لم تثبتا بالبرهان العلمى والأرصاد الفلكية إلا حديثا أدركنا ما فى هذه الآية الكريمة من إعجاز عظيم .

الآية الثالثة

قسم الفلكيون القدماء النجوم التى تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر ، وقد جاء ذكرها هنا وفى آيات أخرى كقوله تعالى « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » .

ولما كانت الشمس تنتقل باستمرار وسط النجوم ، فتحجب عن الرؤية كل النجوم ومجموعات النجوم التى تكون موجودة فوق الأفق نهارا ، نجد أن ما يكون موجودا من منازل القمر فوق الأفق ليلا يتغير تدريجيا من ليلة إلى أخرى ، ومن شهر إلى آخر ، وهكذا نجد فى معرفة مواقع القمر بالنسبة لهذه المنازل وسيلة لحساب الأوقات .

وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة والشمس ، وأسماؤها هى : الشَّرَطان ، البُطَين ، الثريا ، الدَّبَرَان ، الهَقْعَة ،

الهَنْعَة ، الذراع المبسوطة ، النَّثْرَة ، الطرف ، جبهة الأسد ، الزُّبْرَة ، الصَّرْفَة ، العوَّا ، السماك الأعزل ، الغفر ، الزُّبَانا ، الإكليل ، قلب العقرب ، الشَّوْلة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بُلَع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، الفَرْغُ المقدم ، الفرع المؤخر ، الرِّشاء أو بطن الحوت .

وبعد أن يتم القمر دورته فى مداره متنقلا بين منازله هذه يعود كما بدأ هلالا صغيرا مقوسا فى بادئ الشهر ، ويرى فى ضوء الشفق بعد مغيب الشمس ، ويكون لونه مصفرا كعُرجون النخل ، لأن مركبات ضوئه الأخرى تشتت فى الطبقة الهوائية قبل وصولها إلى عين الراصد ، كما نرى لون الشمس مصفرا حين الشروق ، أو حين الغروب .

الآية الرابعة

المقصود هنا أن الله سبحانه بديع السموات والأرض جعل لكل من الشمس والقمر مدارا مستقلا يسبح فيه ، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حين ما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر .

فالشمس كما ذكرنا تدور حول الأرض فى حركة ظاهرية تنشأ عن دوران الأرض حولها ، وهى تشبه ما يبدو للمسافر فى القطار من حركة الأشجار وأعمدة التلغراف والقرى دون أن يحس بحركته المكتسبة من وجوده فى القطار . وهكذا تتحرك الشمس وسط النجوم فى مدار واسع نسبياً ، نصف قطره ٩٣ مليون ميل وتتم دورة كاملة فى زمن مقداره سنة ، ويدل على هذه الحركة تنقلها وسط البروج بمعدل برج فى كل شهر أو درجة واحدة تقريبا فى كل يوم .

أما القمر فداره حول الأرض أصغر نسبياً ، ويقدر طول نصف قطر مداره بحوالى ٢٤ ألف ميل يقطعه فى شهر ، أى بمعدل منزل فى كل يوم أو ١٣ درجة

فى اليوم ، وحركته حول الأرض حركة حقيقية ، ويمكن ملاحظتها بسهولة من مراقبة موقعه بين النجوم ليلة بعد أخرى .

وفضلا عن ذلك فالمداران السالفا الذكر ليسا فى مستوى واحد ، بل يميل أحدهما على الآخر ، ولولا ذلك لتكرر كل من الكسوف والخسوف مرة فى كل شهر ، وهكذا يتبين كيف إن لكل من : الشمس والقمر فلكا أو مدارا مستقلا يسبح فيه اه .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) .

شرح المفردات

الذرية : أصلها صغار الأولاد ، ثم استعملت فى الصغار والكبار ، ويقع على الواحد والجمع ؛ وهى من ذرأ الله الخلق فتركت همزته نحو برية ، الفلك : السفينة ، المشحون : المملوء ، ما يركبون : هى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل ، فلا صريخ : أى فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه على سبيل المنة على عباده أنه أحيا الأرض وهى مكان الحيوان — أردف ذلك بذكر نعمة أخرى على الإنسان ، وهى أنه جعل له طريقا يتخذه فى البحر ويسير فيه كما يسير فى البر جلبا لأرزاقه وتحصيلا لأقواته من أقاصى البلاد فى أنحاء المعمورة .

الإيضاح

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) أى ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن جعل أولادهم يركبون السفن الموقرَة بسائر السلع التى ينقلونها من بلد إلى آخر ليستفيدوا مما تحمله من الأقوات وسائر حاجهم المعيشية ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب من بعده .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

(وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أى وخلقنا من مثل تلك السفن البحرية سفناً برية ، وهى الإبل التى تسير فى الصحارى كما قال شاعرهم :

* سفائنُ برٍّ والسرابُ بحارها *

ونحوها قطر السكك الحديدية والسفن الهوائية من مطاود وطائرات تسير فى الجوّ حاملة للناس السلع المختلفة والذخائر الحربية ، ومن جرّاء هذا لم يعين الكتاب الكريم ما يركبون لما سيظهر فى عالم الوجود مما هو مخبأ فى صحيفة الغيب ، وهذا من إعجاز الكتاب الكريم .

ونحو الآية : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

ثم ذكر لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفن فقال :

(وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) أى وإن نشأ إغراقهم فى الماء مع ما حملته السفن والزوارق فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق وينجيهم من الموت ، ولكن رحمة منا بهم وتمتيعا لهم إلى حينٍ بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم وحفظناهم من الغرق ، وإلى هنا أشار بقوله :

(إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق ـ أردف هذا بذكر إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثلات مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) أى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله ـ وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه، لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات ـ أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض دَيْدَنهم وليس ببدع منهم فقال :

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) أى وما تجىء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا

بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسوله .

والخلاصة — إنه ما ظهرت لهم آية من الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا أعرضوا عنها مكذبين مستهزئين ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى صدقها والاستدلال بها على وحدانيته وصدق رسوله.

وبعد أن ذكر إعراضهم عن الخالق بين قسوتهم على المخلوقين فقال :

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) أى وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الإنفاق على نهج قوله : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » وتنبيه إلى عظيم جُرْمهم فى ترك الامتثال للأمر ، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله .

وإجمال ذلك — إنهم لم يعظموا الخالق ولم يشفقوا على المخلوق .

ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الآمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال البين الذى لاشبهة فيه فقال :

(إن أنتم إلا فى ضلال مبين) أى ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم — إلا فى جور بيِّن وبعدٍ عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

وهذا معذرة البخلاء فى كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائما يقولون : لانعطى من حرمه الله ، وتلك فرية منهم لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضا ابتلاء منه لعباده ولأسباب نحن لانعلمها لابخلا منه وشحا ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس

لحاجة منه إلى مالهم ، بل ليبلوهم و يرى أيمتثلون الأمر و يؤدون الواجب ، أم ينكصون على أعقابهم و يولون مدبرين ؟

ولا ينبغى لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ، لأنه يجهل أسباب ما يشاهد و يرى فى الكون .

وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَاهُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَاوَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) .

شرح المفردات

متى هذا الوعد : أى متى يتحقق و يجىء ما وعدنا به ؟ ينظرون : أى ينتظرون صيحة واحدة : هى النفخة الأولى فى الصور ؛ بها يموت أهل الأرض جميعا ، ونفخ فى الصور : أى النفخة الثانية ، والأجداث : واحدها جدث (بفتحتين) القبر ، ينسلون : أى يسرعون ، والويل : الهلاك ، من مرقدنا : أى موتنا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن أمرهم بتقوى الله وخوّفهم من أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات — أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث واستعجالهم له استهزاء به وسخرية

منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لاشك فيه وأنه سيأتيهم بغتة من حيث لايشعرون ، وإذ ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور حين يرون العذاب ويقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدّر هذا ووعدكم به على ألسنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله .

الإيضاح

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء وإنكارا متى يحصل هـذا البعث الذى تهددوننا به تارة تصريحا وأخرى تلويحا ؟ إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من قِبل أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه ، الآمرة بالإيمان به .

فأجابهم ربهم :

(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أى ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا تأخذهم بغتة وهم يتنازعون فى أمور معايشهم لايخطر ببالهم مجيئها .

ونحو الآية قوله : « فَأَخَذَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ » .

روى ابن جرير عن ابن عمر قال : « لَيُنْفَخَنَّ فى الصور والناس فى طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ فى الصور فيصعق به وهى التى قال الله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) » .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتقومنّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ

الساعةُ والرجل يليطُ حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يَطْعَمُه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أُكلته إلى فمه فلا يطعَمُها » .

ثم بين سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هى أقرب فقال :

(فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) أى فلا يستطيعون أن يوصوا فى أموالهم أحدا ، إذ لايمهلون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجا من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى ربهم .

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ فى الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال :

(ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) أى ونفخ فى الصور نفخة ثانية للبعث والنشور ، والخروج من القبور ، فإذا هم جميعا يسرعون للقاء ربهم للحساب والجزاء .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ثم ذكر أنهم يعجبون حين يرون أنفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث ، كما حكى عنهم بقوله :

(قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) أى قالوا يا قومنا انظروا هلا كنا وتعجبوا منه ، من بعثنا من قبورنا بعد موتنا ؟ حينئذ يجيبهم المؤمنون فيقولون لهم :

(هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) أى هذا الذى ترون ما وعد به الرحمن وصدق فى الإخبار به المرسلون الذين أتونا بوعد الله ووعيده .

وهم قد سألوا عن الفاعل للبعث وأجيبوا بالفعل تذكيرا لهم بكفرهم وتقريعا عليه مع تضمن ذلك الإشارة إلى الفاعل .

ثم بين سرعة بعثهم من القبور فقال :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) أى ما كانت

إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا نفخة واحدة فإذا هم مجتمعون لدينا قد أُحْضِروا للعرض والحساب لم يتخلف منهم أحد .

ونحو الآية قوله : « فإنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » .

ثم بين ما يكون فى ذلك اليوم من الحساب بالعدل والقسطاس فقال :

(فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى ففى هذا اليوم وهو يوم القيامة لا تبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، ولا يحمل عليها وزر غيرها ، بل توفى كل نفس أجر ما عملت من صالح ، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح ، جزاء وفاقا لما عملت فى الدنيا .

إنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلاَلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) .

شرح المفردات

الشغل : الشأن الذى يصدّ المرء ويشغله عما سواه من شئونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملة أو مساءة عظيمة ، الفاكه : الطيب النفس الضحوك قاله أبو زيد ، والظلال : واحدها ظل وهو ضد الضّح (ما تصيبه الشمس) والأرائك : واحدها أريكة ؛ وهى سرير منجّد مزين فى قبة أو فى بيت ، يدّعون : أى يطلبون .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن ذلك اليوم كائن لامحالة ، وأنه سيأتى بغتة من حيث لايشعر به أحد ، فما هو إلا صيحة واحدة فإذا الناس خارجون من قبورهم ينسلون - أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسىء فى هذا اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجتراح السيئات .

الإيضاح

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) أى إن من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها ، ويكون بذلك فى شغل عما سواه ، إذ يرى ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فأنى له أن يفكر فيما سواه ؟ وهو بذلك فرح مستبشر ضحوك السن هادئ النفس ، لايرى شيئا يغمه أو ينغص عليه حبوره وسروره .

ثم ذكر ما يكمل به تفكههم ويزيد فى سرورهم فقال :

(هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) أى هم وأزواجهم فى ظل لايضحَون لشمس ، لأنه لاشمس فيها (وألذ شىء لدى العربى أن يرى مكانا فيه ظل ظليل وأنهار جارية وأشجار مورقة) وهم فيها متكئون على السرر عليها الحجال (الناموسيات) وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من لذة لدى من نزل عليهم التنزيل .

وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس — ذكر ما يتمتعون به من مآكل ومشارب ولذات جسمانية وروحية فقال :

(لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون) أى لهم فيها من الفواكه ما لذ وطاب مما تقرّ به أعينهم وتسرّ به نفوسهم كما هو شأن المترفين المنعمين فى الدنيا ، ولهم فوق ذلك كل ما يتمنون وتشتاق إليه نفوسهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادّعِ علىّ ما شئت أى تمن علىّ وتقول فلان فى خير ما ادّعى أى خير ما تمنى .

ثم فسر الذى يدّعون بقوله :

(سلام قولا من رب رحيم) أى ذلك الذى يتمنونه هو التسليم من الله عليهم تعظيما لهم ، وهذا السلام يكون بوساطة الملائكة كما قال سبحانه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » .

والسلام أمان من كل مكروه ، ونيل لكل محبوب ، وذلك منتهى درجات النعيم الروحى والجسمانى الذى تصبو إليه النفوس فى دنياها وآخرتها ، فكأن هذا إجمال لما تقدم من اللذات التى فصلت فيما سلف .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ؟

شرح المفردات

امتازوا : أى انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، والعهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى

الشيطان لأنه الآمر بها والمزيّن لها ، والجِبلّ : الجماعة العظيمة ، اصلوها : أى قاسوا حرها ، والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالمحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسخ تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم : أى فى أماكنهم حيث يجترحون القبائح ، ونعمره : أى نطل عمره ، ننكسه فى الخلق : أى نقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يردّ إلى أرذل العمر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج فى الجنات — أعقبه بذكر حال المجرمين وأنهم فى ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ؛ ثم أردف هذا بأنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا بما أرسل إليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيه ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات ما فيه مزدجر لهم لو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وساوسه فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم فى الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم فى العقبى ، ثم ذكر مآل أمرهم وأنهم سيصْلَوْن نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم فى هذا اليوم لاينطقون ببنت شفة ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم فى الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أبصروا ، ولم يشأ أن يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ،

ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما احتجوا بها وهى أن ما عمروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عُمِّرُوا فى السن ضعفوا عن العمل وقد عُمِّروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طالت أعمارهم لا يجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا .

الإيضاح

(وامتازوا اليوم أيها المجرمون) أى تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار، فلم يبق لكم اجتماع بالمؤمنين أبدا ، ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » وقوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » وقوله : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » .

ولما أمروا بالامتياز وشخصت منهم الأبصار وكلحت الوجوه وتنكست الرءوس قال سبحانه موبخا لهم :

(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) أى ألم أوصكم بما نصبت من الأدلة ومنحت من العقول ، وبعثت من الرسل ، وأنزلت من الكتب ، بيانا للطريق الموصل إلى النجاة — أن تتركوا طاعة الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتى ومخالفة أمرى .

ثم علل النهى عن عبادته بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى إنه ظاهر العداوة لكم من جراء عداوته لأبيكم آدم من قبل ، ولأنه يوبقكم فى مهاوى الردى ، ويوقعكم فى مزالق الهلاك .

ولما منع من عبادة الشيطان أمر بعبادته سبحانه فقال :

(وأن اعبدونى) وحدى وأطيعونى فيما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه .

ثم بين أن ما أمر به ونهى عنه طريق معبد واضح لالبس فيه ولا خفاء فقال :

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى نهيتكم عنه من عبادة الشيطان ، وأمرتكم به من عبادة الرحمن ، هو الصراط المستقيم ، لكنكم سلكتم غيره فوقعتم فى مزالق الضلال ، وترديتم فى مهاوى الردى .

و بعد أن نبههم إلى أنهم نقضوا العهد و بخهم على عدم اتعاظهم بغيرهم ممن أوقعهم الشيطان فى المهالك ، وكانت عاقبتهم ما يرون من سوء المنقلب فى الدنيا والآخرة فقال :

(ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) أى ولقد صد الشيطان منكم خلقا كثيرا عن طاعتى و إفرادى بالألوهية فاتخذوا من دونى آلهة يعبدونها .

ثم زاد فى تو بيخهم والإنكار عليهم فقال :

(أفلم تكونوا تعقلون ؟) أى فلم يكن لكم عقل فترتدعوا عن مثل ما كانوا عليه كيلا يحيق بكم من العذاب مثل ما حاق بهم .

و بعد أن أنبوا ووبخوا بما سلف خوطبوا بما يزيدهم حسرة وألما فقيل لهم :

(هذه جهنم التى كنتم توعدون) أى هذه هى جهنم التى كنتم توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إذا أنتم اتبعتم وساوس الشيطان ، وعصيتم الرحمن ، وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان ، واجترحتم الفسوق والعصيان .

ثم أمرهم أمر إهانة وتحقير لهم بقوله :

(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أى احترقوا بها اليوم وقاسوا حرها الشديد بسبب جحودكم بها فى الدنيا وتكذيبكم إياها بعد أن نبهتم فلم تنتبهوا ، وأوقظتم فلم تستيقظوا .

وخلاصة ذلك — إنه قد ذكر ما يوجب الحزن والأسى من وجوه ثلاثة :

(١) إنه أمرهم أمر تنكيل وإهانة نحو قوله لفرعون : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » .

(٢) إنه ذكر لفظ (اليوم) الذى يدل على أن العذاب حاضر وأن اللذاتهم قد مضت وبقى العذاب اليوم .

(٣) إن قوله بما كنتم تكفرون يومئ إلى أن هناك نعمة قد كانت فكفروا بها، وحياء الكفور من المنعم أشد ألما وأعظم مضاضة كما قيل :

أليس بكاف لذى همة		حياء المسىء من المحسن

ثم بين أنهم فى هذا اليوم لايستطيعون دفاعا عن أنفسهم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم فقال :

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) أى ففى هذا اليوم ينكر الكافرون مااجترحوا فى الدنيا من الشرور والآثام ويحلفون أنهم ما فعلوا كما حكى الله عنهم من قولهم : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيختم على أفواههم فلا تنطق ببنت شفة ، ويستنطق جوارحهم بما اجترمت من الفسوق والعصيان الذى لم يتوبوا عنه .

ونسب الكلام إلى الأيدى والشهادة إلى الأرجل، من قِبَل أن الأولى لها مزيد اختصاص بمباشرة الأعمال ، ومن ثم كثر نسبة العمل إليها فى نحو قوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ » وقوله : « وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ » وقوله : « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ » . ولا كذلك الثانية فكانت الشهادة بها أنسب ، إذ هى كالأجنبية منها .

وجاء فى الخبر : «يقول العبد يوم القيامة إنى لا أجد علىَّ شاهدا إلا من نفسى، فيختم الله على فيه ويقول لأركانه : انطق ، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسُحْقاً ، فعنكن كنت أناضل » .

وإذا كان المرء فى دار الدنيا المملوءة أكاذيب ونفاقاً يخجل فيحمر وجهه، ويوجل فيصفرّ وجهه ويتخذ القضاة من ذلك أدلة على إدانة المتهم . كما نقصّ آثار أقدام اللصوص والجناة ونتبعهم فى السهل والجبل حتى إذا عثرنا عليهم قدمناهم للقضاة بشهادة هذه الآثار التى لا اشتباه فيها ، كذلك نختم بأصابع المجرمين على الورق (البصمة) فلا نشا كل يدٌ يداً ، مما يجعل لذلك أجلّ قيمة فى خدمة العدالة .

وإذا كان هذا فى عالمنا الجسمانى فما بالك بعالم الأرواح التى يكون فيها لكل ذنب أو عمل حسن أثر فى النفوس يولد فيها الخير أو الشر، حتى إذا انفصلت الأرواح من الأجساد ظهر ما انطبع فيها من خير أو شر ؟ وإلى هذا يشير قوله تعالى ذاكراً حال الحساب يوم القيامة : « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » فالنفس إذاً هى الكتاب الذى لا غش فيه ولا كذب ، فإذا صمت اللسان نطقت الجوارح كما تنطق آثارها اليوم ، أى تدل على المراد أفصح دلالة ، وترشد إلى المقصود أيما إرشاد ، وهذا هو الذى ينبغى أن يفهم فى الآية الكريمة .

ثم بين سبحانه أنه قادر على إذهاب الأبصار ، كما هو قادر على إذهاب البصائر فقال :

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون) أى ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عمياً لا يبصرون طريقاً ، ولا يهتدون إلى شىء .

وإجمال المراد : لو شئنا لأذهبنا أحداقهم ، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه لم يستطيعوا ذلك .

ثم زاد فى تهديدهم وتوبيخهم وبيان أنه قادر على منعهم من الحركة فقال :

(ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) أى ولو أردنا لحوّلناهم عن تلك الحال إلى ما هو أقبح منها ، فجعلناهم قردة وخنازير وهم

فى مساكنهم التى يجترحون فيها السيئات ، فلايقدرون على ذهاب ولا مجىء ولا غدوّ ولا رواح .

ثم شرع يقطع معذرة لهم ربما احتجوا بها وهى قولهم : إنهم لو عُمِّروا لأحسنوا العمل فقال :

(ومن نعمره ننكسه فى الخلق) أى إنه كلما طال عمر المرء رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط .

(أفلا يعقلون ؟) أنهم كلما تقدمت بهم السن ضعفوا وعجزوا عن العمل ، فلو عُمِّروا أكثر مما عمروا ما ازدادوا إلا ضعفاً ، فلا يستطيعون أن يصلحوا ما أفسدوا فى شبابهم ، وقد عمرناهم مقدار مايتمكنون من البحث والتفكير والتروّى فى عواقب الأمور ومصايرها ، فلم يفعلوا ، وجاءتهم النذر فلم يهتدوا ، فمهما طالت أعمارهم فلن يفيدهم ذلك ، ولن يصلح من حالهم قليلا ولا كثيرا .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

وما ينبغى له : أى لايليق به ولا يصلح له ، ذكر : أى عظة من الله وإرشاد للثقلين ، حيًّا : أى حىّ القلب مستنير البصيرة ، يحق القول : أى يجب العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر الوحدانية فى قوله : وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، وذكر أمر البعث فى قوله : اصلوها اليوم — ذكر هنا الأصل الثالث ، وهو الرسالة فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(وما علمناه الشعر) الشعر : ضرب من ضروب الكلام ذو وزن خاص ينتهى كل بيت منه بحرف خاص يسمى : قافيــة ، وهو يسير مع العواطف والأهواء ، ولا يتبع مايمليه العقل والمنطق الصحيح ؛ ومن ثم كان مستقرّ الأكاذيب والمبالغات فى الأهاجى والمدائح والتفاخر والتنافر ، فإذا غضب الشاعر أقذع فى القول و بالغ فى الذم وضرب بالحقيقة عُرْض الحائط ، ولا يرى فى ذلك ضيراً ، وإذا هو استُرْضِى بعد قليل رفع من هجاه إلى السّماكين وأدخله فى زمرة العظماء الشجعان أو الــكرماء الأجواد إلى نحو هذا ممـا تراه فى شعر الهجائين المداحين حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا : (أعذب الشعر أكذبه) .

والقرآن الــكريم آداب وأخلاق ، وحكم وأحكام ، وتشريع فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهــم ، فرادى وجماعات ، فحاشى أن يكون شــعراً ! أو أن يمتّ إليه بنسب .

فالمراد من نفى تعليمه الشعر نفى أن يكون القرآن شعراً ، لأن الله علمه القرآن و إذا لم يكن المعلّم شاعراً لم يكن القرآن شعرا البتة .

وهذا رد لقولهم : إن القرآن شعر و إن محمداً شاعر ، ومقصدهم بهذا أنه افتراء وتخيلات وأباطيل ، وليس وحياً من عند الله .

(وما ينبغى له) أى ولا يليق به الشعر ولا يصلح له ، لأنه مبنى كما علمت على الركون إلى الأهواء تبعاً لفائدة ترجى ، أو شفاء للنفس من ضغائن الصدور ، أو كبتاً لسَوْرة حقد أو حسد بحق أو باطل ، والشرائع والأحكام تنزه عن مثل هذا .

وما اتفق له عليه السلام دون قصد من نحو قوله يوم حنين وهو راكب بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث آخذ بزمامها :

أنا النبي لا كــذب أنا ابن عبد المطلب

فلا يسمى شعراً ، لأن مثل هذا يقع فى الكلام المنثور ولا يسمى قائله شاعرا .

وقد صح « أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا　　ويأتيك ما لم تزود بالأخبـــار

فقال أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » .

وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم عن الحسن «أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت :

* كفى بالإسلام والشيب ناهياً للمرء *

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغى لك» .

والخلاصة — إن الله تعالى كما جعل رسوله أميًّا لتكون الحجة أتم والبرهان على المشركين أقوم ، كذلك منعه قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة فى أن يدّعوا عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها والأباطيل التى ينمّقها ، وليس بوحى من عند ربه .

وبعد أن نفى عنه أنه شعر وتخيلات أثبت أنه مواعظ ونصائح فقال :

(إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أى وما القرآن إلا مواعظ من ربنا يرشد بها عباده إلى ما فيه نفعهم وهدايتهم فى معاشهم ومعادهم ، نزل من الملإ الأعلى ، وليس من كلام البشر ، فقد تحدى المخـالفين أن يأتوا بمثله فمـا استطاعوا ، فلجئوا إلى السيف والسنان ، وتركوا المقاولة بالحجة والبرهان .

ثم ذكر من ينتفع به فقال :

(لينذر من كان حيًّا) أى لينتفع بنذارته من كان حىّ القلب مستنير البصيرة يعرف مواقع الهدى والرشاد ، فيسترشد بهديه ، وليس له من صوارف الهوى ما يصدّه

عن اتباع الحق ، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض ما يكون حائلا بينه و بين الهدى ، فهو يتواثب على الإقرار بالحق إذا لاح له بريق من نوره ، فتمتلئ جوانبه إشراقا وضياء ، ويخر له مذعنا مستسلما، وكأنّ طائفا من السماء نزل عليه فأثلج صدره ، وألان قلبه ، فاطمأن له وركن إليه ، وذلك مَن رزقه الله التوفيق والهداية ؛ وكتب له الفوز والسعادة .

و بعدئذ بين عاقبة من أعرض عنه فقال :

(ويحق القول على الكافرين) أى وتجب كلة العذاب على الكافرين به الذين هم كأنهم أموات لخلوهم من النفوس الحساسة اليقظة التى من دأبها الإعراض والاستكبار عن اتباع الحق .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ؟

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الثلاثة على الترتيب : الوحدانية والحشر والرسالة ـ أعاد الكلام فى الوحدانية وذكر الدلائل عليها .

الإيضاح

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون) أى أو لم يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان : أنا خلقنا لهم بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير — أنعاما من الإبل والبقر والغنم يصرفونها كما شاءوا بالقهر والغلبة

فهى ذليلة منقادة لهم ، فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير، وإن شاءت ساقته وصرّفته كما تريد كما قال العباس بن مرداس فى وصف الجمل :

وتضرب الوليدة بالهراوَى ... فلا غِيَرٌ لديه ولا نكير

ثم ذكر منافعها فقال :

(وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) أى وسخرنا لهم هذه الأنعام، فمنها ما يركبون فى الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ومنها ما ينحرون، فيأكلون لحومها وينتفعون بدهنها .

(ولهم فيها منافع ومشارب) أى ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار والحراثة وإدارة المَنْجَنُون (الساقية) ولهم منها مشارب من ألبانها ونتاجها .

ثم حثهم على الشكر على هذه النعم وتوحيد صانعها فقال :

(أفلا يشكرون) نعمتى عليهم وإحسانى إليهم بطاعتى وإفرادى بالألوهية والعبادة وترك وسوسة الشيطان ، بعبادة الأصنام والأوثان ؟

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ؛ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم وأنكروها — أردف ذلك ببيان أنهم زادوا فى ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه

النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى حاكيا عنهم « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ » والحقيقة أنها لاهى ناصرة ولا منصورة .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) أى واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونهم طمعا فى نصرتهم ودفع العذاب عنهم وتقريبهم إلى الله زلفى.

ثم بين بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم فقال :

(لايستطيعون نصرهم) أى لاتقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، فهى أضعف من ذلك وأحقر ، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لاتسمع ولا تعقل .

(وهم لهم جند محضرون) أى والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا، وهم لايسوقون إليهم خيرا ولا يدفعون عنهم ضرا .

والخلاصة — إن العابدين وهم المشركون كالجند لحمايتهم والذبّ عنهم فى الدنيا ، والمعبودون يوم القيامة لايستطيعون أن يقدموا لهم أقل معونة ، ولا يدفعون عنهم مضرة .

ثم سلّى رسوله عما يلقاه من قومه من الأذى بنحو قولهم : هو شاعر وهو ساحر وهو كاهن إلى نحو ذلك من مقالاتهم التى كانوا يجابهون بها الرسول إرادة تحقيره وإهانته فقال :

(فلا يحزنك قولهم) أى ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين من قومك : إنك شاعر وما جئتنا به شعر ، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك .

ثم ذكر أنه سيجازيهم على ما يضمرون فى نفوسهم و يتفوهون به بألسنتهم فقال:

(إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) أى إنا نعلم أن الذى يدعوهم إلى قيل ذلك

إنما هو الحسد ، وأنهم يعتقدون أن الذى جئتهم به ليس بشعر ولا يشبه الشعر ، وأنك لست بكذاب .

والخلاصة — إنا نعلم ما يسرون من معرفتهم حقيقة ما تدعوهم إليه ، وما يعلنون من جحود ذلك بألسنتهم علانية ، وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم بما يستحقون يوم يجدون جليل أعمالهم وحقيرها حاضرا لديهم .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

شرح المفردات

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ فى الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية ، وضرب لنا مثلا : أى وأورد فى شأننا قصة عجيبة هى فى غرابتها كالمثل ؛ إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، والرميم : كالرمة والرفات ، وبلى : كلمة جواب كنعم ؛ تأتى بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه فى الإيجاد ، والملكوت : الملك التام كالرحموت والرهبوت والجبروت ، والعرب تقول : جبروتى خير من رحموتى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته ووجوب عبادته و بطلان إشراكهم به بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث — أردف ذلك بذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى ومبطلة لإنكارهم له، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا، وقالوا: كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة؟، فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم هو الذى يحييها، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت، ثم ذكر لهم دليلا آخر يرفع هذا الاستبعاد، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضًّا طريا ثم يبس وبلى، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان وفيه الدليل على قدرته، وهو خلق السموات والأرض، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سلف، وفيه بطلان لإنكارهم، فأبان أن كل شىء هيّن عليه، فما هو إلا بقول (كن فيكون) تنزه ربنا ذو الملك والملكوت عن كل ما يقول المشركون، فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء.

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة: «جاء أبىّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم وهو يفتّه بيده و يذروه فى الهواء و يقول: أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار، ونزلت هذه الآيات من سورة يس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) إلى آخرهن ».

الإيضاح

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى أو لا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدإ على سهولة الإعادة، فإن من بدأ خلق الإنسان من

سلالة من ماء مهين ، ثم جعله بشرا سويا يخاصم ربه فيما قال: إنى فاعل ، فيقول: من يحيى العظام وهى رميم ؟ إنكارا منه لقدرته على إحيائها — قادر على إعادته بعد موته وحسابه وجزائه على أعماله .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ » وقوله : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى من نطفة من أخلاط متفرقة .

والخلاصة — إنه تعالى خلق للإنسان ما خلق من النعم ليشكر فكفر وجحد المنعم والنعم ، وخلقه من نطفة قَذِرَة مَذِرة ليكون متذللا ، فطغى و بغى وتجبر وخاصم ربه واستبعد البعث والإعادة .

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال: من يحيى العظام وهى رميم ؟) أى وذكر أمرا عجيبا ينفى به قدرتنا على إحياء الخلق فقال : من يحيى العظام الرميم ؟ ونسى خلقنا له ، أفلم يكن نطفة فجعلناه خلقا سويا ناطقا ؟ ولا شك أن من فعل ذلك لايعجزه أن يعيد الأموات أحياء ، والعظام الرميم بشرا كهيئتهم التى كانوا عليها قبل الفناء .

و إجمال ذلك — إن بعض المشركين استبعدوا إعادة الله ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسوا أنفسهم وأنه تعالى خلقهم من العدم ، أفهذا مما يُسْتَبعَد و يُجحد ؟

ونحو الآية حكاية عن المشركين : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقوله أيضا على طريق الحكاية « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم عن استبعادهم ويبكتهم بتذكيرهم بما نسوه من حقيقة أمرهم وخلقهم من العدم فقال :

(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) أى قل أيها الرسول لهذا المشرك القائل لك : من يحيي العظام وهى رميم ؟ يحييها الذى ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا وهو العليم بالعظام ، وأين تفرقت فى سائر أقطار الأرض ؟ وأين ذهبت ؟ ، لايخفى عليه شىء من أمر خلقه ، فهو يعيده على النمط السابق والأوضاع التى كان عليها مع قواه السالفة .

وكان الفيلسوف الإسلامى الملقب بالفارابى يقول : وددت لو أن إرسطو وقف على القياس الجلىّ فى قوله تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها) الآية ، إذ تفصيله: الله أنشأ العظام وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئا أوّلا قادر على إنشائه و إحيائه ثانيا — ونتيجة هذا — الله قادر على إنشائها و إحيائها بقواها ثانيا اه .

ولا شك أن الفارابى إنما يريد القياس الذى يفهمه اليونانى باصطلاحه المنطق ، و إلا ففى الآية قياس فهمه العربى على أسلوبه فى التخاطب الذى يجرى عليه و يقتنع به، ولكل أمة أساليب فى الإقناع والحجاج تسير عليها وتسلك سبيلها ، وقد اقتنع الكثير من العرب بما جاء به فى هذا ، ومن جحد فإنما فعل ذلك عنادا واستكبارا .

ثم ذكر دليلا ثانيا يرفع استبعادهم و يبطل إنكارهم فقال :

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) أى هو الذى بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار أخضر ناضرا ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار، ومن فعل ذلك فهو قادر على ما يريد لايمنعه شىء ، إذ من أحدث النار فى الشجر الأخضر على ما فيه من المائية المضادة للاحتراق ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًا فيبس و بلى .

ثم زكى ذلك بدليل ثالث على قدرته أعجب من سابقيه فقال :

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) يقول تعالى منبها هذا الكافر الذى قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟

إلى خطأ قوله وعظيم جهله بأن خلق مثلكم من العظام الرميم - ليس بأعظم من خلق السموات والأرض ، وإذا لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم منكم ، فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمّت و بليت ؟.

والخلاصة — إنه تعالى نبّه إلى عظيم قدرته على خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وقفار وما بين ذلك ، وإلى أن الذى قدر على إيجاد هذه العوالم العظيمة - قادر على إعادة الأجساد بعد البلى .

ونحو الآية قوله : « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف من تقرير واسع قدرته و إثبات عظيم سلطانه فقال :

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) أى إنما شأنه تعالى فى إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده : تكوّن فيتكوّن و يحدث فورا بلا تأخير .

وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد ، بأمر المطاع لمن يطيعه فى حصول المأمور به بلا توقف ولا افتقار إلى مزاولة عمل ولا استعمال آلة .

و بعد أن أثبت لنفسه القدرة التامة والسلطة العامة ، نزّه نفسه عما وصفوه به ، وعجّب السامعين مما قالوه فقال :

(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) أى تنزه ربنا الحى القيوم الذى بيده مقاليد السموات والأرض - عن كل سوء .

(و إليه ترجعون) أى و إليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بما عمل ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ونحو الآية قوله : « تبارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ » وقوله : « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، نسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تنير قلوبنا بالتبصر فى فهم كتابك ، كما أنرت به قلوب عبادك الأبرار ، وأنبيائك الأخيار.

مقاصد سورة يس

(١) بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله حقا ، وأنه نذير للأميين وغيرهم .

(٢) المنذرون من النبي صلى الله عليه وسلم صنفان: صنف ميئوس من صلاحه، وآخر قد سعى لفلاحه .

(٣) أعمال الفريقين تحصى عليهم ، فتحفظ أخبارهم ، وتكتب آثارهم.

(٤) ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية ، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه فدخلوا النار ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية و إرشاد .

(٥) الدليل الطبيعى والعقلى على البعث .

(٦) تبيان قدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة .

(٧) جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعم الله عليهم وسرعة أخذهم وندمهم حين معاينة العذاب .

(٨) الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها .

(٩) توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين .

(١٠) قدرته تعالى على مسخهم فى الدنيا وطمس أعينهم .

(١١) الانتفاع بالأنعام فى المأكل والمشرب والملبس .

(١٢) إثبات البعث بما أقامه من أدلة فى الآفاق والأنفس .

سورة الصافات

هى مكية بلا خلاف فى ذلك . نزلت بعد سورة الأنعام . وعدد آيها ثنتان وثمانون ومائتان ، ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة التى أشير إليها إجمالا فى السورة السابقة فى قوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِم لَا يَرْجِعُونَ » .

(٢) إن فيها تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالا فى السورة قبلها .

(٣) المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها ، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى على المعاد وإحياء الموتى ، وعلل ذلك بأنه منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشىء كان ، وذكر هنا ماهو كالدليل على ذلك، وهو وحدانيته تعالى، إذ لايتم ماتعلقت به الإرادة إيجادا وإعداما إلا إذا كان المريد واحدا كما يشير إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) .

شرح المفردات

الصافات : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة فى الشرف والفضيلة ، والزاجرات زجرا : أصل الزجر الدفع عن الشىء بتسلط وصياح

ثم استعمل فى السّوق والحث على الشىء ، وفى المنع والنهى والمراد بها هنا الملائكة، لأن لهم تأثيرا فى قلوب بنى آدم بزجرهم عن المعاصى و إلهامهم فعل الخير ، والتاليات ذكرا : هم الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، والمشارق : هى مشارق الشمس بعدد أيام السنة ، فهى فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب فى مغرب ، والمغارب كذلك متعددة تعدد المشارق ، ولم يذكرها اكتفاء بتعدد المشارق .

الإيضاح

أقسم سبحانه بالملائكة يتمون صفوفهم فى مقام العبودية ، و يردعون الناس عن الشر بالإلهام، و يتلون آياته على أنبيائه - إن معبودكم الذى يجب إخلاص العبادة له ، لواحد لاثانى له ولا شريك ، فأخلصوا له العبادة ، وأفردوه بالطاعة ، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما من الخلق ، ومالك ذلك كله وقائم عليه .

و إجمال ذلك — إنه أقسم بملائكته الذين كملت أرواحهم وتجردوا لعبادته ، يسبحونه الليل والنهار لايفترون ، و يحضون الناس على فعل الخير ، و يدفعون عنهم وسوسة الشيطان ، و يتلون آياته على أنبيائه حين نزولهم بالوحى — إن ربكم لواحد وهو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب .

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) .

شرح المفردات

الدنيا : مؤنثة الأدنى ؛ أى أقرب السموات من أهل الأرض ، والمارد والمريد ، المتعرى عن الخير؛ من قولهم : شجر أمرد: إذا تعرى من الورق ، يسمعون : أى يتسمعون والملأ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، يقذفون : يرجمون ، والدحور : الطرد والإبعاد ، واصب : أى دائم ، والخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، والثاقب : المضىء .

الإيضاح

(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) أى إنا جعلنا الكواكب زينة فى السماء القريبة منكم بما لها من البهجة والجمال ، وتناسب الأشكال وحسن الأوضاع، ولا سيما لدى الدارسين لنظامها ، المفكرين فى حسابها ، إذ يرون أن السيارات منها متناسبة المسافات ، بحيث يكون كل سيار بعيدا من الشمس ضِعفَ بُعد الكوكب الذى قبله .

(وحفظا من كل شيطان مارد) أى وحفظنا السماء أن يتطاول لدرك جمالها وفهم محاسن نظامها ، الجهال والشياطين المتمردون من الجن والإنس ، لأنهم غافلون عن آياتنا ، معرضون عن التفكر فى عظمتها ؛ فالعيون مفتحة ولكن لا تبصر الجمال ولا تفكر فيه حتى تعتبر بما فيه .

(لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى) أى إن كثيرا من أولئك الجهال والشياطين محبوسون فى هذه الأرض ، غائبة أبصارهم عن الملأ الأعلى لا يفهمون رموز هذه الحياة وعجائبها ، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلع إلى تلك العوالم العليا ، والتأمل فى إدراك أسرارها ، والبحث فى سر عظمتها .

(ويقذفون من كل جانب . دحورا) أى وقد قذفتهم شهواتهم وطردتهم من كل جانب ، فهم تائهون فى سكراتهم ، تتخطفهم الأهواء والمطامع والعداوات

والإحن ، فلا يبصرون ذلك الجمال الذى يشرق للحكماء ، ويبهر أنظار العلماء ، ويتجلى للنفوس الصافية ويسحرها بعظمته ، وهم مازالوا يدأبون على معرفة هذا السر حتى ذاقوا حلاوته ، فخروا ركعا سجدا مذهولين من ذلك الجمال والجلال .

(ولهم عذاب واصب) أى وأولئك لهم عذاب دائم لتقصيرهم عن البحث فى سر عظمة هذا الكون ، والوصول بذلك إلى عظمة خالقه ، وبديع قدرته .

ثم بين من وفقهم الله وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقال :

(إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) أى إلا من لاحت له بارقة من ذلك الجمال ، وعنّت له سانحة منه ، فتخطفت بصيرته كالشهاب الثاقب ، فحنّ إلى مثلها ، وصبت نفسه إلى أختها ، وهام بذلك الملكوت العظيم باحثا عن سر عظمته ، ومعرفة كنه جماله ، وهم من اصطفاهم الله من عباده ، وآتاهم الحكمة من لدنه ، وأيدهم بروح من عنده ، وهم أنبياؤه وأولياؤه الذين أنعم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

والخلاصة — إن الدنيا بيت فرشه الأرض ، وسقفه السماء ، وسراجه الكواكب؛ والبيوتُ الرفيعة العماد ، العظيمة البناء ، كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش التى تكسبها لألاء وبهجة فى عيون الناظرين ، ولكن لن يصل إلى إدراك تلك المحاسن إلا الملائكة الصافون ، والأنبياء والعلماء المخلصون ، أما الجهال والشياطين المتمردون من الجن والإنس فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون ، فلقد يعيش المرء منهم ويموت وهو لاهٍ عن درك هذا الجمال ، إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه ، وقد تبدو لهم أحيانا بارقة من محاسن هذا الجمال ، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب ، فيخطفون منها خطفة يتبعها قبس من ذلك النور يضىء قلوبهم ، وينير ألبابهم ، فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة ، وقيض لهم التوفيق والهداية ، وممن اصطفاهم ربهم برضوانه ، والفوز بنعيمه [1] .

(١) وقد نحونا بهذا نحوا آخر يخالف ما فى كثير من التفاسير إذ أنهم قالوا إن خطف الخطفة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق السمع ويأخذ أخبار السماء فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه ولم يستطع أخذ شىء منها ، وعصم الله وحيه وكتابه .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)

شرح المفردات

فاستفتهم : أي فاستخبر مشركى مكة من قولهم : استفتى فلانا إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه ، أشد خلقا : أي أصعب خلقا وأشق إيجادا ، لازب : أي ملتصق بعضه ببعض ، وأنشدوا لعلى بن أبي طالب :

تعلَّمْ فإن الله زادك بسطةً وأخلاقَ خير كلُّها لك لازبُ

يسخرون : أي يستهزئون ، وإذا ذكروا لا يذكرون : أي وإذا وعظوا لا يتعظون ، آية : أي معجزة ، يستسخرون : أي يبالغون فى السخرية والاستهزاء .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته وعلمه وقدرته بذكر خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب — وهنا أثبت الحشر والنشر وقيام الساعة ببيان أن من خلق هذه العوالم التى هى أصعب فى الخلق منكم ، فهو قادر على إعادة الحياة فيكم بالأولى كما جاء فى السورة السابقة « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » وجاء فى قوله : « لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » .

الإيضاح

(فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟) أى سل هؤلاء المنكرين للبعث : أىٌّ أصعب إيجادا ، أهم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة ؟

والسؤال للتوبيخ والتبكيت ، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد منهم خلقا ، أى و إذاً فكيف ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، فأين هم بالنسبة لهذه العوالم التى خلقناها ؟.

ثم زاد الأمر بيانا وأوضح هذا التفاوت فقال :

(إنا خلقناهم من طين لازب) أى إنا خلقنا أباهم آدم من طين رخو ملتصق بعضه ببعض ، وفى هذا شهادة عليهم بالضعف والرخاوة دون الصلابة والقوة ، فأين هم من كواكب السماء وعالم الملائكة وتلك العوالم المشرقة ؟ و إذا قدَرنا أن نخلق تلك العوالم العظيمة فهل يعجزنا أن نعيد ما هو مخلوق من طين لا يصلح للحياة إلا بإشراق الأنوار عليه ، ووصول الآثار من العوالم الأخرى إليه .

ثم خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

(بل عجبت ويسخرون) أى لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ، ولا يتعجبون من تلك الدلائل ، بل مثلك من يعجب منها ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات .

والخلاصة — إن قلوبهم غُلْفٌ فلا تنظر فيما حولها من البراهين والآيات الدالة على البعث ، ولا تقدر أن تنفذ إلى الإيقان به ، فحالهم عجب ، ويحق لك أن تكثر التعجب منها ، فلقد بلغ من عنادهم و إصرارهم على إنكارهم أن يسخروا من مقالك ، ومن اهتمامك بإقناعهم فى وجوب تسليمهم بالبعث والاعتقاد بحصوله .

(و إذا ذكروا لا يذكرون) أى هم لقسوة قلوبهم إذا وعظوا لا تنفعهم العظة ،

لأنه قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فماذا تفيد العبر أو تجدى الذكرى مع قوم هذه حالهم ؟ .

ثم بالغ فى ذمهم وشديد غفلتهم عن النظر فى دلائل الحق فقال :

(و إذا رأوا آية يستسخرون) أى و إذا أقيمت لهم الأدلة والمعجزات التى ترشد إلى صدق من يعظهم و يذكرهم بأيام الله ، نادى بعضهم بعضا متضاحكين مستهزئين: هلموا وانظروا إلى ما يفعله ذلك الساحر الذى يخلب ألبابنا ، و يسلب عقولنا ، و يريد أن يصدنا عما كان يعبد آباؤنا ، وهذا ما أشار إليه حاكيا قولهم :

(وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين) أى وقالوا ماهذا الذى يأتينا به الفَيْنَةَ بعد الفينة مما يدعى أنه أدلة ظاهرة على صدق ما يدعيه — إلا ألاعيب ساحر ، وخدعة أريب ماهر ، يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آباؤنا ، وما هى من دلائل الحق فى شىء ، فإيا كم أن تخدَعوا بها ، وترجعوا عن الدين الحق الذى عليه آباؤكم ، وقد مرت عليه القرون ونحن له متبعون .

ثم خصصوا بعض ما ينكرون مما يدعيه من الحشر والبعث فقالوا :

(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟) أى إنا لو تقبلنا منه بعض مايقول و إن كان فيه ما يدهش العقول — لا نتقبل منه تلك المقالة ، وهى إحياء العظام النخرة والأجسام التى صارت ترابا ، إن هذه إلا إحدى الكبر ، فلا ينبغى أن نوجه النظر إلى مثل هـذه الآراء التى لايقبلها العقل ، ولا يصل إلى مثلها الفكر ، ثم زادوا فى استبعادهم وعظيم تعجبهم وقالوا :

(أو آباؤنا الأولون ؟) أى أيبعث آباؤنا الأولون أيضا ، وهذا أغرب لأن آباءهم أقدم منهم ، فبعثهم أشد غرابة وأكثر استبعادا .

و بعد أن حكى عنهم هذه الشبهة أجاب عنها بقوله :

(قل نعم وأنتم داخرون) أى قل لهم أيها الرسول : نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، وأنتم صاغرون أذلاء أمام القدرة البالغة .

ونحو الآية قوله : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

ثم بين سهولة ذلك أمام قدرة الله فقال :

(فإنما هى زجرة واحدة . فإذاهم قيام ينظرون) أى لاتستصعبوا البعث فإنما يكون بصيحة واحدة بالنفخ فى الصور ، فإذا الناس قيام من مراقدهم أحياء ينظرون إلى ما كانوا يوعدون من قيام الساعة .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) .

شرح المفردات

قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، والدين : الجزاء كما جاء فى قولهم «كما تدين تدان» ، والفصل :الفرق بين المحسن والمسىء وتمييز كل منهما عن الآخر ، احشروا : أى اجمعوا ، وأزواجهم : أى أمثالهم وأشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنا كذلك ، واهدوهم : أى دلوهم عليها ، والصراط : الطريق ، والجحيم : النار ، وقفوهم : أى احبسوهم فى الموقف ، مسئولون : أى عن عقائدهم وأعمالهم ، لاتناصرون : أى لاينصر بعضكم بعضا ، مستسلمون : أى منقادون ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة و يلزمه الانقياد عرفا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه — أردف هذا ببيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم، ويعترفون بأنهم كانوا فى ضلال مبين، ويندمون على مافرّطوا فى جنب الله، ولات ساعة مندم.

الإيضاح

(وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) أى وقال أولئك المنكرون للبعث فى الدنيا حين رأوا العذاب : لنا الويل والهلاك فقد حلّ ميعاد الجزاء، وسنجازَى بما قدمنا من عمل كما وُعِدنا بذلك على ألسنة الرسل فكذبناهم وسخرنا منهم، وأنكرنا صدق ما قالوا.

ثم أقبل بعضهم على بعض يتناجون ويقولون :

(هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) أى هذا هو اليوم الذى يمتاز فيه المحسن بما قدم من عمل عن المسىء الذى دسّى نفسه بما ران على قلبه من الفسوق والعصيان، ومخالفة أوامر الملك الديان، وينال كل منهما جزاء ما عمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فيُدخل الأول جنات النعيم على فرش بطائنها من إستبرق، ويُدْخِل الثانى فى سقر « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ».

ثم ذكر خطاب الملائكة بعضهم لبعض فقال :

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون. من دون الله) أى تقول الملائكة للزبانية : احشروا الظالمين من كل مكان إلى موقف الحساب مع أشباههم وأمثالهم، فاجعلوا ذوى المعاصى المتشابهة، بعضهم مع بعض، فاجعلوا الزناة معا، والآكلين لحوم الناس والناهشين لأعراضهم كذلك، واجعلوا عابدى الأصنام

ومعبوديهم من الأوثان والأصنام معا ، ليكون فى ذلك زيادة لهم فى الحسرة وعظيم التخجيل على ما أتوه من عظيم الشرك وكبير المعصية .

ثم زادوا فى تأنيبهم وتوبيخهم فقالوا :

(فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى فأرشدوهم إلى طريق جهنم ودلوهم عليها ، وفى هذا زيادة فى النكاية بهم والازدراء بشأنهم ، إذ كانوا فى الدنيا يزدرون المؤمنين ويتقحمونهم .

(وقفوهم إنهم مسئولون) أى واحبسوهم فى الموقف ، حتى يسألوا عما كسبت أيديهم ، واجترحوا من الآثام والمعاصى وعن تلك العقائد الزائفة التى زينها لهم الشيطان ، فأضلتهم عن سواء السبيل .

وفى الأثر « لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله مم كسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ »

ثم زادوهم تقريعاً وتعنيفاً فسألوهم :

(مالكم لاتناصرون ؟) أى لأى شىء لاينصر بعضكم بعضا وقد كنتم فى الدنيا تزعمون أنكم تتناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر .

وأخر سؤالهم إلى ذلك الحين؛ إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقريع حينئذ أشد وقعا وأعظم أثرا .

والخلاصة — إن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما يكون بعد إقامة الحجج عليهم وقطع أعذارهم بعد حسابهم .

ثم ذكر أنهم لاينازعون فى الوقوف ولا فى غيره ، بل ينقادون فقال :

(بل هم اليوم مستسلمون) أى بل هم منقادون لأمر الله لايخالفونه ولا يحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل وعجزوا عن الوصول إلى السلام من أى طريق يلتمسونها ، فلا فائدة فى المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

عن اليمين : أى من جهة الخير وناحيته فتنهوننا عنه ، من سلطان : أى من قهر وتسلط عليكم ، طاغين : أى مجاوزين الحد فى العصيان ، فحق علينا : أى وجب علينا ، فأغويناكم : أى دعوناكم إلى الغىّ والضلال .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن الكافرين يندمون يوم القيامة على ما فرط منهم من العناد والتكذيب للبعث حيث لايجدى الندم — أردف هذا بذكر أنهم يتلاومون فيما بينهم حينئذ ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فيلقى الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين ، فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا ، إذ كنتم قوما ضالين بطبيعة حالكم ، وما ألزمناكم بشىء مما كنتم تعبدون أو تعتقدون ، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا لأنفسنا فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم ، ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم فى هذا الذل والهوان ، فبين أنهم قد كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلة التوحيد أعرضوا

عنها استكبارا وقالوا : أنترك دين آبائنا اتباعا لقول شاعر مجنون ؛ ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون ولا هو بالشاعر ، بل جاء بما هو الحق الذى لامحيص من تصديقه وهو التوحيد الذى جاء به المرسلون كافة .

الإيضاح

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى وأقبل التابعون من الكفار ورؤساؤهم المضلون لهم يسأل بعضهم بعضا سؤال تقريع وتعنيف على طريق الجدل والخصومة ، إذ أيقنوا أنهم هالكون لامحالة ، وأنهم صائرون إلى عذاب دائم فى النار ، فألقى الأتباع مسئولية ماهم فيه على رؤسائهم فى الكفر والضلال ، وردّ الرؤساء عليهم حجتهم بما جاء فى الآية بعد .

ثم فصل طريق التساؤل وكيف يحدث فقال :

(قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أى قال الأتباع لرؤساء الضلال والكفر : إنكم كنتم تمنعوننا عن فعل الخير وتصدوننا عن سلوك طريقه ، وترغبوننا فيما تدينون به وتعتقدونه ، ومن ثم أضللتمونا وأوقعتمونا فى الهلاك الذى نحن صائرون إليه لامحالة .

فردّ الرؤساء عليهم وأجابوهم بجوابين :

(١) (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) أى فردوا عليهم منكرين إضلالهم إياهم . قالوا : إننا ما أضللناكم ، بل أنتم كنتم بطبيعة أنفسكم مستعدين للكفر بما دسيتم به أنفسكم من أفعال الشرك والمعاصى ، إذ كنتم تشركون بالله سواه من الأوثان والأصنام ، وترتكبون من أنواع الفجور والآثام ما كان سببا فى الطبع على الأفئدة والقلوب حتى لم تعرفوا للحق سبيلا ، ولا للخير طريقا .

(٢) (وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين) أى إننا على فرض إضلالكم وتزيين الكفر لكم ، لم نجبركم عليه ولم نسلبكم اختياركم ، فقلوبكم كانت محبة لما تفعلون ، مسرورة مما تأتون وما تذرون ، مائلة إلى الكفر والعصيان ، تواقة

للسير على سننه واتباع طريقته ، فما كان منا إلا أن دعونا كم لتؤمنوا بما اخترناه لأنفسنا ، وزينه الشيطان لنا ، ووسوس به إلينا ، فلبيتم دعوتنا سراعا ، وسرتم فيما نحن فيه سائرون ، إذ كنتم لذلك مستعدين ، ولمثله محبين ، فما كان منا إلا الدعوة ، وكانت منكم الإجابة ، باختياركم لا جبرا لكم .

ثم ذكروا نتيجة لما تقدم فقالوا :

(فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) أى ولأجل أنا بطبعنا كنا قوما طاغين ، وللكفر وتدسية أنفسنا مستعدين ، وعن الإيمان بربنا معرضين — ثبت علينا وعيده بأنا ذائقو العذاب لا محالة ، إذ كان من عدله أن يجازى كل نفس بما كسبت ، ويثيبها بما عملت ، وهو الخبير بها وبما اجترحت ، وهذا جزاء لا محيص منه ، وهو نتيجة حتمية لما فعلنا باختيارنا واقتضاه استعدادنا ، فلا يلومنّ كل منا إلا نفسه ، ولا يلم بعضنا بعضا ، ولا داعى إلى الجدل والخصام وشد النكير ، فلا يُجنى من الشوك العنب ، ولا يعقب الضلال إلا النار ، عدلا من ربنا كما وعد بذلك على ألسنة رسله وكنا بذلك عالمين ، ولكنا كنا عن الخير معرضين وعن اتباعه مستكبرين .

(فأغويناكم إنا كنا غاوين) أى إنه لم يكن منا فى شأنكم إلا حبنا أن تكونوا مثلنا وهو غير ملزم لكم ، وإنما أضركم سوء اختياركم وقبح استعدادكم وهو الذى جعل مصيركم ما تشاهدون من العذاب التى وعدتم به على ألسنة الرسل .

وبعد أن ذكر حالهم أعقبه بذكر العذاب الذى سيحل بهم جميعا رؤساء ومرءوسين فقال :

(فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) أى فإن الفريقين المتسائلين حينئذ مشتركون فى العذاب لا محالة ، كما اشتركوا فى الضلال والغواية ، وإن كان المغوون أشد عذابا ، لأنهم تحملوا أوزارهم وأوزارا مثل أوزار من أضلوهم كما ثبت فى الحديث وقد تقدم ذكره مرارا .

ثم ذكر سبحانه أن هذا عدل منه على مقتضى سننه فقال :

(إنا كذلك نفعل بالمجرمين) أى إن مثل ذلك الجزاء العظيم نفعل بالمشركين وفاقا لما تقتضيه الحكمة و يوجبه العدل بين العباد ، فيعطى كل عامل جزاء ما قدمت يداه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ثم فصل بعض ما استحقوا لأجله العذاب فقال :

(إنهم كانوا إذا قيل لهم لاإله إلا الله يستكبرون) أى إنهم كانوا إذا لقنوا كلمة التوحيد نفروا منها وأعرضوا عن قبولها، وصعروا خدودهم أنفة وكبرا أن يسمعوا مثلها.

وذكروا السبب الذى لأجله امتنعوا من استجابة دعوته :

(و يقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟) أى أنترك عبادة الآلهة التى ورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر ونستمع لقول شاعر يخلط و يهذى ؟ فمثله لايستمع لكلامه ، ولا يصغى لقوله :

وقد جمعوا فى كلامهم بين إنكار الوحدانية و إنكار الرسالة ، فإنكار الأولى فى استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد ، و إنكار الثانية فى قولهم : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

(بل جاء بالحق وصدق المرسلين) أى إنه صلى الله عليه وسلم جاء بالحق الذى لاشك فيه وهو التوحيد الذى يثبته العقل ويؤيده البرهان ، و بمثله جاء الأنبياء السابقون ، فهو لم يكن بدعا بين الرسل ، بل سار على شاكلتهم واتبع نهجهم ، فكيف يكون من هذه حاله شاعرا أو مجنونا ؟

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ

مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) .

شرح المفردات

بكأس : أى بخمر ، من معين: أى من نهر ظاهر للعيون جار على وجه الأرض لذة : أى ذات لذة ، غول : أى صداع ، ينزفون : أى لاتذهب عقولهم بالسكر كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه ، قاصرات الطرف : أى قصرن أبصارهن على أزواجهن لايمددن طرفا إلى غيرهم ، عين واحدتهن عيناء : أى واسعة العيون فى جمال ، المكنون المستور الذى لاتمسه الأيدى ولا يصاب بالغبار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من الهلاك على الآخرين — بين هنا أن لافائدة من مثل هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لامحالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه بما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم واللذات التى قصها علينا فى تلك الآية مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إنكم لذائقو العذاب الأليم) أى إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم الذى لاتنفك أوجاعه عنكم ، وما هو أبدا بمزايلكم .

ثم بين العلة فى لحوقه بهم فقال :

(وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل، وأسلفتم من معصية « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وبعد أن أبان حال المجرمين، ذكر حال عباد الله المؤمنين العاملين، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم فقال :

(إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون) أى لكن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه، أولئك لهم جنات يتمتعون فيها بكل مالذّ وطاب، فيمتعون بلذيذ الفواكه ذات الطعم الجميل والرائحة الشذيّة، وتأتيهم وهم مكرمون كما تُقدَّم للملوك المترفين وذوى اليسار فى الدنيا .

وفى ذلك إيماء إلى أن ما يأكلونه فى الجنة إنما هو للتفكه والتلذذ لا للقوت، لأنهم فى غنى عنه، لعدم تحلل شىء من أجسامهم بالحرارة الغريزية حتى يحتاجوا إلى بدل منه .

وما جاء فى قوله : « وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » فهو بيان لأنواع ما يأكلون .

ثم بين المكان الذى يأتيهم فيه الرزق وذكر حالهم إذ ذاك فقال :

(فى جنات النعيم . على سرر متقابلين) أى إنهم يأتيهم ذلك الرزق وهم فى جنات النعيم جالسين على سرر متقابلين، ليأنس بعضهم ببعض، ويتمتعوا بطيب الحديث؛ وفى ذلك لذة روحية لايدركها إلا ذوو النُّهى وأرباب الحِجا .

وبعد أن ذكر صفة المأكل والمسكن ذكر وصف الشراب فقال :

(يطاف عليهم بكأس من معين) أى وكما يتمتعون بطيب المأكل يتمتعون بجيد الشراب تتميما للنعمة كما هو حال العظماء فى الدنيا، فيؤتى لهم بصنوف الخمور على سبيل السعة والكثرة، كأنها تؤخذ من نهر جار فلا تقتير ولا بخل، بل كلما طلبوا وجدوا، وفى ذلك إشارة إلى أنها رقيقة لطيفة، وأنها ليست كخمر الدنيا تداس بالأقدام كما قال شاعرهم :

وشمولةٍ من عهد عادٍ قد غدت		صَرْعى تداس بأرجل العصّار
لانت لهم حتى انتَشَوْا فتمكّنَتْ		منهم فصاحت فيهم بالثار

(بيضاء لذة للشاربين) أى لونها مشرق حسن بهىّ لا كخمر الدنيا ذات المنظر البشع واللون الأسود أو الأصفر، أو الذى فيه كدورة إلى نحو ذلك مما ينفّر الطبع السليم، وهى لذيذة الطعم كما هى طيبة اللون وطيبة الريح، وقد وصفوا خمر الدنيا بالصفرة كما قال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها		لو مسّها حجر مسّته سرّاء

وجاء وصفها بالحمرة قبل المزج، والصفرة بعده كما قال :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده		أتت فى ثيابَىْ نرجسٍ وشقائق
حكت وجنة المحبوب صِرْفاً فسلّطوا		عليها مِزَاجا فاكتست لون عاشق

ثم زاد فى مدحها وامتيازها عن خمر الدنيا فقال :

(لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) أى هى لا تؤثر فى الأجسام كما تؤثر خمور الدنيا، فلا تُصدّع الرأس، ولا تفسد العقل بالسكر كما يكون فى خمر الدنيا كما قال :

فما زالت الكأس تغتالنا		وتذهب بالأول الأول

والخلاصة — إنه ليس فيها شىء من أنواع المفاسد التى تكون حين شرب الخمر فى الدنيا، فهى لا تحدث صداعا ولا خُمارا ولا سكرا ولا عربدة ولا نحو ذلك مما هو لازم لخمور الدنيا.

ثم ذكر محاسن زوجاتهم ليكون فى ذلك تتميم لبيان ما آتاهم ربهم من النعم فقال :

(وعندهم قاصرات الطرف عين) أى ولديهم نساء عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، واسعات العيون فى جمال.

ثم زاد بيانا فى وصف جمالهن بما شبههن به فقال :

(كأنهن بيض مكنون) أى إنهن فى بياض يشوبه قليل من الصفرة كالبيض المستور فى الأعشاش الذى لم تمسسه الأيدى ولم يعله الغبار ، وهذا اللون مما تهيم به العرب ، فقد شبهت النساء ببيضات الخدور كما قال امرؤ القيس :

وبيضةِ خدرٍ لايرام خِباؤُها تمتعتُ من لَهْوٍ بها غير مُعْجَل

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) .

شرح المفردات

قرين : أى خليل وصاحب ، لمدينون : أى لمجزيون ، مطلعون : أى مشرفون فناظرون إلى أهل النار ، سواء الجحيم : أى وسط النار ، لتردين : أى لتهلكنى ، من المحضرين : أى المسوقين للعذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من النعيم المقيم ، ثم ذكر سرورهم وحبورهم فى المآكل والمشارب وجميل المساكن والأزواج الحسان — بين هنا أنهم

الخلوّ بالهم من المشاغل ، وطيب نفوسهم يسمُر بعضهم مع بعض و يتحادثون فيما كانوا فيه فى الدنيا مع أخلائهم من شتى الآراء ، مع اختلاف الأهواء ، حتى ليقص بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقعه فى الهلاك لولا لطف ربه به ، وقد كان مآله أن صار فى سواء الجحيم ، ثم ذكر نعمة ربه عليه بسبب ما كان يدين به فى الدنيا .

الإيضاح

(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى يطاف عليهم بكأس من معين ، فيشربون و يتحادثون على الشراب ، وما ألذ الحديث لدى الأخلاء إذ ذاك ؛ كما أفصح عن ذلك شاعرهم :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على الشراب
ولَثْمُكَ وجنتَىْ قمر منير يجول بوجهه ماء الشباب

والحديث ذو شجون ، فهم يتحادثون فى شتى الفضائل والمعارف وفيما سلف لهم من شئون الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات حين رفاهية الحال ، وفراغ البال ، واطمئنان النفس ، وخلوّها من المخاوف العاجلة والآجلة .

ثم فصل هذا التساؤل و بيّنه فقال :

(قال قائل منهم إنى كان لى قرين. يقول أئنك لمن المصدقين ؟ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون؟) أى قال قائل من أهل الجنة : إنى كان لى قرين فى الدنيا يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة و يستنكره أشد الاستنكار و يقول متعجبا : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمحاسبون بعد ذلك على أعمالنا وما قدمته أيدينا ؟ ألا إن ذلك لايدخل فى باب الإمكان ولايقبله عاقل ، فأجْدِرْ بمن يصدق بمثل هذا أن يعدّ من البُله والمجانين الذين لاينبغى مخاطبتهم ولا الدخول معهم فى باب الجدل والخصام ، فهم ساقطون من درجة الاعتبار لدى العقلاء والمنصفين .

وبعد أن ذكر مقالته لأهل الجنة أراد أن يؤكد لهم صدق ما قال ، ويريهم ما آل إليه أمره من الدخول فى النار فقال :

(قال هل أنتم مطلعون) أى قال لجلسائه من أهل الجنة ، ليزيدهم سرورا على أن عصمهم الله من مثل حاله ووفقهم إلى العمل بما أرشد إليه أنبياؤه ، هل تودون أن تروا عاقبة ذلك القرين ؟ وكيف خذله الله وأوقعه فى المَهْلكة ؟

وإنا لانخوض فى كيفية الاطلاع إذ ذاك مع شاسع المسافات ، واختلاف مراتب أهل الجنة وأهل النار — فإن ذلك من أمور الغيب التى يجب أن تؤمن بها دون بحث فى شأنها ، ولا نقص ولا زيادة فيها .

(فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) أى فاطلع إلى أهل النار فرأى قرينه فى وسطها يتلظى بحرّها وشديد لهبها .

(قال تالله إن كدت لتردين) أى قال لقرينه موبخا له : إنك لقد كدت تهلكنى بدعائك إياى إلى إنكار البعث والقيامة .

(ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أى ولولا فضل ربى بإرشاده لى إلى الحق ، وعصمتى من الباطل ، لكنت مثلك من المحضرين للعذاب .

ثم ذكر ما يقوله ذلك المؤمن لجلسائه تحدثا بنعمة ربه عليه واغتباطا بحاله بمسمع من قرينه ، ليكون توبيخا له فيزيد به تعذيبه .

(أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) أى يقول لهم : أنحن مخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ولا بمعذبين إلا موتتنا الأولى ؟ بخلاف الكفار فإنهم يموتون مثلنا ، ثم هم فى جهنم يتمنون الموت كل ساعة ، ولا يخفى ما فى ذلك من سوء الحال ؛ وقد قيل لحكيم : ما شر من الموت ؟ قال الذى يُتمنى معه الموت .

والخلاصة — إن المؤمن غبط نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة ، والإقامة فى دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب .

وعِلْمُ أهل الجنة أنهم لايموتون جاء من إخبار الأنبياء لهم فى الدنيا بذلك ؛ وفى نفى العذاب عنهم إيماء إلى استمرار النعيم ، وعدم خوف زواله ، فإن خوف الزوال نوع من العذاب كما قال :

إذا شئت أن تحيا حياة هنية فلا تتخذ شيئا تخاف له فقدا

وإلى نفى الهرم واختلال القوى ، لأنه ضرب من العذاب أيضا .

ثم زاد فى تأنيب قرينه وزيادة حسرته فقال :

(إن هـذا لهو الفوز العظيم) أى إن ما نحن فيه من نعيم مقيم مع تمتع بسائر اللذات من مآكل ومشارب فوز أيما فوز ، ولا سيما الفوز بذلك النعيم الروحى وهو رضا الله عنه كما قال : « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

ثم أومأ إلى اغتباطه بما هو فيه ، وبين أن ذلك كان عاقبة كسبه وعمله فقال :

(لمثل هـذا فليعمل العاملون) أى لمثل هذا النعيم والفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ليصيروا إليه فى الآخرة ، ولا يعملوا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام ، المشوبة بصنوف الآلام .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

النزل : ما يعدّ للضيف وغيره من الطعام والشراب ، والزقوم : شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة فى الآية ، فتنة : أى محنة وعذابا فى الآخرة ، وابتلاء فى الدنيا ، أصل الجحيم : أى قعر جهنم ، طلعها : أى ثمرها ، رءوس الشياطين : أى فى قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان فيقولون: وجه كأنه وجه شيطان ، كما يشبهون حسَن الصورة بالملَك ، والملء: حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه ، والشوب : الخلط ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، مرجعهم : أى مصيرهم ، ألفوا : أى وجدوا ، يهرعون : أى يسرعون إسراعا شديدا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه ثواب أهل الجنة وذكر ما يتمتعون به من مآكل ووصف الجنة ورغب فيها بقوله : (لمثل هذا فليعمل العاملون) .

أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار وما يلاقون فيها من العذاب اللازب الذى لا يجدون منه محيصا ، وهو عذاب فى مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم ، جزاء ما دسّوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، وما قلدوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان من الكفر بالله وعبادة الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ؟) أى أهذا الرزق المعلوم الذى أعطيته لأهل الجنة كرامة منى لهم خير ، أم ما أوعدت به أهل النار من الزقوم المرّ البشع .

وهذا ضرب من التهكم والسخرية بهم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم .

(إنا جعلناها فتنة للظالمين) أى إنا جعلنا تلك الشجرة ابتلاء واختبارا للكافرين، فهم حين سمعوا أنها فى النار قالوا: كيف يكون ذلك والنار تحرق الشجر؟ مع أن هـذا ليس بالعجيب ولا بالمستحيل، فإن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار وينعم فيها، فهو أقدر على خلق الشجر فيها وحفظه من الاحتراق.

ثم وصف هذه الشجرة فقال:

(إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) أى إنها شجرة تنبت فى قعر النار وأغصانها ترتفع إلى أركانها.

(طلعها كأنه رءوس الشياطين) أى إن ثمرها فى قبح منظره وكراهة رؤيته كأنه رءوس الشياطين؛ والعرب تتخيل رأس الشيطان صورة بَشِعة لاتعدلها صورة أخرى، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهى: كأن وجهه وجه شيطان، وكأن رأسه رأس شيطان، ألا ترى إلى امرئ القيس وقد سلك هذه السبيل ونهج هذا النهج فقال:

أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وعلى العكس من هـذا تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملك، من قبل أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لاشر فيه، فارتسم فى خيالهم بأبهى صورة، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن صواحبات يوسف «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ».

ثم بين أن ما كل أهل النار من هذه الشجرة فقال:

(فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) أى فإنهم ليأكلون من ثمرها فيملئون بطونهم منه، وإن كانوا يعرفون مرارة طعمه ونهاية نتنه وبشاعة رائحته، ولـكن ماذا يعملون وقد غلب الجوع عليهم؟ والمضطر يركب الصعب والذلول، ويستروح من الضر بما يقاربه فيه.

وبعد أن وصف طعامهم وبين شناعته ، أردفه بذكر شرابهم ووصفه بما هو أبشع وأشنع فقال :

(ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) أى ثم إنهم بعد أن يشبعوا ويغلبهم العطش يستغيثون منه فيغاثون بماء كالمهل قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم شوى لحوم وجوههم ، وإذا شربوه قطع أمعاءهم .

ثم ذكر أنهم بعد هذا وذاك لا مأوى لهم إلا نار جهنم وبئس المصير فقال :

(ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) أى ثم إن مصيرهم بعد المأكل والمشرب ، لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فهم تارة فى هذه وتارة فى تلك كما قال : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » .

والخلاصة — إنهم يؤخذون من منازلهم فى الجحيم وهى الدركات التى أسكنوها إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون إلى أن تمتلئ بطونهم ثم يسقون الحميم ثم يرجعون إلى تلك الدركات .

ثم علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد ، بتقليد الآباء فى الدين بلا دليل يستمسكون به فقال :

(إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون) أى ثم إنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم بلا برهان ، وأسرعوا إلى تقليدهم بلا تدبر ولا روية ، وكأنهم استُحِثُّوا على ذلك ، وأُزعجوا إزعاجا .

وفى هذا دليل على أن التقليد شؤم على المقلَّد وعلى من يتبعه ، فالإنسان لا سعادة له إلا بالنظر والبحث فى الحقائق الدنيوية والأخروية ، ولو لم يكن فى القرآن آية غير هذه فى ذم التقليد لكفى .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المشركين يهرعون على آثار آبائهم الأولين دون نظر ولا تدبر — أردفه بما يوجب التسلية لرسوله على كفرهم وتكذيبهم ، بأن كثيرا من الأمم قبلهم قد أرسل إليهم الرسل فكذبوا بهم وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، ونجّى الله المؤمنين ونصرهم، فليكن لك فيهم أسوة ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات، إن عليك إلا البلاغ .

الإيضاح

(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) أى ولقد ضل قبل قريش كثير من الأمم السابقة ، فعبدوا مع الله آلهة أخرى كما فعل قوم إبراهيم وقوم هود وقوم صالح .

ثم ذكر رحمته بعباده وأنه لايؤاخذهم إلا بعد إنذار فقال :

(ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى فأرسلنا فيهم أنبياء ينذرونهم بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ، لكنهم تمادوا فى مخالفة رسلهم وتكذيبهم ولم يستجيبوا دعوتهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى فانظر كيف كان عاقبة الكافرين المكذبين، فقد دمرهم الله ونجّى المؤمنين ونصرهم .

وهذا خطاب موجه إلى كل من شاهد آثارهم ، وسمع أخبارهم ، فقد سمعت قريش بأنباء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وكيف كان عاقبة أمرهم .

وقد استثنى من هؤلاء المهلكين عباد الله المخلصين فقال :

(إلا عباد الله المخلصين) أى لكن عباد الله الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان والعمل بأوامر دينه ، أنجاهم من عذابه ففازوا بالنعيم المقيم فى جنات عرضها السموات والأرض .

قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السالفة — شرع يفصل ذلك ، فذكر نوحا عليه السلام وما لقى من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول مدة لبثه فيهم ، فلما اشتدوا واشتطوا فى العناد دعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه ، وأغرق قومه المكذبين ، ونجاه وأهله أجمعين .

الإيضاح

(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) أى ولقد نادانا نوح واستنصر بنا على كفار قومه لما بالغوا فى إيذائه وهموا بقتله حين دعاهم إلى الدين الحق ، فلنعم المجيبون نحن ، إذ لبّينا نداءه وأهلكنا من كذب به من قومه .

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا صلى فى بيتى فمر بهذه الآية : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) قال صدقت ربنا ، أنت أقرب من دُعى ، وأقرب من بُغى ، فنعم المدعوّ ، ونعم المعطى ، ونعم المسئول ، ونعم المولى أنت ربنا ، ونعم النصير » .

ثم بين سبحانه أن الإنعام حصل فى الإجابة من وجوه :

(١) (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) الكرب : الغم الشديد أى فنجيناه من الغرق ومن أذى قومه ومن كل ما يكرب به ويسوءه .

(٢) (وجعلنا ذريته هم الباقين) أى وأهلكنا من كفر بنا استجابة لدعوته : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » ولم يُعقِب أحد ممن كان فى السفينة عَقِبا باقيا سوى أبنائه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث أبو الترك ، وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين ، وليس فى القرآن ولا فى السنة نص قاطع على شىء من هذا ، كما أنه ليس فى القرآن ما يشير إلى عموم دعوته لأهل الأرض قاطبة ، ولا أن الغرق عمّ الأرض جميعا ، وأن ما تفيده الآية من جعل ذريته هم الباقين إنما هو بالنسبة لذرية من معه فى السفينة ، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه وقد كان فى بعض الأقطار الشاسعة من لم تبلغهم الدعوة ، فلم يستوجبوا الغرق كأهل الصين وغيرهم من البلاد النائية .

(٣) (وتركنا عليه فى الآخرين) أى وأبقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة .

ثم ذكر سبحانه أنه سلّم عليه ليُقتدى به ، فلا يذكره أحد بسوء فقال :

(سلام على نوح فى العالمين) أى وقلنا له : عليك السلام فى الملائكة والإنس والجن .

ونحو الآية قوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » .

ثم علل ما فعله به بأنه جزاء على إحسانه فقال :

(إنا كذلك نجزى المحسنين) أى إنه كان فى زمرة المحسنين فجازيناه بالإحسان إليه « وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » .

وإحسانه أنه جاهد أعداء الله بالدعوة إلى دينه ، وصبر طويلا على أذاهم ، إلى نحو من هذا .

ثم بين سبب إحسانه بقوله :

(إنه من عبادنا المؤمنين) أي إن إحسانه كان بإخلاص عبوديته وكمال إيمانه .

وفي هـــذا إيماء إلى أن أعظم الدرجات ، وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته .

(ثم أغرقنا الآخرين) أي ثم أغرقنا الآخرين من كفار قومه ، ولم نُبْق لهم عينا ولا أثرا .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) .

شرح المفردات

من شيعته : أي ممن سار على دينه ومنهاجه ، سليم : أي سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالحسد والغل وغيرهما من النيات السيئة ، والإفك : الكذب ،

سقيم : أى مريض ، فراغ : أى فذهب خِفْية إلى أصنامهم ؛ وأصل الروغ والروغان : الميل قال شاعرهم :

ويُريكَ من طرف اللسان حلاوةً ويَرُوغ عنك كما يَرُوغُ الثعلبُ

باليمين : أى بقوة وشدة ، يزفون : أى يسرعون ؛ من زف النعام ، أى أسرع .

الإيضاح

(وإن من شيعته لإبراهيم) أى وإن ممن سار على نهج نوح وسلك طريقه فى اعتقاد التوحيد والبعث والتصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين — إبراهيم صلوات الله عليه .

(إذ جاء ربه بقلب سليم) أى إذ أخلص قلبه لربه وجعله خاليا من كل شئون الحياة الدنيا ، فلا غش لديه ولا حقد ولا شىء مما يشينه من العقائد الزائفة ، والصفات القبيحة .

ثم فصل ما سلف فقال :

(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟) أى جاء بقلب سليم حين قال منكرا على أبيه وقومه عبادة الأصنام والأوثان : أى شىء تعبدون ؟

وهذا منه استنكار وتوبيخ لهم على ما يعبدون ، إذ لا ينبغى لعاقل أن يركن إلى مثل هذه المعبودات التى لا تضر ولا تنفع .

ثم بين الإنكار وفسره بقوله :

(أئفكا آلهة دون الله تريدون؟) أى أتريدون آلهة من دون الله تعبدونها إفكا وكذبا دون أن تركنوا فى ذلك إلى دليل من نصّ ولا تأييد من نقل ، إنْ هذا منكم إلا خبال وخَطَل فى الرأى .

(فما ظنكم برب العالمين) أى أىّ شىء ظنكم برب العالمين الحقيق بالعبادة ؟ أى أعلمتم أى شىء هو ، حتى جعلتم الأصنام شركاء له ؟

(فنظر نظرة فى النجوم) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة : نظر فى النجوم أى فأطال الفكر فيما هو فيه .

(فقال إنى سقيم) أى إنى أحس بخروج مزاجى عن حال الاعتدال ، ولا أرى فى نفسى خفة ونشاطا ، وكان مقصده من قولته هذه ألا يخرج معهم فى يوم عيدهم لينفذ ما عزم عليه من كسر أصنامهم وإعلان الحرب عليهم فى عبادتهم للأوثان والأصنام ، ولم يكن لهم علم بما بيّت عليه النية ، ولا دليل على أنه لم يكن صادقا فيما يقول ؛ إذ من يعزم على تنفيذ أمر ذى بال يخاف منه الخطر على نفسه أن يكون مهموما مغموما مفكرا فى عاقبة ما يعمل .

(فتولوا عنه مدبرين) أى فأعرضوا عنه وذهبوا إلى معبدهم وتركوه فى مكانه .

(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ؟) أى فذهب مستخفيا إلى أصنامهم التى يعبدونها وقال لها استهزاء : ألا تأكلون من الطعام الذى يقدم إليكم ؟ وكانوا يضعون فى أيام أعيادهم طعاما لدى هذه الأصنام لتبارك فيه .

(ما لكم لا تنطقون ؟) أى أىّ شىء منعكم الإجابة عن سؤلى ، ومراده بذلك التهكم بهم واحتقار شأنهم .

(فراغ عليهم ضربا باليمين) أى فاتجه إليهم يضربهم بقوة وشدة حتى تركهم جُذاذا إلا كبيرهم كما تقدم فى سورة الأنبياء .

(فأقبلوا إليه يزفون) أى فأقبل قومه إليه بعد رجوعهم من عيدهم مسرعين يسألون عمن كسرها، وقد قيل لهم: إنه إبراهيم،فقالوا له : نحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ ولما أخذوا يعتبون عليه طفق يؤنبهم ويعيبهم :

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) .

الإيضاح

(قال أتعبدون ما تنحتون ؟) أى أتعبدون من دون الله أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم ؟ فما تُحدثون فيه الصنعة بأيديكم تجعلونه معبودا لكم ، أفلا عاقل منكم ينهاكم عن مثل هذا ؟

(والله خلقكم وما تعملون) أى والله خلقكم وخلق تلك الأصنام التى تعملونها بأيديكم ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، لاجرم أن عبادتكم لها خطأ عظيم ، وإثم كبير .

ولما أورد عليهم إبراهيم هذه الحجة القوية التى لم يستطيعوا دفعها — عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة .

(قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) تقدم هذا بإيضاح أكثر فى سورة الأنبياء

(فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) أى فأرادوا إحراقه فى النار فأنجيناه منها وجعلناها بردا وسلاما عليه وجعلنا كيدهم فى نحورهم أذلاء مستضعفين وكتبنا له الغلبة والنصر عليهم .

وبعد أن يئس من إيمانهم أراد مفارقتها والهجرة من بينهم .

كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) أى وقال إنى مفارق لتلك الديار ومهاجر إلى مكان أتفرغ فيه لعبادة ربى ، وإنه سيهدينى إلى ما فيه صلاح دينى ، وهذا المكان هو الأرض المقدسة .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان إذا لم يتمكن من إقامة دينه على الوجه المرضى فى أرض وجبت عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى .

ولما هاجر من وطنه طلب الولد فقال :

(رب هب لى من الصالحين) أى رب هب لى أولادا مطيعين يعينوننى على الدعوة ، و يؤنسوننى فى الغربة ، ويكونون عوضا من قومى وعشيرتى الذين فارقتهم .

فاستجاب ربه دعاءه فقال :

(فبشرناه بغلام حليم) أى فبشرناه بمولود ذكر يبلغ الحلم ويكون حليما ، وقد استفيد بلوغه من وصفه بالحلم ، لأنه لازم لتلك السن ، إذ قلما يوجد فى الصبيان سعة الصدر وحسن الصبر والإغضاء عن كل أمر ، وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق العلماء من أهل الكتاب والمسلمين ، بل جاء النص فى التوراة على أن إسماعيل ولد لإبراهيم وسنه ست وثمانون سنة ، وولد له إسحاق وعمره تسع وتسعون سنة .

وأى حلم مثل حلمه ، عرض عليه أبوه وهو مراهق أن يذبحه فقال : « سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فما ظنك به بعد بلوغه ، وما نعت الله نبيا بالحلم غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا

مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) .

شرح المفردات

فلما بلغ معه السعى أى فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى معه فى أعماله وحاجات المعيشة ، أسلما : أى استسلما وانقادا لأمر الله ، تله : أى كبه على وجهه ، صدقت الرؤيا : أى حققت ما طلب منك ، البلاء المبين . أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره ، بذبح : أى حيوان يذبح ، باركنا عليه : أى أفضنا عليه البركات .

المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن قال سبحانه : فبشرناه بغلام حليم — أتبعه بما يدل على حصول مابشر به و بلوغه سن المراهقة بقوله : فلما بلغ معه السعى ، إذ هو لايقدر على الكدّ والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه و إطاعته فى تنفيذ ما أمر به وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح فأوحى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم ، ثم بشره بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق وأنه سيكون من ذريتهما من هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات .

الإيضاح

(فلما بلغ معه السعى قال يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟) أى فلما كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويسعى فى أشغاله وقضاء حوائجه — قال له يا بنىّ إنى رأيت فى المنام أنى أذبحك ، فما رأيك ؟ وقد قص عليه ذلك ليعلم

ما عنده فيما نزل من بلاء الله ، فيثبّت قدمه إن جزع وليوطن نفسه على الذبح ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله .

ثم بين أنه كان سميعا مطيعا منقادا لما طلب منه .

(قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى قال يا أبت سميعاً دعوتَ ، ومن مجيب طلبتَ وإلى راض ببلاء الله وقضائه توجهتَ ، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به ، وما عليّ إلا الانقياد وامتثال الأمر ، وعلى الله المثوبة ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ولما خاطبه بقوله يا بنى على سبيل الترحم ، أجابه بقوله يا أبت على سبيل التوقير والتعظيم ، وفوض الأمر إليه حيث استشاره ، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه .

ثم أكد امتثاله للأمر بقوله :

(ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) أى سأصبر على القضاء ، وأحتمل هذه اللأواء ، غير ضجِر ولا بَرِم بما قضى وقدر ، وقد صدق فيما وعد ، وبرّ فى الطاعة لتنفيذ ما طلب منه ، ومن ثم قال سبحانه فى شأنه مادحا له « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » .

ثم ذكر طريق تنفيذ الرؤيا فقال :

(فلما أسلما وتلّه للجبين) أى فلما استسلما وانقادا لأمر الله وفوّضا إليه سبحانه الأمر فى قضائه وقدره ، وأكبّ إبراهيم ابنه على وجهه بإشارة منه حتى لا يرى وجهه فيشفق عليه . وروى عن مجاهد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، عسى أن ترحمنى فلا تجهز عليّ ، اربط يديّ إلى رقبتى ، ثم ضع وجهى للأرض ، ففعل .

(وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدّقت الرؤيا) أى ناداه من خلفه ملَك من قِبله تعالى : أن قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ، فقد بان امتثالك للأمر ، وصبرك على القضاء ، وحينئذ استبشرا وشكرا الله على ما أنعم به عليهما من

دفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله ، مع إظهار فضلهما ، و إحراز المثوبة من ربهما .

ثم علل رفعه لذلك البلاء و إزالته لتلك الغمة بقوله :

(إنا كذلك نجزى المحسنين) أى إنا كما عفونا عن ذبحه لولده ، بعد استبانة إخلاصه فى عمله ، حين أعد العُدة ولم تتغلب عليه عاطفة البنوة ، فرضى بتنفيذ القضاء منقادا صاغرا — كذلك نجزى كل محسن على طاعته ، ونوفيه من الجزاء ماهو له أهل ، و بمثله جدير .

ثم ذكر عظيم صبره على امتثال أمر ربه مع ما فيه من كبير المشقة فى مجرى العادة فقال :

(إن هذا لهو البلاء المبين) أى إن هذا الذى كان لهو محنة أيما محنة ، واختبار لعباده لايعدله اختبار، ولله عز اسمه أن يبتلى من شاء من عباده بما شاء من التكاليف وهو الفعال لما يريد ، لا رادّ لقضائه ولا مانع لقدره ، وكثير من التكاليف قد تخفى علينا أسرارها وحكمها ، وهو العليم بها و بما لأجله شرعها .

(وفديناه بذبح عظيم) أى وفديناه بوَعْلٍ أهبط عليه من جبل ثَبير قاله الحسن البصرى ، ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب ، ومكان نزوله لايهم فى بيان هذه المنة التى امتنّ بها عليه .

ثم ذكر أنه مَنّ عليه بمنة أخرى فقال :

(وتركنا عليه فى الآخرين) أى وأبقينا له ذكرا حسنا بين الناس فى الدنيا فصار محبَّبا بين الناس جميعا من كل ملة ومذهب ، فاليهود يجلّونه ، والنصارى يعظمونه ، والمسلمون يبجلونه ، والمشركون يحترمونه ، ويقولون إنا على ملة إبراهيم أبينا ، وذلك استجابة لدعوته حين قال : « وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » .

ثم ذكر أنه منّ عليه بمنة ثالثة فقال :

(سلام على إبراهيم) أى وقلنا له : عليك السلام فى الملائكة والإنس والجن.

ثم أعقب ذلك بنعمة رابعة وهى نعمة الولد فقال :

(وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) أى وآتيناه إسحاق ومننّا عليه بنعمة النبوة له والكثير من حفدته كفاء امتثاله أمرنا وصبره على بلوانا .

(وباركنا عليه وعلى إسحاق) أى وأفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة ، فكثرنا نسلهما وجعلنا منه أنبياء ورسلا ، وطلبنا من المسلمين فى صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين .

(ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) أى ومن ذريتهما من أحسن فى عمله فآمن بربه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه ، ومن ظلم نفسه ودساها بالكفر والفسوق والمعاصى .

وفى ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال ، وأن الظلم فى الأعقاب لايعود إلى الأصول بنقيصة ، ولا عيب عليهم فى شىء منه كما قال : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

من الذبيح ؟ أإسحاق أم إسماعيل ؟

ليس فى هذه المسألة دليل قاطع من سنة صحيحة ولا خبر متواتر ، بل روايات منقولة عن بعض أهل الكتاب وعن جماعة من الصحابة والتابعين ، ومن ثم حدث الخلاف فيها .

١ — فمن قائل إنه إسحاق ، ويؤيده :

(١) ما روى عن يوسف عليه السلام أنه قال لفرعون مصر فى وجهه : أترغب

عن أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

(ب) ما روى عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال ابن مسعود : ذاك يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

(ح) ما حكاه البغوى عن عمر وعلىّ وابن مسعود والعباس أنه إسحاق .

ولكعب الأحبار ضَلْع فى هذه الأخبار وأمثالها التى تلقاها المسلمون عنه ، وكان يحدّث بها عن الكتب القديمة وهى جامعة بين الغثّ والسمين ثقة بأن عمر رضى الله عنه قد استمع منه ، ومن ثم احتاج الثقات إلى تمحيصها وعزل جيدها من بهرجها وصحيحها من سقيمها .

٢ — ومن قائل إنه إسماعيل وهو الذى يساوقه صحيح النظر ونصوص القرآن ويؤيده .

ا — رواية ذلك عن ابن عباس فقد روى عطاء بن أبى رباح عنه أنه قال : المُفْدَى هو إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .

(ب) روى مجاهد عن ابن عمر أنه قال : الذبيح إسماعيل .

(ح) أن ابن إسحاق قال : سمعت محمد بن كعب القرظى يقول : إن الذى أمر الله بذبحه من ابنيه هو إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فإنه بعد أن فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال: «وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» وقال : «فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» فلم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد ما وعده ، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل — قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا .

وعلى الجملة فظاهر نظم الآية والروايات التى يروونها يؤيد أنه إسماعيل ، ولكن اليهود حسدوا العرب على أن يكون أباهم هو الذى كان من أمر الله فيه ما كان

ومن الفضل الذى ذكره الله له لصبره لما أمر به ، فجحدوا ذلك وزعموا أنه إسحاق لأنه أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرا مطيعا لربه .

قصص موسى وهارون عليهما السلام

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) .

الإيضاح

(ولقد مننا على موسى وهارون) أى ولقد أنعمنا عليهما بالخير الكثير ، فآتيناهما النبوة ونصرناهما على أعدائهما من قبط مصر وملكناهما أرضهم وأغرقنا من كان مستذلهما إلى نحو ذلك .

ثم فصل هذه النعم فقال :

(١) (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) أى ونجيناهما ومن آمن معهما من الكرب العظيم الذى كانوا فيه بإساءة فرعون وقومه إليهم من قتل الأبناء ، واستحياء النساء ، واستعمالهم فى أخس المهن والصناعات ، ومعاملتهم معاملة العبيد والأرقاء إلى ضروب أخرى من المهانة والمذلة التى لولا إلفهم بها لكانت كافية فى انقراضهم ، ولكنهم شعب لايأبى الخضوع ولا الاستكانة متى وجد فى ذلك السبيل لجمع المال وحيازته والتمتع بلذات الحياة الدنيا .

(٢) (ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) أى ونصرناهم على أعدائهم فغلبوهم وملكوا أرضهم وأموالهم وما كانوا قد جمعوه طوال حياتهم فكانوا أصحاب الصَّوْلة والسلطان والدولة والرفعة .

(٣) (وآتيناهما الكتاب المستبين) أى وأعطيناهما الكتاب الجلىّ الواضح الجامع لما يحتاج إليه البشر فى مصالح الدين والدنيا ، وهو التوراة كما قال: « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وقال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ » .

(٤) (وهديناهما الصراط المستقيم) أى ودللناهما على طريق الحق بالعقل والنقل وأمددناهما بالتوفيق والعصمة .

(٥) (وتركنا عليهما فى الآخرين) أى وأبقينا لهما الذكر الحسن والثناء الجميل فيمن بعدهم ، وهذا ما تصبو إليه النفوس قال شاعرهم :

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال : الذكر للإنسان عمر ثان .

(٦) (سلام على موسى وهرون) أى وجعلنا الملائكة والإنس والجن يسلمون عليهما أبد الدهر، ولا شىء أدعى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال كما ورد فى الحديث « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

ثم ذكر سبب هذه النعم فقال :

(إنا كذلك نجزى المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين) الكلام فى هذا نظير ما سلف من قبل .

قصص إلياس عليه السلام

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) .

الإيضاح

(وإن إلياس لمن المرسلين) قال ابن جرير هو إلياس بن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هرون أخى موسى عليهما السلام ، فهو إسرائيلى من سبط هرون .

(إذ قال لقومه ألا تتقون؟) أى أنذر قومه وحذرهم بأس الله فقال : ألا تخافون الله فتمتثلوا أوامره وتتركوا نواهيه ؟

ثم ذكر سبب الخوف فقال :

(أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين) بعل : اسم صنم ؛ أى أتعبدون هذا الصنم وتتركون عبادة من خلقكم وخلق آباءكم السابقين وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه .

ثم بين أن قومه كذبوه واستمروا فى غوايتهم فقال :

(فكذبوه فإنهم لمحضرون) أى فكذبوه فيما تضمنه كلامه من وجوب توحيد الخالق وتحريم الإشراك به وعقابه تعالى عليه ، فهم لأجل ذلك يحضرون يوم القيامة للعذاب ويجازون على سوء أفعالهم وأقوالهم .

ثم أخرج من بينهم جماعة لم يكذّبوا فلم يلحقهم هذا العذاب والهوان فقال :

(إلا عباد الله المخلصين) أى إلا قوما منهم أخلصوا العمل لله وأنابوا إليه فأولئك يجزون الجزاء الأوفى على ما أسلفوا من عمل صالح ، وقدّموا من ذخر طيب .

(وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) الكلام فيه كما تقدم فيما قبله سوى أن إلياسين لغة فى إلياس وكثيرا ما يتصرفون فى الأسماء غير العربية .

قصص لوط عليه السلام

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) .

الإيضاح

(وإن لوطا لمن المرسلين) أى وإنا أرسلنا لوطا إلى قومه أهل سذوم ، وكانوا قد أتوا من المنكرات والفواحش ما لم يأته أحد من العالمين فنصحهم فلم ينتصحوا فأهلكهم الله ونجاه هو وقومه كما قال :

(إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين) أى فنجيناه هو وأهله من بين أظهرهم إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها وجعلنا محلتهم من الأرض بحيرة ذات ماء ردىء الطعم منتن الريح .

(ثم دمرنا الآخرين) أى ثم أهلكنا عدا من ذكرنا .

ثم أرشد مشركى مكة إلى النظر والاعتبار بما حل بهم وبأمثالهم من المكذبين فقال :

(وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل) أى وإنكم لتمرون عليهم وأنتم مسافرون إلى الشام حين الصباح ، أو أول الليل فترون آثار ديارهم التى عفت وأضحت خرابا يبابا ، لا أنيس فيها ، ولا جليس ، ولا ديار ولا نافخ نار .

(أفلا تعقلون ؟) أى أتشاهدون هذا فلا تعتبروا ولا تخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ؟ فإن ما حل بهم من البلاء إنما كان لمخالفة رسولهم كما تفعلون .

قصص يونس عليه السلام

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) .

شرح المفردات

أصل الإباق : هرب العبد من سيده ؛ والمراد هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ، المشحون : المملوء ، فساهم : أى فقارع من فى الفلك ؛ أى عمل قرعة ، المدحضين : أى المغلوبين بالقرعة ، فالتقمه : أى فابتلعه ، مليم : أى آت ما يستحق عليه اللوم ، بالعراء : أى بالمكان الخالى ، يقطين : أى دُبَّاء (القرع العسلى المعروف الآن) وقيل : الموز ؛ وهو أظهر لأن أوراقه أعرض .

الإيضاح

(وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين) أى وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نِينوَى بالموصل ، حين هرب إلى الفلك المملوء بغير إذن ربه، فقارع أهل الفلك فكان من المغلوبين فى القرعة وقد رووا فى إباقه الرواية الآتية :

إنه لما أوعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالهجرة ، فركب سفينة فوقفت فقالوا هاهنا عبد آبق من سيده ، وكان الملاحون يزعمون أن السفينة إذا كان فيها آبق لاتجرى ، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه ، فقال أنا الآبق وألقى نفسه فى الماء .

(فالتقمه الحوت وهو مليم) أى فالتقمه الحوت وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه ، وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

ثم ذكر أنه أنجاه لما كان له من عمل صالح فقال :

(فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) أى فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرا والمسبحين بحمده طوال عمره ، للبث ميتا فى بطنه إلى يوم البعث إذ كان يُهضم كبقية أنواع الطعام ويتحول إلى غذاء له كسائر أنواع الأغذية التى يأكلها .

(فنبذناه بالعراء وهو سقيم) أى فجعلنا الحوت يلقيه فى مكان خال لانبات فيه ولاشجر ، وهوعليل الجسم سقيم النفس ، لما لحقه من الغم مما حدث من قومه معه ، إذ أعرضوا عن دعوته ولم يصدقوه فيما جاء به ، وقد كان يرجو لهم الخير والسعادة فى دنياهم وآخرتهم ولما وجد من شدة وجهد فى ابتلاع الحوت له .

ثم بين لطفه به ورعايته له حتى لايتعرض لحر الشمس ولا لزمهرير البرد فقال :

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) أى فأنبتنا حواليه شجرة موز يتغطى بورقها ، ويستظل بأغصانها ، فتقيه لفح الشمس ووهجها و برد الصحراء وشديد صِرّها ، وكذلك يأكل من ثمارها ، فتغنيه عن طلب الغذاء من أى جهة أخرى .

ثم ذكر أنه لما شفى من سقمه ونجا من الهلاك ورضى ربه عنه عاد إلى قومه ليتم دعوته و يبلغ رسالته كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين) أى فأرسلناه مرة أخرى إلى هؤلاء القوم وقد كانوا مائة ألف بل يزيدون ، فاستقامت حالهم وآمنوا به لأنه بعد أن خرج من بين أظهرهم رأوا أنهم قد أخطئوا وأنهم إذا لم يتبعوا رسولهم هلكوا كما حدث لمن قبلهم من الأمم ، فلما عاد إليهم ودعاهم إلى ربه لبّوا الدعوة طائعين منقادين لأمر الله ونهيه ، فمتعناهم فى هذه الحياة حتى انقضت آجالهم وهلكوا فيمن هلك .

تذنيب

ها هنا مسألتان :

(١) إن القرآن الكريم لم يبين لنا ممّ أبق ؟ ولو كان فى بيانه فائدة لذكرها .

(٢) إنه لم يذكر مدة لبثه فى بطن الحوت ، وتعيين زمن معين يحتاج إلى نقل صحيح ولم يؤثر ذلك ، وأيا كان فبقاؤه حيا فى بطن الحوت مدة قليلة أو كثيرة معجزة لذلك النبى الكريم .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَالَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)
فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ
نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) .

المعنى الجملى

أمر الله رسوله فى صدر هذه السورة بتبكيت قريش وتوبيخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة وتظاهرها على وجوده ، ثم ساق الكثير منها مما لايمكن رده ولا جحده ، ثم أعقبه بذكر ماسيلقونه من العذاب حينئذ ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين و بين ما يلقونه من النعيم ، ثم عطف على هذا أنه قد ضل قبلهم أكثر الأولين وأنه أرسل إليهم منذرين ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء تفصيلا متضمنا وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل .

وهنا أمره بالتنديد عليهم ثانيا بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائرة التى عملوها وهى جعل البنات لله وجعل البنين لأنفسهم بقولهم : الملائكة بنات الله ، ثم بالتقريع ثالثا على استهانتهم بالملائكة بجعلهم إناثا ، ثم أبطل كلا من هذين بالحجة التى لايجد العاقل محيصا من التصديق بها والإذعان لها .

الإيضاح

(فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟) أى سل قريشا مؤنبا لها ومقرّعا على ضعف أحلامها وسفاهة عقولها ، ألربى البنات ولكم البنون ؟ فمن أين جاءكم هذا التقسيم ، وإلام تستندون ؟ وإنكم لتكرهون البنات وتبغضونها أشد البغض كما جاء فى قوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » ،

ونحو الآية قوله فى سورة النجم : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى قسمة جائرة .

(أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون؟) أى بل أخلقنا الملائكة إناثا وقد شهدتم هذا الخلق ؟

وهذا ترقّ فى التوبيخ لهم على هذه المقالة ، إذ أن ذلك لايعلم إلا بالمشاهدة أو النقل ، ولا سبيل إلى معرفته بالعقل ، حتى يقوم الدليل والبرهان على صحته ، والنقل الصحيح الذى يؤيد ما تدّعون لايوجد ، فلم تبق إلا المشاهدة ، وهذه لم تحصل، ونحو الآية قوله: « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

ثم بين فساد منشأ هذه العقيدة الزائفة فقال :

(ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله) أى وما جرأهم على هذا القول الهُراء والرأى الخطل إلا اعتقادهم الباطل أن لله ولدا ، وهو افتراء قبيح وإفك صريح ، لامستند له ، ولا شبهة ترشد إلى صدقه .

ثم أكد هذا النفى بقوله :

(وإنهم لكاذبون) فيما يقولون ، ولا أثَرة لهم من علم يصدق ما يعتقدون ، فمن أين جاءهم هذا ؟

ثم نقض الدعوى من أساسها مبينا أن العقل لايتقبلها فقال :

(أصطفى البنات على البنين ؟) أى أىّ شىء يحمله على أن يختار البنات ويترك البنين ؟ والعرف والعادة والمنطق السليم شاهد صدق على غير هذا .

ونحو الآية قوله : « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا » .

(مالكم كيف تحكمون ؟) أى أمَا لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ، وتتفكرون فى صحة ما تعتقدون ؟ فالعقل يقضى ببطلان مثل هذا .

(أفلا تذكرون ؟) فتعرفوا خطأ ما تعتقدون ، وترجعوا على أنفسكم باللائمة فيما تقولون .

ثم زاد فى تأنيبهم وتقريعهم وطالبهم ببرهان من النقل يؤيد صحة مايدعون فقال :

(أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) أى بل ألكم حجة واضحة على هذا نزل بها وحى ؟ إن كان الأمر هكذا فأرونى كتابكم الذى يؤيد ما تقولون إن كنتم صادقين .

ولا يخفى ما فى هذه الآيات من الدلالة على السخط العظيم ، والإنكار الشديد لأقاويلهم ، وتسفيه أحلامهم ، مع الاستهزاء بهم ، والتعجب من جهلهم .

ثم ذكر أن هذه العقيدة ستؤدى بهم إلى ما لا ينبغى أن يقال فقال :

(وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا) المراد بالجنة الملائكة ، وسموا جنًّا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون ، أى وجعلوا بينه و بين الملائكة مشاكلة ومناسبة ، فقالوا الملائكة بنات الله .

ثم ذكر أنهم سيندمون على مقالتهم هذه فقال :

(ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أى ولقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون أن بينه تعالى و بينهم نسبا — أن هؤلاء المشركين محضرون إلى النار ومعذبون فيها لكذبهم وافترائهم فى قيلهم هذا .

قال مجاهد ومقاتل : القائل ذلك هم كنانة وخزاعة ، قالوا إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن ، وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جعلوه . وقال الكلبى وقتادة : قالت اليهود ـ لعنهم الله ـ : إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم .

والخلاصة — إن هؤلاء سيعذبون فى النار على تقوّلهم على الله بغير علم بإثبات البنات له دون أن يكون هناك نص على ذلك.

ثم نزه سبحانه نفسه عن كل ما لا يليق به من هذه النقائص فقال :

(سبحان الله عما يصفون) أى تقدس ربنا عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون علوّا كبيرا .

(إلا عباد الله المخلصين) أى ولكن المخلصين المتبعين للحق المنزّل على الرسل ناجون فلا يحضرون إلى النار ولا يعذبون .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) .

شرح المفردات

بفاتنين : أى بمضلين من قولهم فتن فلان على فلان امرأته إذا أفسدها عليه ، صال الجحيم : أى داخل فى النار ومعذب فيها ، الصافون : أى صافو أنفسهم للعبادة ، ذكرا : أى كتابا .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فساد آراء المشركين ومذاهبهم — أتبع ذلك بما نبه به إلى أن هؤلاء المشركين لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان مستعدا له ،

وقد سبق فى حكم الله أنه من أهل النار وأنه لامحالة واقع فيها ، ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيها إلى فساد قول من ادعى أنهم أولاد الله .

الإيضاح

(فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صالى الجحيم) أى فإنكم أيها المشركون مع معبوديكم من الأوثان والأصنام لايتسهل لكم أن تفتنوا إلا من هو ضالّ مثلكم ، ومن كتب له أنه من أصحاب النار فهو لامحالة يكبكب فيها ، قال لبيد بن ربيعة فأحسن :

أحمد الله فلا ندّ له بيديه الخيرُ ما شاء فعلْ
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلْ

ثم حكى سبحانه اعتراف الملائكة بالعبودية لربهم فقال :

(وما منا إلا له مقام معلوم) أى وإن لكل منا مرتبة لايتجاوزها فى العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى خضوعا لعظمته ، وخشوعا لهيبته ، وتواضعا لجلاله كما روى فى الخبر « فمنهم راكع لايقيم صلبه ، وساجد لايرفع رأسه » .

(وإنا لنحن الصافون) أى وإنا لنقف صفوفا فى أداء الطاعات ، ومنازل الكرامات ، لكل منا منزلة لايعدوها ، ومرتبة لايتخطاها . وفى صحيح مسلم عن جابر ابن سُمرة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى المسجد فقال : ألا تُصفون كما تصفّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يا رسول الله كيف تَصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصّون فى الصف » وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا ، إنما يريد الله بكم هدْى الملائكة عند ربها ويقرأ : « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر .

(وإنا لنحن المسبحون) أى وإنا لننزه الله تعالى عما لايليق به ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لأوامره .

ثم حكى عن المشركين مقالتهم قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

(وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين) أي ولقد كانوا يتمنون قبل أن يأتيهم الرسول أن لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ونهيه ويأتيهم بكتاب من عنده ، ليخلصوا له العبادة ويكونوا أهدى سبيلا ممن سبقهم من أهل الكتب السالفة من اليهود والنصارى .

ثم بين أنهم كانوا كاذبين وأن حالهم بعد مجيئه كانت على غير ما قالوا فقال :

(فكفروا به فسوف يعلمون) أى ثم بعد أن جاءهم الذكر والكتاب المهيمن على كل الكتب أعرضوا عنه وكفروا به ، وأنهم سوف يعلمون عاقبة عنادهم وما سيحل بهم من نقمتنا وعذابنا .

ونحو الآية قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، على كفرهم بربهم وتكذيبهم برسوله صلى الله عليه وسلم .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) .

شرح المفردات

كلمتنا : وعدنا ، المنصورون : أى الغالبون فى الحرب وغيرها ، جندنا : أى أتباع رسلنا ، والساحة : المكان الواسع .

المعنى الجملى

لما هدد سبحانه المشركين بقوله : فسوف يعلمون — أردفه بما يقوى قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بوعده بالنصر والتأييد ، كما جاء فى آية أخرى « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

الإيضاح

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . و إن جندنا لهم الغالبون) أى ولقد سبق وعدنا أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، فننصرهم على أعدائهم بقهرهم والنيل منهم بقتلهم أو تشريدهم أو إجلائهم عن الأوطان أو أسرهم أو نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

(فتولّ عنهم حتى حين) أى وأعرض عنهم واصبر على أذاهم وانتظر مدة قليلة وسنجعل لك العاقبة والنصرة والتأييد .

(وأبصرهم فسوف يبصرون) أى انظر وارتقب مايحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، وسوف يبصرون انتشار دينك وإقبال الناس عليه أفواجا زرافات ووحدانا مصداقا لوعده بقوله « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

ثم وبخهم على استعجالهم العذاب حين قالوا يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به وعجله لنا فنزل .

(أفبعذابنا يستعجلون) قبل حلوله ؟ وهم إنما فعلوا ذلك لتكذيبهم به وكفرهم بك ، والله منزله عليهم لامحالة .

(فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) أى فاذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس اليوم يومهم لهلاكهم ودمارهم ، وفى الصحيحين عن أنس قال: «صبّح رسول الله خيبر فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ـ الجيش ـ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، خربت خيبر ، إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » رواه البخارى .

قال صاحب الكشاف : مثّل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه قوما بعضُ نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم اهـ

ثم أكد ماسبق من وقوع الميعاد غِبّ توكيد مع مافيه من تسلية لرسوله إثر تسلية فقال :

(وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون) أى وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين وخلّهم وفريتهم على ربهم إلى أن يأذن بهلاكهم ، وانظر إليهم فسوف يرون مايحل بهم من عقابنا حين لا تنفعهم التوبة .

ثم ختم سبحانه السورة بخاتمة شريفة جامعة لتنزيهه سبحانه وتعالى عما لايليق به مع وصف نفسه بصفات الكمال ومدحه للرسل الكرام فقال :

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) أى تنزيها لربك أيها الرسول رب القوة والغلبة عما يصفه به هؤلاء المفترون من مشركى قريش من نحو قولهم : ولد الله . وقولهم : الملائكة بنات الله . وأمنة من الله

للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم — من العذاب الأكبر ومن أن ينالهم مكروه من قبله تعالى ، والحمد لله رب الثقلين الجن والإنس خالصا له دون سواه ، لأن كل نعمة لعباده فهى منه .

وهذا تعليم من الله للمؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يغفلوا عنه ، روى البغوى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

وعن أبى سعيد الخدرى قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول فى آخر صلاته أو حين ينصرف « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

مجمل ما حوته السورة من موضوعات

(١) التوحيد ودليله فى الآفاق والأنفس .

(٢) خلق السموات والأرض ووصفه سبحانه لذلك .

(٣) إنكار المشركين للبعث وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار وهم يطلعون عليهم .

(٤) وصف الجنة ونعيمها .

(٥) قصص بعض الأ[illegible] كنوح وابراهيم وإسماعيل .

(٦) دفع فرية قالها [illegible]ون وتوبيخهم عليها إذ قالوا : الملائكة بنات الله .

(٧) تنزيه الله عن ذلك .

(٨) بيان أن المشركين لايفتنون إلا ذوى الأحلام الضعيفة المستعدة للإضلال

(٩) وصف الملائكة بأنهم صافون مسبحون .

(١٠) مدح المرسلين وسلام الله عليهم .

(١١) حمد الله وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ورب الخلق أجمعين .

سورة ص

هى مكية ، نزلت بعد سورة القمر ، وعدة آيها ثمان وثمانون

ومناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالمتممة لها من وجهين :

(١) إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء مالم يذكر فى تلك كداود وسليمان .

(٢) إنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين؛ وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم — بدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذى الذكر وفصل ما أجمله هناك من كفرهم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا
أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ
الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ
امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ
الْأَحْزَابِ (١١) .

شرح المفردات

الذكر: الشرف كما قال «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» الذين كفروا هم رؤساء قريش، فى عزة: أى فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه؛ والعزة أيضا الغلبة والقهر كما قالوا فى أمثالهم: من «عزبز» أى: من غلب سلب، شقاق أى مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم: فلان فى شق غير شق صاحبه، فنادوا أى استغاثوا، لات: أى ليس الحين، مناص: أى فرار وهرب، عجاب أى بالغ فى العجب نحو قولهم طويل وطوال أى إنه من نوائب الدهر فلا حيلة لنا إلا الصبر عليه، الملة الآخرة هى ملة النصارى، اختلاق: أى كذب وافتراء، فليرتقوا: أى فليصعدوا، فى الأسباب: أى فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش، قاله مجاهد وقتادة. ومنه قول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه		وإن يرق أسباب السماء بسُلَّمِ

جند ما: أى جند كثير عظيم كقولهم «لأمر ماجدع قصير أنفه»، مهزوم أى مغلوب، الأحزاب: أى المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكته وإبطال دينه.

الإيضاح

(صٓ) تقدم الكلام فى مثل هذا مرارا وقلنا إن هذه حروف يراد بها تنبيه المخاطب للإصغاء إلى مايراد بعده من الكلام لأهميته نحو ألا، ويا وينطق بأسمائها فيقال (صاد) بالسكون.

(والقرآن ذى الذكر) أى أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز وإن محمدا لصادق فيما يدّعيه من النبوة وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر، وان كتابه لمنزل من عنده:

ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال:

(بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) أى إنهم ما كفروا به لأنهم لم يجدوا فيه

مايصلح حالهم فى دينهم ولا دنياهم ، بل كذبوا به لاستكبارهم عن اتباع الحق ومشاقتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على مخالفته .

ثم حذرهم وخوّفهم ماأهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم فقال :

(كم أهلكنامن قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) أى وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، فقد فات الأوان وحل البأس ، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب .

ونحو الآية قوله : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ » وقوله « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ » وقوله « فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ » .

(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أى وما كان أشد تعجبهم حين جاءهم بشر مثلهم يدعى النبوة ويدعو إلى الله وليس له من الصفات الباطنة والظاهرة فى زعمهم مايجعله يمتاز عنهم ويختص بهذا المنصب وتلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم قالوا ماهو إلا خداع كذاب فيما ينسبه إلى الله من الأوامر والنواهى.

ثم ذكر شبهتهم فى إثبات كذبه من وجوه ثلاثة :

(١) (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب) أى أزعم أن المعبود إله واحد لاإله إلا هو ؟ وقد أنكروا ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، من أجل أنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم إلى محو ذلك من قلوبهم و إفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا منه وقالوا إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لايعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين ويكون محمد وحده محقاصادقا ـ ولاشك أن هذا استبعاد فقط ولا مستند له من عقل ولا نقل .

ونحو الآية قوله « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: « لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا :

إن ابن أخيك يشتم آلهتنا و يفعل و يفعل و يقول و يقول ، فلو بعثت إليه فنهيته فبعث أبو طالب إليه فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل واحد ؛ قال فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ عليه ، فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أى ابن أخى — مالقومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله فقال يا عم : إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففرحوا لكلمته ولقوله فقال القوم ما هى وأبيك ، لنعطينكها وعشرا ، قال صلى الله عليه وسلم (لا إله إلا الله) فقاموا فزعين ينفضون أثوابهم و يقولون : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » فنزل من هذا الموضع إلى قوله : « بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ » .

(وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) أى وانطلق أشراف قريش من مجلس أبى طالب بعد ما بكّتهم رسول الله وشاهدوا تصلبه فى الدين ويئسوا مما كانوا يرجون منه بوساطة عمه، يتحاورون بما جرى و يقلّبون وجوه الرأى فيما يفعلون و يقولون: اثبتوا على عبادتها محتملين القدح فيها والغضّ من شأنها والاستهزاء بأمرها .

ثم عللوا الأمر بالصبر بما شاهدوه من تصلبه عليه السلام فقالوا :

(إن هذا لشىء يراد) أى إن هـذا لأمر عظيم يريد محمد إمضاءه وتنفيذه لامحالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لاقول يقال من طرف اللسان ،

أو يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم .

ثم ذكروا أيضا ما ظنوا أن فيه إبطالا لدعواه فقالوا :

(٢) (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) أى ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة وهى ملة النصارى ، فإنهم يقولون بالتثليث ويزعمون أنه الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه ، وإنما خصوا النصرانية لأنها آخر الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هذا إلا اختلاق) أى ما هذا إلا افتراء وكذب لاحقيقة له ، وليس له مستند من دين سماوى ولا من عقل فيما يزعمون .

ثم أخذوا ينكرون اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى وهو مثلهم أو أدون منهم فى الشرف والرياسة فيما يزعمون فقالوا :

(٣) (أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟) أى إنه من البعيد أن يختص محمد من بيننا بإنزال القرآن عليه وفينا ذو الجاه والشرف ، والرياسة والكياسة كما حكى الله عنهم أن قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » ثم نعى عليهم تعرضهم لهذا التفضيل وإعطاء النبوة لمن يريدون فقال : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » فهذا منهم دليل على الجهل وقلة العظة .

ثم ذكر أن سبب الاستبعاد هو الشك فى أمر القرآن وميلهم إلى التقليد فقال :

(بل هم فى شك من ذكرى) أى بل هم فى شك من تلك الدلائل التى لو تأملوا فيها لزال هذا الشك عنهم ، إذ هى دالة بأنفسها على صحة نبوته ، ولكنهم حين تركوا النظر والاستدلال لم يصلوا إلى الحق فى أمره .

ثم ذكر أن سبب هذا الشك هو الحسد لمجىء النبوة له من بينهم فقال :

(بل لما يذوقوا عذاب) أى إنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك حينئذ .

والخلاصة — إنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب فيضطروا حينئذ إلى التصديق بذكرى .

ثم أنكر عليهم استبعاد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم نبوة غيره من صناديد قريش فقال :

(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) أى بل أيملكون خزائن رحمة الله القهار لخلقه ، الكثير المواهب لهم ، المصيب بها مواقعها — فيتصرفوا فيها على حسب ما يريدون ، ويمنحوها من شاءوا ، ويصرفوها عمن لا يحبون ، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ؟

والخلاصة — إن أمر النبوة ليس بأيديهم بل بيد الله العليم بكل شىء « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » .

ثم ارتقى إلى ما هو أشد فى الإنكار ، فأمرهم أمر تهكم بارتقاء الأسباب فقال :

(أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب) أى بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية والأجرام السفلية حتى يتكلموا فى الشئون الغيبية ويفكروا فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء ؟ فإن كان الأمر كما يزعمون فليصعدوا فى المعارج ويتوصلوا إلى السموات ، وليدبروا شئونها حتى يظن صدق دعواهم ، إذ لا سبيل إلى التصرف فيها إلا بذلك .

والخلاصة — إنه ليس لهم شىء من ذلك ، فلا سبيل لهم إلى توزيع رحمة الله

على حسب ما يريدون ، وإعطاء النبوة لمن يشاءون ، فذلك من شئونه تعالى فهو الذى يفضل من يشاء من عباده على من يشاء .

ثم وعد سبحانه نبيه بالنصر والغلبة عليهم فقال :

(جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) أى هؤلاء الذين يقولون هذه المقالة ، ويوزعون رحمة ربك على حسب أهوائهم — جند كثير من الكفار المتحزبين على المؤمنين — مغلوبون فى الوقائع التى ستكون بينك وبينهم ، وستنتصر عليهم كما حدث فى بدر وغيرها ، فأنى لهم تدبير الأمور الغيبية ، والتصرف فى الخزائن الربانية .

وهذا خبر من الله لنبيه وهو بمكة ولم يكن له يومئذ جند — أنه سيهزم جند المشركين ، فجاء تأويله يوم بدر وغيره من المواقع — وهذا من أعظم المعجزات وأدل الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق كتابه وأنه من عند الله لا من عند البشر .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنهم إنما توانوا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال لأنهم لم ينزل بهم العذاب — بين فى هذه الآيات أن أقوام الأنبياء الماضين كانوا كذلك حتى حاق بهم سوء العذاب .

وفى هذا تخويف لأولئك الكافرين الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات ستة أقوام من الذين كذبوا رسلهم وما آل إليه أمرهم لتكون ذكرى لأولئك المكذبين من قومه ، فيرعووا عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

(١) (كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قوم نوح رسولهم وقالوا إنه مجنون وهزءوا به ، وكلما ألحف فى الدعوة زادوا عتوًّا وعنادا ، فدعا ربه وقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » ولما أصرّوا على تكذيبهم وعنادهم أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، ونجى الله نوحا ومن آمن معه كما قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ » .

(٢) (وعاد) وهم قوم هود وقد كذبوه فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية كما قال فى سورة الحاقة : « فَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(٣) (وفرعون ذو الأوتاد) وقد بعث الله إليه موسى وأيده بآياته التسع فأصرّ على الجحود والعناد وبغى وتجبر وقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر وأغرقه وقومه ونجى موسى وقومه بنى إسرائيل كما قال فى سورة يونس : « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » .

و ذو الأوتاد : أى ذو الملك الثابت ، وأصله للبيت المطنب بأوتاد وهو لا يثبت بدونها ، ثم استعمل فى إثبات العز والملك كما قال الأسود بن يَعْفُر :

وَلَقَدْ غَنُوا فيها بأنْعَمِ عِيشَةٍ فى ظل مُلْكٍ ثابت الأوتادِ

(٤) (وثمود) وقد جاء ذكرهم فى عدة سور أرسل الله إليهم صالحا وكانت الناقة له آية فكذبوه فعقروها فأرسل عليهم صاعقة فأهلكتهم وجعلتهم كهشيم المحتظر كما جاء فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ - إلى أن قال - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » .

(٥) (وقوم لوط) وقد سبق ذكر قصصهم فى عدة سور من الكتاب الكريم وذكر ما حل بهم من العذاب ؛ فمنها قوله فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » .

(٦) (وأصحاب الأيكة) والأيكة : الشجر الملتف بعضه على بعض، وهم قوم شعيب ؛ وقد ذكر الله قصصهم فى كثير من السور، فمنها ما جاء فى سورة الحجر : « وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » .

(أولئك الأحزاب) أى هؤلاء الذين تحزبوا على الرسل ، وهم كالأحزاب الذين تحزبوا عليك .

ثم بين سبب انهزامهم وعقابهم فقال :

(إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) أى إن كل هذه الأمم الخالية والقرون الغابرة ، وقد كانوا أشد منهم قوة كذبوا أنبياءهم فحل بهم العذاب ، فكيف بهؤلاء الضعفاء إذا نزل بهم ما لا قبل لهم به من عذابى .

ثم بين عقاب كفار قريش إثر بيان عقاب أضرابهم فقال :

(ومايننظر هؤلاء إلاصيحة واحدة مالها من فواق) ينظر؛ أى ينتظر كقوله تعالى: « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » وهؤلاء أى كفار مكة ، والفواق : الزمن الذى بين الحلبتين ، والصيحة : النفخة الثانية التى بها تقوم الساعة أى ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا تلك النفخة — بلا توقف مقدار فواق .

والخلاصة — إذا حل هذا الميقات لايتأخرون عنه أبدا .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ(١٦) اصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ

شرح المفردات

القط : النصيب والحظ والكتاب بالجوائز والجمع القطوط ، قال الأعشى يمدح النعمان بن المنذر :

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لقيتُهُ بِغِبْطَتِهِ يُعْطِى القُطُوطَ وَيأفِقُ

ويأفق : أى يصلح .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن القوم إنما تعجبوا لشبهات تتعلق بالتوحيد والنبوات والمعاد ، فأشاروا إلى الأولى بقولهم : أَجَعَلَ الآلهةَ إلٰهًا وَاحِدًا ، وإلى الثانية بقولهم : أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، وهنا أشار إلى الثالثة بقوله : وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا سخرية وتهكما حين سمعوا بالمعاد ، وأن هناك دارا أخرى يحاسبون فيها ويجازون على ما يعملون ، ثم أمر رسوله بالصبر على أذى المشركين وعلى كل مايقولون فى شأنه من أنه شاعر وأنه مفتر كذاب .

الإيضاح

(وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) أى وقالوا استهزاء وسخرية حين سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة — ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة .

وقائل ذلك على ما روى عن عطاء النضرُ بن الحرث بن علقمة بن كَلَدة وهو الذى قال فيه الله تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » أو أبو جهل على ما روى عن قتادة ، ورضى بهذه المقالة الباقون ، ومن ثم أسندها إليهم جميعا .

ولما بلغ الكفار فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا إنه ساحر كذاب ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا - أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال :

(اصبر على ما يقولون) أى اصبر على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره ، فإنا ممتحنوك بالمكاره كما امتحنا سائر من أرسلنا من قبلك ، ثم جاعلو الظفر لك على من كذبك وشاقك ، سنتنا فى الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا من قبلك .

قصص داود عليه السلام

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) .

شرح المفردات

الأيد والآد : القوة فى العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، أوّاب : أى رجاع إلى الله وإلى طاعته من قولهم آب. إذا رجع، قال عبيد بن الأبرص :

وكلُّ ذى غيبةٍ يؤوب	وغائبُ الموت لا يؤوبُ

والإشراق : أى وقت الإشراق؛ يقال أشرقت الشمس أضاءت ، وشرقت : طلعت ، محشورة : أى محبوسة فى الهواء ، أواب : أى منقاد يسبح تبعا له ، شددنا ملكه : أى قويناه بالهيبة والنصر ، والحكمة هى إصابة الصواب فى القول والعمل ، الفصلُ : الحاجز بين الشيئين ، وفصل الخطاب : الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين — أردف ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاقّ والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى فرّج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم — ترغيبا له فى الصبر وإيذانا ببلوغه ما يريد كما كان ذلك عاقبة من قبله .

الإيضاح

(واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) أى واذكر لقومك قصة عبدنا داود ذى القوة فى الطاعة والفقه فى الدين ، فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر وورد فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى ، وأنه كان أوّابا » أى رجاعا إلى الله تعالى فى جميع شئونه ، فكان كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر الله ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » .

وأخرج البخارى فى تاريخه عن أبى الدرداء قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود وحدّث عنه قال : كان أعبد البشر » .

وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاينبغى لأحد أن يقول إنى أعبد من داود» .

ثم عدد سبحانه نعمه عليه فقال :

(١) (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس وآخر النهار . وتسبيحها معه تقديسها لله بحال تليق بها ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما ، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثرا فى فضيلة ما يقع فيهما من العبادات .

(والطير محشورة) أى وسخرنا له الطير حال كونها محبوسة فى الهواء تسبح بتسبيحه ، فإذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء وسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف ويسبح معه .

وفى هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل والصوت المتقبل الذى يُعجَب له الحيوان الأعجم فما بالك بالإنسان ؟ .

ثم أكد ما سلف من تسخيرها له فقال :

(كل له أواب) أى كل من الجبال والطير مطيع مرجاع إلى أمره يسبح تبعا له.

(٢) (وشددنا ملكه) أى قوينا ملكه بكثرة الجند و بسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

(٣) (وآتيناه الحكمة) أى وأعطيناه العلم الكامل والإتقان للعمل، فهو لايقدم على عمل إلا إذا عرف موارده ومصادره ، مباديه وغاياته على نحو ما قال الشاعر :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زَلَقاً عن غِرّةٍ زَلَجا

(٤) (وفصل الخطاب) أى وألهمناه حسن الفصل فى الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف ولا ميل مع الهوى ، وهذا يحتاج إلى فضل كبير فى العلم ، ومزيد فى الحلم ، وتفهم أحوال الخصوم ، ورباطة الجأش ، وعظيم الصبر ، والذكن الذى لايتوافر لكثير من الناس .

قضية من قضاياه التى حكم فيها

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥).

شرح المفردات

هل : هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والخصم : جماعة المخاصمين ؛ ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا قال الشاعر :

وخَصْمٌ غِضَابٌ يَنْفُضُونَ لحاهُمُ كنفض البَرَازِين العِرابِ المَخَاليا

وتسوروا : أى أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، والمحراب : الغرفة التى كان يتعبد فيها ويشتغل بطاعة ربه ، والفزع : انقباض ونفار يعترى الإنسان من شىء مخيف ، بغى : أى جار وظلم ، ولا تشطط : أى لا تبعد عن الحق ولا تجر فى الحكومة ، سواء الصراط : أى وسط الطريق ، والنعجة أنثى الضأن ويكنى بها عن المرأة كما قال عنترة :

يا شاةُ ماقنص لمن حلّت له ... حَرُمتْ عليّ وليتها لم تَحْرُمِ

فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبى ... فتجسّسى أخبارها لى واعلم

قالت رأيت من الأعادى غِرّةً ... والشاة ممكنة لمن هو مُرْتَمِ

أكفلنيها : أى ملكنيها؛ وأصل ذلك اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت يدى ، وعزّنى : أى غلبنى ، وفى المثل من عزّ بزّ : أى من غلب سلب ، وقال الشاعر :

قطاة عزّها شركٌ فباتت ... تجاذبه وقد عِلق الجناحُ

فى الخطاب : أى فى مخاطبته إياى ومحاجته ، إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده ، والخلطاء هم المعارف أو الأعوان ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج : واحدهم خليط ، فتناه : أى ابتليناه ، خر : أى سقط ، راكعا : أى ساجدا ؛ وقد يعبر بالركوع عن السجود قال الشاعر :

فخرّ على وجهه راكعاً ... وتاب إلى الله من كل ذنب

وأناب : أى رجع إلى ربه ، والزلفى : القرب من الله ، والمآب : المرجع .

المعنى الجملى

بعد أن مدح سبحانه داود وأثنى عليه بما سلف — أردف ذلك بذكر نبأ عجيب من أنبائه مشوّقا إليه السامع ومعجّبا له .

الإيضاح

(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) أى هل علمت ذلك النبأ العجيب ، نبأ الجماعة الذين تسلقوا سور غرفة داود ودخلوا عليه وهو مشتغل بعبادة ربه فى غير وقت جلوسه للحكم ، وحين رآهم

فزع منهم ظنا منه أنهم جاءوا لاغتياله ، إذ كان منفردا فى محرابه للعبادة ، فقالوا له : لا تخف منا ، نحن اثنان جار بعضنا على بعض فاحكم بيننا حكما عادلا ولا تجرُ واهدنا إلى الطريق السوىّ ، ولا تشطط فى الحكومة .

ثم فصلوا موضع الخصومة فقالوا :

(إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) أى إن أخى هذا يملك تسعا وتسعين شاة وأملك شاة واحدة ، فقال ملكنيها وغلبنى فى المحاجة ، فجاء بحجج لم أطق لها ردّا ولا دفعا .

ثم ذكر سبحانه حكم داود فى الواقعة فقال :

(قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أى قال داود بعد أن أقرّ المدّعى عليه بما قال المدّعى : لقد ظلمك بطلبه منك إضافة نعجتك إلى نعاجه .

ثم استطرد إلى بيان أن الظلم من شيمة الإنسان فقال :

(وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) أى وإن كثيرا ممن يتعاملون معا يجور بعضهم على بعض حين التعامل كما قال المتنبى :

والظلمُ من شِيَمِ النفوس فإن تجد ذا عِفَّةٍ فلِعلَّةٍ لا يَظلِمُ

إلا من يخافون ربهم ويؤمنون به ويعملون صالح الأعمال ، فإن نفوسهم تعزف عن الظلم وترعوى خشية من خالقها ، وما أقل هؤلاء عددا ، وأندرهم وجودا كما قال : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » .

ثم ذكر أن داود كان قد ظن أنهما قد جاءا للاغتيال ثم تبين له غير ما كان قد ظن فقال :

(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب) أى وظن داود أن دخولهما عليه فى ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى لأجل أن يغتالوه ،

فلم يقع ما كان قد ظنه فاستغفر ربه من ذلك الظن ؛ إذ لم يقع ما كان قد ظنه نخرّ ساجدا ورجع إلى ربه طالبا منه المغفرة لما فرط منه .

ثم بين أنه أجاب طلبه وغفر له إنه كان غفورا رحيما فقال :

(فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى فغفرنا له ما وقع منه من ذلك الظن ، وإنه لمن المقربين لدينا وله حسن المرجع وهو النعيم فى الجنة .

هذا خلاصة ما رآه أبو حيان فى البحر فى تفسير هذا القصص ، وهو حسن . بَيْد أنا نرى أن ظن داود فى الخصمين وقد دخلا عليه فى مثل هذا الوقت ومن غير الباب لإرادة الاغتيال — ظن له ما يؤيده من الدلائل وشواهد الحال ، فلا يمكن أن يكون هذا الظن إثماً حتى يطلب من ربه المغفرة عليه — إلى أن هذه الخصومة التى ترافعا إليه فيها وطلبا منه الحكومة — ليست من معضلات المشاكل التى يُحتاج فيها إلى حكم داود ، إلى أنه قد كان لهما مندوحة منها بأن ينتظرا إلى اليوم التالى حتى يجلس للقضاء ولا يضيع عليهما حق إذا هما تأخرا يوما آخر ، لأن هذه الواقعة إن كانت على الوضع الذى قالاه ، فليس فيها ما يدعو إلى المبادرة والتقاضى فى غير موعد القضاء والوصول إلى القاضى على تلك الحال المريبة — فلا بد أنهما قد كانا يريدان غرضا آخر أخفياه غير ما كان قد ظهر منهما ، ذلك الغرض هو إرادة الاغتيال ، وما منعهما من تنفيذه إلا يقظة الحراس والخدم والحشم وإحاطته بهما ، فاخترعا سبباً لمجيئهما إليه وهو مجيئهما للاستفتاء فيما خفى عليهما ، ولأجله تسوّرا المحراب ، ومما يرشد إلى هذه النية المبيتة نية الاغتيال أن تهجُّم الناس على البيوت للتقاضى ليس بالمألوف ولا المعروف فى أى عصر ، إلى أن هذه الفتوى لا تحتاج إلى مثل داود ، فهى فتوى جاءت بنت ساعتها لم يفكرا فيها من قبل ، والذى ألجأهما إليها يقظة الحرس وظنهما أنهما هالكان لامحالة إذا لم يذكرا سببا يسوّغ لهما دخول القصر فى ذلك الحين ، ومما يؤيد هذا أن اغتيال الأنبياء كان معروفا فى بنى إسرائيل فقد قتلوا إشعيا وزكريا كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »

وحين علم داود غرضهما وتظاهرت عليه الأدلة همّ أن ينتقم منهما ويجازى السيئة بمثلها « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ولكنه رأى أن مقام النبوة أمثل به الصفح والعفو كما قال : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » ومن ثم استغفر ربه لما كان قد عزم عليه من الانتقام تأديبا لهما ولأمثالهما .

وما جاء فى بعض كتب التفسير أن المراد بالنعاج النساء كما جاء كناية عن ذلك فى كلام العرب كما قال * كنعاج الفلا تعسّفن رملا * فذلك يتوقف على أن كلمة (نعجة) فى اللغة العبرية تستعمل كناية عن المرأة كما هى فى العربية ، وتأباه كلمة (الخلطاء) وكذلك ما يقال من أن الخصمين كانا ملكين فإن (تسوروا) تأباه لأن الملائكة أجسام نورانية لا أجسام كثيفة فلا حاجة إلى التسوّر ، إلى أن ما جاء من القصص عن ذكر السبب فى مجىء الملكين مما يخلّ بمنصب النبوة ، وفيه نسبة الكبائر إلى الأنبياء ، فيجب علينا أن نطرحه؛ إذ يبطل الوثوق بالشرائع — إلى ما فيه من مطعن لأرباب الأديان الأخرى على المسلمين ، إذ نسبوا إلى الأنبياء ما يخلّ مقامهم عنه ، ويأباه عامة الناس فضلا عن الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالاته ، ومن ثم أثر عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين .

يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص داود والخصمين — أردف ذلك ببيان أنه فوض إلى داود خلافة الأرض وأوصاه بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى

حتى لا يضل عن سبيل الله ، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب وسوء المنقلب ، إذ قد نسى يوم الحساب والجزاء .

الإيضاح

(يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أى يا داود إنا استخلفناك فى الأرض ، وجعلناك نافذ الحكم بين الرعية ، لك الملك والسلطان ، وعليهم السمع والطاعة ، لا يخالفون لك أمرا ، ولا يقيمون فى وجهك عصا .

ثم ذكر ما يستتبع ذلك فقال :

(فاحكم بين الناس بالحق) المنزل من عندى والذى شرعته لما فيه من المصلحة فى الدنيا والآخرة لعبادى .

ثم أكد ما سلف بالنهى عن ضده فقال :

(ولا تتبع الهوى) فى الحكومة وغيرها من أمور الدين والدنيا .

وفى هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة ، وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا الطريق القويم .

ثم بين سوء عاقبة ذلك فقال :

(فيضلك عن سبيل الله) أى فيكون اتباعك للهوى سببا فى الضلال عن الدلائل التى نصبت ، والأعلام التى وضعت ، للإرشاد إلى سبل السلام، باصلاح حال المجتمع فى دينه ودنياه ، وتهذيبه حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس .

ثم بين غائلة الضلال ووخامة عاقبته فقال :

(إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى إن الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معالمه — لهم من الله العذاب الشديد

يوم الحساب لنسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، فمن دسّى نفسه وسلك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العاصين جزاء وفاقا على أعمالهم التى كسبوها بأيديهم .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) .

شرح المفردات

باطلا : أى عبثا ولعبا ، ويل : أى هلاك ، مبارك : أى كثير المنافع الدينية والدنيوية ، ليدبروا : أى ليتفكروا ، ليتذكروا : أى ليتعظوا ، الألباب : واحدها لبّ ، وهو العقل، وقد يجمع على ألبّ و يفك إدغامه فى ضرورة الشعر، قال الكميت :

إليكم ذوى آلِ النبيّ تطلّعتْ نوازعُ من قلبى ظِماءٌ وألبُبُ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يضلون عن سبيل الله لهم العذاب الشديد يوم الحساب لظنهم أنه ليس بكائن — أعقب هـذا ببيان أن هذا اليوم آت لاريب فيه ، لأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقهم لعبادته وتوحيده ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيعين ويعذب الكافرين ، ثم أردف ذلك ببيان فضل القرآن الذى أنزله على رسوله هاديا للناس ومنقذا لهم من الضلالة إلى الهدى ، وإذا هم تدبروا آياته واتعظوا بعظاتها سعدوا فى الدارين ، و بلغوا السماكين ، وكانوا سادة العالم أجمع .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) أى وما أوجدنا السماء وما فيها من زينة ومنافع للناس ، والأرض وما فيها من فوائد فى ظاهرها وباطنها لهم ، وما بينهما مما يعلمون ومما لايعلمون — لهوا ولعبا ، بل خلقناها مشتملة على حكم باهرة ، وأسرار بالغة ، ومصالح جمة ، فقد خلقناها للعمل فيها بطاعتنا والانتهاء إلى أمرنا ونهينا ، فإنا لن نترك الناس سدى بل سنعيدهم بعد موتهم إلى حياة أخرى يحاسبون فيها على النقير والقطمير، والقليل والكثير، ثم يلقون الجزاء على ما كسبت أيديهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

ثم بين أن هذا الظن الفاسد قد ظنه الذين كفروا بالله وجحدوا آياته فقال :

(ذلك ظن الذين كفروا) أى إن الذين كفروا بالله وآياته التى نصبها فى الأنفس والآفاق ولم يتدبروا حق التدبر فى خلق هذا الكون البديع الدالّ على قدرة خالقه وعظيم تصرفه — أنكروا الحكمة فى خلقه وأنه إنما وجد ليكون دليلا على وجود خالقه ، وبرهانا على وحدانيته كما ورد فى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيًا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

ونحو الآية قوله : «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ»

ثم بيّن أن لهم سوء المنقلب على بطلان ما اعتقدوا وقبيح ما فعلوا فقال :

(فويل للذين كفروا من النار) أى فياويل الكافرين من النار التى أعدت لهم مستقرا ومقاما ، جزاء لهم على ما اجترحوا من الشرك بربهم وخالقهم وكفرانهم بنعمه التى أنعم بها عليهم وإنكارهم لليوم الذى تجازى فيه كل نفس بما قدمت من صالح العمل وسيئه « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ثم بين أن مقتضى عدله وحكمته ألا يساوى بين الذين أحسنوا بالحسنى، والذين اجترحوا السيئات ودسّوا أنفسهم بكبير الآثام والذنوب فقال :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) أى بل أنجعل من آمنوا بربهم واعتقدوا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لاشريك له فى ملكه ، وأصلحوا أعمالهم فأدّوا ما يجب للخلق والخالق وائتمروا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه وانتهوا عما نهوا عنه ، فلم يدسّوا أنفسهم بفعل شىء من كبائر الآثام خوفا من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، ولا تقبل الشفاعة ولا الفداء من أحد « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » كمن كفروا به وعاثوا فى الأرض فسادا وهاموا فيها على وجوههم ، لا دين يمنعهم ، ولا زاجر يردعهم ، إذهم ينكرون الجزاء والحساب والإعادة بعد الموتة الأولى ويقولون : ما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر. فأنّى لمثل هؤلاء أن يرعووا عن غىّ، أو يكفوا عن معصية ؟ بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات ، ويجترحون السيئات ، بما وسوس إليهم به الشيطان ، أن لاحلال ولا حرام ، ولا جنة ولا نار ، فما هذه إلا أساطير الأولين ، وخزعبلات الموسوسين المتزمّتين .

وإذا كان هذا حقا واقتضته الحكمة وأوجبته العدالة ، فلا بد من دار أخرى يجازى فيها المطيع ، ويثاب على ما عمل ، ويعاقب فيها العاصى على ما دنس به نفسه من شرك بربه ، واجتراح للإثم والعصيان ومخالفة أمر الواحد الديان . والعقولُ السليمة ، والفِطَر الصحيحة ترشد إلى هذا وتؤيده ، وتدل عليه وتثبته ، فإنا نرى الظالم الباغى قد يزداد فى دنياه مالاً وولدا ، ويتمتع بصنوف اللذات ، من الدور

والقصور ، والفراش الوثير ، والسكن فى الجنات ، ويركب فاره الخيول المطهّمة والمراكب الفاخرة ، ويشار إليه بالبنان ؛ بينا نرى المطيع لربه ، المظلوم من بنى جنسه قد يعيش عيش الكفاف ، ولا يجد ما يقيم به أوَدَه ، ويسدّ به مخمصته ، أفيكون من حكمة الحكيم العادل الذى لايظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب ، أو ينتصف للمظلوم من الظالم ويرجع الحق لصاحبه؟ وربما لايحصل هذا فى الدنيا ، فلا بد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف ، والكيل بالقسط والميزان ، وتلك هى الدار التى وعد بها الرحمن ، على ألسنة رسله الكرام ، صدق ربنا ، وإن وعده الحق ، وإن هذا اليوم آت لاشك فيه ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم .

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنه قال : الذين آمنوا علىّ وحمزة وعبيدة ابن الحرث رضى الله عنهم ، والمفسدين فى الأرض عتبة والوليد بن عتبة وشيبة وهم الذين تبارزوا يوم بدر .

ولما كان القرآن هو الذى يرشد إلى مثل هذه المقاصد الشريفة ، والمآخذ العقلية الصحيحة قال :

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) أى أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى دينهم ودنياهم ، الجامع لوجوه الصالح ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم فاهتدوا بهديه ، وسلكوا فى أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا بمن قبلهم فارعووا عن مخالفته حتى لايحل بهم مثل ما حل بالغابرين ، ويستأصلهم كما استأصل السابقين ممن بغوا فى الأرض فسادا .

وما تدبُّره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى :

قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لاعلم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ،

حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر ، فى خُلُق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوَزَعة ، لا أكثر الله فى الناس من مثل هؤلاء .

قصص سليمان عليه السلام حين عرض الصافنات الجياد

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) .

شرح المفردات

الصافن من الخيل : الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه و يقف على مقدم حافرها كما قال :

أَلِفَ الصُّفُونَ فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاثِ كَسِيرا

وقال النابغة :

لنا قُبَّةٌ مضروبة بفنائها ... عِتاقُ المهارَى والجيادُ الصوافِنُ

والجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد ، والخير هنا : الخيل ، توارت : أى غيبت عن البصر ، طفق : شرع ، المسح : إمرار اليد على الجسم .

الإيضاح

(ووهبنا لداود سليمان) أى وآتينا داود ابنا يسمى سليمان .

ونحو الآية قوله : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » .

ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال :

(نعم العبد إنه أواب) أى ما أحقه بالمدح والثناء ! لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه فى أكثر الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، اعتقادا منه بأن كل شىء من الخير لايتم إلا بإعانته وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله التى تستحق الإطراء والثناء فقال :

(إذ عرض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد) أى امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهامّ التى توكل إليها حين الغزو وغيره .

وقد وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها ، وقيل وصفها بالصفون لأنه لايكون فى الهجن ، بل يكون فى العراب الخلّص .

(فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) قد يحب الإنسان شيئا وهو يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذى يشتهى ما يزيد مرضه ، والوالد الذى يحب ولده السيئ السيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان عليه السلام يقول : إنى أحب حبى لهذه الخيل ، وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربى وأمره لا عن الشهوة والهوى .

(حتى توارت بالحجاب) أى حتى غابت عنى بسبب العِثْيَر المتطاير من سنابكها كما قال المتنبى :

أثارت سنابكُها عليها عِثْيرا لو تبتغى عَنَقاً عليه لأمكنا

فالمراد أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » وما زال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهة ، ولبعد المسافة من جهة أخرى .

وبعد أن اطمأن إلى حالها ، وحمد جميل أمرها قال :

(ردوها علىّ) فقد كفى ما قامت به من حُضْر دلت به على نجابتها وفراهتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات ، وفيها الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات ، من غزو وغيره .

ولما ارتاح إليها وسرّ بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد الجد — أظهر استحسانه لها ولفرسانها .

(فطفق مسحا بالسوق والأعناق) أى فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه ، إذ هى أعظم الأعوان ، فى دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها وأنها خلو من الأمراض التى قد تعوقها عن عملها حين البأساء .

والخلاصة — إن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه ، وقال إنى ما أحببتها للدنيا ولذاتها ، وإنما أحببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره ، أمر راكضيها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ، ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى فتكون سببا فى عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضى .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) .

شرح المفردات

فتنا سليمان : أي ابتليناه بمرض ، جسدا : أي جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح، أناب : أي رجع إلى صحته ، لاينبغي لأحد من بعدي : أي لاينتقل مني إلى غيره ، رخاء : أي لينة ، أصاب : أي قصد وأراد ، فقد حكى الزجاج عن العرب أنها تقول : أصاب الصواب فأخطأ الجواب، قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطا الجواب لدى المِفْصَل

مقرّنين : أي مربوطين ، والأصفاد : واحدها صفد (بالتحريك) وهو الغُلُّ الذي يجمع اليدين إلى العنق ،قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنّهاب وبالسّبايا وأبنا بالملوك مُصَفَّدِينا

والزلفى : الكرامة ، والمآب : المرجع .

الإيضاح

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أي ولقد ابتلينا سليمان بمرض عُضال صار بسببه ملقى على كرسيه لشدة وطأته عليه (والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح) ثم رجع بعد إلى حاله الأولى واستقامت له الأمور كما كان .

(قال رب اغفرلي) طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن

هذا فى مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » .

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب اه .

(وهب لى مُلكا لاينبغى لأحد من بعدى) أى هب لى ملكا لايكون لأحد غيرى لعظمه .

قال صاحب الكشاف : كان سليمان عليه السلام ناشئا فى بيت الملك والنبوة وارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب على حسب إلْفِهِ ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، ولن تكون معجزة حتى تخرق العادة ، فذلك معنى قوله : لاينبغى لأحد من بعدى اه .

وقيل إنه أراد بقوله : لاينبغى لأحد من بعدى — الدلالة على عظمه وسعته كما تقول : لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال . وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ماعنده .

ثم علل المغفرة والهبة معا فقال :

(إنك أنت الوهاب) أى إنك أنت الكثير المواهب والعطاء ، فأجب طلبى ، وحقق رجائى .

ثم أخبر سبحانه بأنه أجاب دعاءه ووفقه لتحصيل ما أراد وعدّد نعمه عليه فقال:

(١) (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) أى فذللنا لطاعته إجابة لدعوته الريح تجرى لينة طيّعة له لاتمتنع عليه إلى أىّ جهة قصد .

ولا تنافى بين وصف الريح هنا بالرخاء، ووصفها فى آية أخرى بكونها عاصفة كما قال: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» لأنها تكون بكلتا الحالين على حسب الحاجة إليها، فهى تشتد حين الحل، وتلين حين السير.

(٢) (والشياطين كل بناء وغوّاص) أى وذللنا لأمره البنائين من الشياطين والغوّاصين فى البحار منهم، يسخرهم فيما يريد من الأعمال، فإذا أراد بناء العمائر والقصور أو الحصون والقناطر أنجزوها له فى الزمن القصير، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار لجعلهما حلية لمن فى قصوره لبّوا طلبه سراعا.

(٣) (وآخرين مقرنين فى الأصفاد) أى وآخرين من الشياطين مردة مشاكسين لايلبون دعوة الداعى، ويخالفون ما أمروا به فيوضعون فى السلاسل والأغلال ليتقى شرهم.

وخلاصة ما سلف — إن سليمان قد استعمل الشياطين فى الأعمال الشاقة كالبناء والغوص فى الماء، ومن لم يطع أمره وضعه فى السلاسل والأغلال، كفا لشره، وعقابا له، وعبرة لغيره.

وإنا لانعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة؛ كما لانعلم كيف يشتغل الشياطين وكيف يبنون أو يغوصون؟ فكل ذلك فى عالم لاندرك شيئا من أحواله، فعلينا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنس فى أعماله بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليهم، ونتقبل هذا كما قصه القرآن دون دخول فى التفاصيل خوفا من الزلل الذى لاتؤمن مغبته، ولانصل أخيرا إلى معرفة الحق فيه، ولنكتف بذلك، فالعبرة به ماثلة ولا نتزيد فيه.

ثم ذكر سبحانه أنه أباح له أن يتصرف فى كل هذا الملك الواسع كما شاء دون رقيب ولا حسيب فقال:

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أى وقلنا له: إن هذا الذى أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة فى الغنى والتسليط على عالم لم يسلط عليه غيرك من

العوالم الأخرى — عطاؤنا الخاص بك ، فأعط من شئت ، وامنع من شئت غير محاسب على شىء من ذلك ، فقد فوضنا لك التصرف فيه كما تشاء .

وبعد أن ذكر ما أوتيه من نعم الدنيا التى يحار فى إدراكها العقل ، أبان ما له فى الآخرة عند ربه من مقام كريم وجنات ونعيم فقال :

(وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى وإن له فى الآخرة لقربى وكرامة لدينا فنبوئه جنات النعيم ، ونؤتيه الإجلال والتعظيم ، فهو كما كان سعيدا فى الدنيا يكون سعيدا فى الآخرة ويفوز برضا ربه وعظيم كرامته . جعلنا الله ممن كتبت له السعادة فى الدارين ، والكرامة والمثوبة لديه فى جنات النعيم .

قصص أيوب عليه السلام

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) .

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قاله ابن جرير . والنُّصْب : (بضم فسكون) والنَّصَب (بفتحتين) كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، عذاب : أى ألم مضر كما جاء فى قوله : «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ » اركض برجلك : أى اضرب بها على الأرض ، مغتسل : أى ماء تغتسل به

وتشرب منه ، والضغث : الحزمة الصغيرة من الكلأ والريحان ، ويقال حنث فى يمينه : إذا لم يفعل ما حلف عليه .

الإيضاح

(واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضياع الولد .

ومن حديث مس الشيطان له ما روى — إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فابتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ؛ فصبر على ما أصابه من أذى وناله من ألم ممض ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكنا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ويمنعهم من لقائه والجلوس معه ، لأن ذلك شرط من شروط النبوة ؛ كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء :

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) أى حرك الأرض برجلك واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب منه فتبرأ مما أنت فيه من المرض .

وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالإكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال ، وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد — كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجعة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد

بالشرب أيضا كما نرى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوربا ومصر وغيرها ، واستعملت مشاتى ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى وسويسرا وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب — ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وعن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن نبى الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى حق » .

ولا شك أن هذا الحديث من أخبار الآحاد التى تصادم أسس الدين الصحيحة من أن الأنبياء يجب ألا يكون فيهم من الأمراض ما ينفر الناس منهم ، لأن وظيفتهم تبليغ ما أرسلوا به إليهم ، وكيف يجتمع الناس بهم ويتحدثون إليهم وهم فى تلك الحال وهذا البلاء ، ومن ثم فنحن نقف أمام هذه الأخبار موقف الحذر والاحتياط فى قبولها أو القطع بعدم صحتها لمخالفتها لقطعى لاشك فيه .

وكما دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجاب دعاءه فى أهله وولده فقال :

(ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) أى وجمعنا له أهله بعد التفرّق والتشتّت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا

عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة ، لنعتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لايقنط من الفرج بعد الشدة :

عسى فرج يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليقته أمر

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم ما ذا كان حاله فى ماله ، فنمسك عن الكلام كما أمسك .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه فى تحلة يمينه فقال :

(وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) أى وخذ حزمة صغيرة من ريحان أو كلأ فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلة ليمينك التى حلفتها ، والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواة أنه حلف على زوجه رحمة بنت إفرائيم ، وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربنها إن برئ مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر فى يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفى هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأناب إليه ؛ ولهذا قال عز اسمه :

(إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب) أى إنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه فى النفس والأهل والمال من أذى فجازيناه بما فرّج كربته ، وأذهب لوعته وليس فى الشكوى إلى الله إخلال بالصبر وليس فيه شىء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ؛ وكان يقول فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان .

قصص إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وإسماعيل ، واليسع وذى الكفل

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحٰقَ ، وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ ، وَالْيَسَعَ ، وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هٰذَا ذِكْرٌ ،

شرح المفردات

الأيدى : أى القوى فى طاعة الله ، والأبصار : واحدها بصر ؛ ويراد به هنا البصيرة والفقه فى الدين ومعرفة أسراره ، أخلصناهم : أى جعلناهم خالصين لنا ، بخالصة : أى بخصلة خالصة لاشوب فيها ، هى تذكر الدار الآخرة والعمل لها ، المصطفين : أى المختارين من أبناء جنسهم ، والأخيار : واحدهم خير وهو المطبوع على فعل الخير ، هذا ذكر : أى هذا المذكور من الآيات فصل من الذكر وهو القرآن.

الإيضاح

(واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) أى واذكر صبر عبادنا الذين شرفناهم بطاعتنا ، وقويناهم على العمل لما يرضينا ، وآتيناهم البصيرة فى الدين ، والفقه فى أسراره والعمل النافع فيه .

ثم علل ما وصفهم به من فاضل الصفات وجليل المدح بقوله :

(إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أى إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا ، عاملين بأوامرنا ونواهينا ، لاتصافهم بخصلة جليلة الشأن لايساويها غيرها من الخصال ، وهى

تذكرهم الدار الآخرة ، فهى مطمح أنظارهم ومطرّح أفكارهم فى كل ما يأتون وما يذرون ، ليفوزوا بلقاء ربهم، وينالوا رضوانه فى جنات النعيم .

(وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أى وإنهم لمن المختارين الذين جبلت نفوسهم على الخير ، فلا تطمح إلى الأذى ولا تميل إلى التباغض والتحاسد ، ولا ترتكب الشرور والآثام .

(واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل) أى واذكر لقومك من هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا الشدائد فى دين الله ، وقد ذكرنا شرح هذه الأسماء ، وأوصاف هؤلاء الأنبياء فى سورتى الأنعام والأنبياء .

(وكل من الأخيار) أى وكل منهم ممن اختاره الله للنبوة ، واصطفاه من خلقه .

(هذا ذكر) أى هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا أسلوب يذكر للانتقال من كلام إلى آخر؛ كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ثم يشرع فى باب آخر ، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر: هـذا وكان كيت وكيت — وعلى هذا جاء قوله : « هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » كما سيأتى بعد .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) .

شرح المفردات

الطاغى : المتجاوز للحد فى ترك الأوامر وفعل النواهى ، جنات عدن : أى جنات استقرار وثبات، من قولهم: عدن بالمكان أى أقام به ، متكئين فيها : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء فى الآية الأخرى ، أتراب : أى لدات متساوون فى السن حتى لاتحصل الغيرة بينهن ، نفاد : أى انقطاع .

المعنى الجملى

لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فوصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطنا ــ أمره بالصبر على أذاهم لوجهين :

(١) إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .

(٢) ما ذكره فى هذه الآيات والتى بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقيه من المكاره .

الإيضاح

(وإن للمتقين لحسن مآب) أى وإن الله أعطى المتقين الذكر الحسن فى الدنيا، ولهم فى الآخرة حسن المرجع .

ثم بين هذا المآب الحسن بقوله :

(جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فُتِّحت إكراما لهم ، وفى هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقرة العيون فيها ومشاهدة أحوالها التى تسرّ الناظرين ، ففيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على مقدار أمنهم فيها وتنعمهم بنعيمها فقال :

(متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) أى يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك ، وإنما خص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة ؛ فالنفس إليها أشوق ، وفى ذكرها أرغب ، كما أن فى ذلك إيماء إلى أن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى لأنه إنما يكون لتحصيل بدل المتحلل ، ولا تحلل فيها .

و بعد أن وصف المسكن والمأكول والمشروب وصف الأزواج فقال :

(وعندهم قاصرات الطرف أتراب) أى وعندهم نساء ذوات خفر قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ، وهن متساويات فى السن والجمال يحب بعضهن بعضا ، وفى ذلك راحة عظيمة للأزواج ، إذ فى تباغض الضرائر النصبُ والتعبُ والهمّ الكثير للزوج ولهن .

(هـذا ما توعدون ليوم الحساب) أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هو ما وعد الله به عباده المتقين ، يصيرون إليه بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم .

ثم أخبر بأن نعيم الجنة دائم لا يزول ولا ينقطع فقال :

(إن هـذا لرزقنا ماله من نفاد) أي إن هذا النعيم وتلك الكرامة — لعطاء دائم غير مجذوذ ولا منقطع .

ونحو الآية قوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » وقوله : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » أى مقطوع ، وقوله : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى منقطع . وقوله : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا » .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا

فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤).

شرح المفردات

الطاغين : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ، يصلونها : أى يدخلونها و يقاسون حرها ، والمهاد : كالفراش لفظا ومعنى ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، والغساق : شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار ، يقال غسقت العين : أى سال دمعها ، من شكله : أى من مثل المذوق فى الشدة والفظاعة ، أزواج : أى أجناس ، فوج : أى جمع كثير من أتباعكم فى الضلال ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها، لامرحبا بهم قال أبو عبيدة : العرب تقول لامرحبا بك : أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت ، من الأشرار : أى الأراذل الذين لاخير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين ، زاغت عنهم : أى مالت عنهم ، والتخاصم : مخاصمة بعضهم بعضا ومدافعة كل منهم الآخر .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين — أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون ذلك متمما له ، فيأتى الوعيد عقب الوعد ، والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين رجاء فى الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد فى الطاعة وينأى عن المعصية ،

وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التى ترق بها النفوس إلى سبيل الكمال فى دنياها وآخرتها .

الإيضاح

(هذا) أى هذا الذى تقدم ما يكون جزاء للمؤمنين كفاء ما قدّموا من أعمال صالحة .

(وإن للطاغين لشر مآب) أى وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله المكذبين لرسله سوء المنقلب وشر العاقبة ، ثم فسر ذلك بقوله :

(جهنم يصلونها فبئس المهاد) أى فهم يدخلون جهنم ويقاسون شديد حرها ، فبئس مهادا وفراشا هى ؛ ونحو الآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

ثم أمرهم أمر تهكم وسخرية بذوق هذا العذاب فقال :

(هذا فليذوقوه) أى العذاب هذا ، فليذوقوه .

ثم فصل أنواعه وبين ألوانه فقال :

(حميم وغساق) أى لهم فيها ماء حارّ يشوى الوجوه ، وماء بارد لا يستطاع شربه لبرودته ، قال الحسن رضى الله عنه : الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى ، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا فى قوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة .

ثم زاد فى التهديد وبالغ فى الوعيد فقال :

(وآخر من شكله أزواج) أى ليس الأمر مقصورا على هذا فحسب ، بل لهم فيها أشباه وأمثال من مثله فظاعة وشدة كالزقوم والصّعود والسموم .

وبعد أن وصف مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقوله بعضهم لبعض .

(هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم) أى هم يتلاعنون ويتكاذبون ، فتقول

الطائفة التى تدخل قبل الأخرى حين تقبل التى بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثيف داخل معكم فلا مرحبا بهم .

قال ابن عباس فى تفسير الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع تقول الخزنة للقادة: هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لامرحبا بهم، والمراد بذلك الدعاء عليهم ، قال النابغة :

لامرحباً بغدٍ ولا أهلا به إن كان تفريقُ الأحِبَّة فى غد

ثم علل استيجاب الدعاء عليهم بقوله :

(إنهم صالو النار) أى إنهم ذائقو حر النار مثلكم .

وهذا كلام من المتبوعين والرؤساء الذين أغووهم وأدخلوهم فى الكفر ، وحينئذ يردّ عليهم الداخلون من الأتباع ويقولون لهم :

(بل أنتم لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار) أى قال الأتباع وهم الفوج المقتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أنتم أحق منا بما قلتم (لامرحبا بكم) فإنكم أغويتمونا ودعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفى منهم ، لأنه مشترك بينهم .

ونحو الآية قوله : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » .

ثم ذكر مقالة أخرى للأتباع ذمًّا لهم أيضا فقال :

(قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) أى قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال : ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب – عذابا مضاعفا فى النار ، عذابا للضلال وعذابا للإضلال كما ورد فى الحديث « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

ونحو الآية قوله : « رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ » وقوله : « رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » .

وبعد أن ذكر حديثهم عن أحبابهم فى الدنيا حكى حديثهم عن أعدائهم فيها فقال:

(وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار؟) أى قال المشركون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم فى النار : ما بالنا لانرى رجالا كنا نعدهم فى الدنيا أشرارا لاخير فيهم ؟ .

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو جهل : أين بلال ، أين صُهَيْب ، أين عمار ، أولئك فى الفردوس . واعجبا لأبى جهل ! مسكين، أسلم ابنه عكرمة وابنته جُويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه، وكفر هو.قال:

ونورا أضاء الأرضَ شرقا ومغربا وموضع رجلى منه أسودُ مُظلِمُ

ثم سألوا عن السبب فى عدم رؤيتهم فقالوا :

(أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار؟) أى لأجل أنا قد اتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا؟.

وفى هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسخارهم منهم فى الدنيا .

والخلاصة — إن الكفار حين دخلوا النار ونظروا فى جوانبها لم يروا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لانرى الذين كنا نتخذهم فى الدنيا سخريا ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟

ثم بين أن هذا التناجى سيكون يوم القيامة وأنه حق لامرية فيه فقال :

(إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) أى إن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا ـ حق لامرية فيه .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أول السورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم دعا إلى التوحيد وأثبت أنه نبىّ، ودعا إلى الحشر والنشر فقابلوه بالسفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب، ثم صبره على ذلك وقص عليه من قصص الأنبياء قبله ما يكون سلوة له فى الصبر على الأذى، ثم أردف ذلك بذكر ثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار — عاد هنا إلى تقرير هذه المطالب التى ذكرها أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث .

الإيضاح

(قل إنما أنا منذر) أى قل أيها الرسول لمشركى مكة : إنما أنا نذير مرسل من ربى لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يحل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود، ولست بالساحر ولا الكذاب، ولا بالمسيطر الجبار على نحو ما جاء فى قوله : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وقوله : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال :

(وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهو الذى قهر كل شىء وغلبه بعزته وجبروته، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما، وهو الذى يَغْلِبُ ولا يُغْلَب، ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب، جلت أو حقرت .

ثم توعدهم على مخالفته وترك العمل به وأمر رسوله أن يجلى لهم حقيقة وظيفته، ليرعووا عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

(قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) أى قل لهم: إن ما أنبأتكم به من كونى رسولا منذرا، ومن أن الله واحد لاشريك له — خبر عظيم الفائدة لكم، فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال، لكنكم معرضون عنه، لاتفكرون فيه، لتماديكم فى الغفلة.

وفى هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ، علّهم يرجعون عن غيهم.

ثم ذكر من الأدلة ما يرشد إلى نبوته فقال:

(ما كان لى من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون) أى ولولا الوحى ما كنت أدرى باختلاف الملإ الأعلى، يعنى فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه، وهو ما ذكره بعد.

ثم أكد نبوته بقوله:

(إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين) أى ما يوحى إلىّ إلا للإنذار، لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا.

قصص آدم عليه السلام

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)
قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠)

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) .

شرح المفردات

فقعوا له : أى اسجدوا له ، ما منعك : أى ماصرفك وصدك ، واليد القدرة قال :

تحمّلتُ من عفراء ما ليس لى به　　ولا للجبال الراسياتِ يدانِ

من العالين : أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالين عن ذلك ، رجيم : أى مرجوم ومطرود من كل خير ، لعنتى : أى طردى ، أنظرنى : أى أمهلنى ، من المنظرين : أى الممهلين ، لأغوينهم : أى لأضلنهم ، المخلصين : أى الذين أخلصتهم للعبادة .

المعنى الجملى

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، كما ذكرت هنا ؛ والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمدا صلى الله عليه وسلم بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زاجرا لهم عنهما ؛ والمواعظ والنصائح باب من أبواب التكرير للمبالغة فى النصح والإرشاد .

الإيضاح

خلاصة هذه القصة — إن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام أنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وأمرهم بالسجود له متى فرغ من

خلقه وتسويته ، إجلالا وإعظاما له ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا بل كان من الجن فخانه طبعه ، فاستنكف عن السجود له وخاصم ربه وادعى أنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد خالف بذلك أمر ربه ، فكفر به فأبعده وطرده من باب رحمته وحضرة قدسه مذموما مدحورا ، فسأل النَّظِرةَ إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرّد وطغى وقال : « فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » فقال تعالى : « فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) .

شرح المفردات

من المتكلفين : أى المدّعين معرفة ما ليس عندهم ، نبأه : أى ما أنبأ به من وعد ووعيد ، بعد حين : أى بعد الموت .

الإيضاح

(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) أى قل يأيها الرسول لمشركى قومك : ما أسألكم على تبليغ ما يوحى إلىّ أجرا لا قليلا ولا كثيرا ، وما عرفتمونى أتكلف ما ليس عندى حتى أنتحل النبوة وأتقوّل القرآن .

أخرج ابن عدى عن أبى برزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال هم الرحماء بينهم ، قال :

ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا بلى، قال هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلفون».

وفى الصحيحين أن ابن مسعود قال: «أيها الناس من علم منكم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله تعالى أعلم، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)».

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ما هذا القرآن إلا عظة للثقلين كافة، وكل ذى عقل سليم، وطبع مستقيم، يشهد بصحته وبعده عن البطلان والفساد.

ثم ختم السورة بتهديدهم لعلهم يرعوون عن غيهم فقال:

(ولتعلمنّ نبأه بعد حين) أى إنكم إن أصررتم على ما أنتم عليه من الجهل وأبيتم إلا تقليد الآباء والأجداد فستعلمون حين الموت إن كنتم مصيبين فى إعراضكم أو مخطئين.

وكان الحسن البصرى يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولا يعرضون عن اتباع الذكر وما فيه من صلاح للناس فى الدنيا والآخرة.

ما تضمنته هذه السورة من العبر والمواعظ

(١) صلف المشركين وإعراضهم عن الحق، مع ضرب المثل لهم بالأمم الماضية التى حادت عن الحق فهلكت.

(٢) إنكارهم للوحدانية.

(٣) إنكارهم لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

(٤) إنكارهم للبعث والحساب.

(٥) قصص داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من النبيين عليهم السلام.

(٦) وصف نعيم أهل الجنة .

(٧) وصف عذاب أهل النار، وتلاعن بعضهم بعضا، وسؤالهم عن المؤمنين لم لم يروهم فى النار ؟

(٨) قصص آدم عليه السلام .

(٩) قسم إبليس — لَيُغْوِيَنَّ بنى آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .

(١٠) أمر الله نبيه أن يقول للمشركين : ما أطلب منكم أجرا على تبليغ رسالتى ولا أنا بالذى يدّعى علم شىء هو لا يعرفه .

(١١) إن القرآن أنزل للثقلين كافة .

(١٢) إن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره .

سورة الزمر

هى مكية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فمدنيات ، وآياتها خمس وسبعون نزلت بعد سبأ .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه وصف القرآن فى آخر سورة ص بقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » ووصفه هنا بقوله : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

(٢) إنه ذكر فى ص أحوال الخلق من المبدإ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله — إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) .

الإيضاح

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) أى هذا الكتاب العظيم منزل من عنده تعالى ، فهو الحق الذى لا مرية فيه كما جاء فى آية : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وجاء فى قوله : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

وبعد أن بين شأن المنزَّل وأنه من عند الله — ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل فقال :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول آمرا بالحق والعدل الواجب اتباعهما والعمل بهما .

ثم أمر رسوله بعبادته والإخلاص له فقال :

(فاعبد الله مخلصا له الدين) أى فاعبده تعالى ممحضا له الدين من شوائب الشرك والرياء على حسب ما أنزل الله فى تضاعيف كتابه ، وأعلم الناس أن العبادة لاتصلح إلا له وحده ، وأنه ليس له ندٌّ ولا شريك .

ثم أكد هذا الأمر بقوله :

(ألا لله الدين الخالص) أى ألا لله العبادة والطاعة وحده لاشركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه ، وفى حديث الحسن عن أبى هريرة «أن رجلا قال يا رسول الله : إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ، لايقبل الله شيئا شورك فيه ، ثم تلا : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) » .

وبعد أن أبان أن رأس العبادة الإخلاص لله — أعقب ذلك بذم طريق المشركين فقال :

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة ويشفعوا لنا عنده فى حاجتنا .

ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها ، وقالوا إن الإله الأعظم أجلّ من أن يعبده البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهى تعبد الإله الأعظم .

وهذه شبهة تمسك بها المشركون فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءت الرسل مفندة لها ماحية لها من الأذهان العالقة بها ، موجهة العقول إلى إفراد الله وحده بالعبادة كما قال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم فلم تعبدونهم ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده ، فرد الله عليهم بقوله : « فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » .

ثم هددهم وبين لهم عاقبة ما يفعلون فقال :

(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) أى إن الله يحكم بينهم وبين خصومهم وهم المحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك يوم القيامة ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة ، ويدخل المشركين النار .

(إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) أى إن الله لا يرشد إلى الحق ولا يوفق إليه من هو كاذب مفتر عليه ، بزعمه أن له ولدا وأن له ندًّا وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك من الترّهات والأباطيل التى لا يقبلها العقل ولا تجد لها مستندا من نقل .

ثم فصل ما كذبوا فيه فقال :

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا - ولا ينبغى له ذلك - لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهم الأبناء ، فكيف نسبتم إليه البنات ؟ .

ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد فقال :

(سبحانه هو الله الواحد القهار) أى تقدس الله أن يكون له ولد ، فإنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه ، وهو الغنى عما سواه ، قهر الأشياء فدانت له ، وتسلط على المخلوقات بقدرته فذلت له ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) .

شرح المفردات

التكوير فى الأصل : اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكوّرها ؛ والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، والظلمات الثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرّحم وظلمة المَشِيمة ، تصرفون : أى يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه منزه عن الولد بكونه إلها قهارا ، وأن كل المخلوقات فى قبضته وسلطانه — أردف ذلك بما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها

فى الأكوان ، وفى خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهما وجعلهما يجريان فى ذلك الملكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو ، كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجا من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وأنثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل مَعْدِلا عن الاعتراف بربوبيته ، وعظيم قدرته .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق) أى خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شموس وأقمار ، تكوّن الليل والنهار ، والعالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا لانتفاع الإنسان فى سبل معايشه إذا استعمل عقله واستخدم فكره فى استنباط مرافقه — خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ، والحكم والمصالح .

وبعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

(يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) أى يُغْشِى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعلهما فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ؛ فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ، ويلتفان متتابعين حولها .

وفى هذا إيماء إلى كروية الأرض أولا ، وإلى دورانها حول نفسها ثانيا ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وجعل الشمس والقمر

وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له (وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما) يجريان لمنتهى دورتهما، ومنقطع حركتهما، وهو يوم القيامة، (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ).

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية ترغيبا فى طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص، والتحذير من الكفر والمعاصى، فقال:

(ألا هو العزيز الغفار) أى ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم — هو القادر على الانتقام ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين.

ولا يخفى ما فى هذا من الدلالة على كمال قدرته، وكمال رحمته؛ فهو القهار ذو القوة المتين، الغفار لذنوب التائبين.

وبعد أن ذكر الدلائل التى بثها فى العالم العلوى — أردفها بذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى، وبدأها بخلق الإنسان، لأنه أعجب ما فيه، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الإلهية ولله در من قال:

وتزعم أنك جِرْم صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) أى خلقكم على اختلاف ألسنتكم وألوانكم — من نفس واحدة وهى آدم، ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء، ثم ثنى بخلق الحيوان فقال:

(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ» أى ذكر وأنثى لكل منها.

ثم ذكر سبيل خلق ماذكر من الأناسى والأنعام فقال:

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) أى يبتدئ خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق، فيكون أحدكم أوّلا نطفة، ثم يكون علقة،

ثم يكون مضغة ، ثم يكون لحما وعظما وعصبا ، و ينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فى ظلمات ثلاث) أى فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه [الإسلام والطب الحديث] : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائفى ، وهى لاتظهر إلا بالتشريح الدقيق ؛ وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة اهـ .

و بعد أن ذكر هذه الأفعال العجيبة ذكر موجدها ومنشئها فقال :

(ذلكم الله ربكم) أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله — هو الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ، المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه .

(له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة .

(لا إله إلا هو) أى لاتنبغى العبادة إلا له وحده لاشريك له .

(فأنى تصرفون ؟) أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء ما يصرف عنها — إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة ما يصرف عنها .

والخلاصة — كيف تعبدون معه سواه ؟ أين ذهبت عقولكم ؟ وكيف ضاعت أحلامكم ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ

مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) .

شرح المفردات

منيبا : أى راجعا إليه مطيعا له ، خوّله ملّكه ؛ وأنشد أبو عمرو بن العلاء لزهير ابن أبى سلمى :

هنالك إنْ يُسْتَخوَلُوا المال يُخوِلُوا وإن يُسْألُوا يُعْطُوا وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام لادليل لهم على عبادتها ، وكأنّ عقولهم قد ذهبت حين عبدوها — أعقب ذلك ببيان أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات ، فهو لايريد بعبادته جر منفعة ولا دفع مضرة ، ولكنه لايرضى الكفر لعباده ، بل يرضى لهم الشكر ، وأن كل نفس مطالبة بما عملت ، وبعدئذ تردّ إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون ، فإذا أصابهم الضر رجعوا فى طلب دفعه إلى الله ، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا أنه لايدفع الضر سواه — أن يعبدوه فى جميع الحالات ، ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهكما موبخا تمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

الإيضاح

(إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) أى إن تكفروا به سبحانه مع مشاهدة ما يوجب الإيمان والشكر فإن ذلك لايضيره شيئا ، فهو الغنى عن سائر المخلوقات كما قال تعالى حكاية عن موسى: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ »

وجاء فى صحيح مسلم « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

ثم ذكر ما يحبه سبحانه وما يكرهه فقال :

(ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يحبه ولا يأمر به ، لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة من الخُشُب والنصب وممن يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(وإن تشكروا يرضه لكم) لأنه على مقتضى السَّنن القويم ، والصراط العادل المستقيم كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ولا يضيره عمل سواه فقال :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل أىّ نفس أوزار نفس أخرى ، بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كانت أو شرا .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة على وفق ما عمل فقال :

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا ما لا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه سبحانه فقال :

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم مما لا تدركه أعيانكم ، فكيف بما رأته العيون وأدركته الأبصار .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان

يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) أى و إذا أصاب الكافر بلاء فى جسده أو شدة فى معيشته أو خوف على حياته — استغاث بر به الذى خلقه ورغب إليه فى كشف ما نزل به ، تائبا إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به و إشراك الآلهة والأوثان فى عبادته ، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضرّ ، وأبدله بالسقم صحة ، و بالشدة رخاء — ترك دعاءه الذى كان يدعوه من قبل أن يكشف ما كان به من ضرّ ، فجعل لله شركاء وأضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول فى الإسلام .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال :

(قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) أى قل أيها الرسول لمن فعل ذلك : تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها، منصرفا عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمنا قليلا إلى أن تستوفى أجلك ، وتأتيك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار الخالدين فيها أبدا .

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) .

شرح المفردات

القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، آناء الليل : ساعاته واحدها آن ، يحذر الآخرة : أى يخشى عذابها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان صفات المشركين الضالين، وذكر تقلقلهم واضطرابهم فى العبادة ، إذ يرجعون إلى الله فى وقت الشدة و يعودون إلى الأوثان حين الرخاء — أردفه بذكر

أحوال للمؤمنين القانتين الذين لايعتمدون إلا على ربهم ، ولا ينيبون إلا إليه ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه .

الإيضاح

(أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أى أأنت أيها المشرك أحسن حالا ومآلا أم من هو قائم بأداء الطاعات ، ودائب على وظائف العبادات ، فى ساعات الليل التى تكون فيها العبادة أشق على النفوس ، وأبعد من الرياء ، فتكون أقرب إلى القبول ، وهو فى حال عبادته خائف راج ؟ لاشك أن الجواب لايحتاج إلى بيان .

والخلاصة — أمن هو مطيع كمن هو عاص ؟ إنهما لايستويان .

ثم أكد نفى التساوى ونبه إلى فضيلة العلم وشرف العمل به فقال :

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لقومك هل يستوى الذين يعلمون مالهم فى طاعة ربهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم إياه من عقاب ، والذين لايعلمون ذلك ، فهم يخبطون خبط عشواء لايرجون بحسن أعمالهم خيرا ، ولا يخافون من سيئها شرا .

وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير ، وأن الآخرين درجوا فى دركات الشر ، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر .

ثم بين أن ماسلف إنما يفهمه كل ذى لب ، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لايفقهون موعظة ، ولا تنفع فيهم التذكرة فقال :

(إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يعتبر بحجج الله ويتعظ بها ويتدبرها أهل العقول والحجا ، لا أهل الجهل والغفلة .

والخلاصة — إنه إنما يعلم الفرق بين هذا أو ذاك من له لب وعقل يتدبر به .

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَاشِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نفى المساواة بين من يعلم ومن لايعلم — أردفه بأمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح :

(١) تقوى الله وطاعته لما فى ذلك من جزيل الفوائد ، فإذا تعذرت طاعته فى بلد تحولوا عنه إلى بلد يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة كما فعل كثير من الأنبياء ، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب ، فلا يقدر بمكيال ولا ميزان .

(٢) إنه أمر بعبادة الله وحده مخلصا له الدين ، وقد قال كفار قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك إبراهيم وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ؟ فأنزل الله الآية وأمره أن يكون أول المسلمين ، وفى ذلك تنبيه إلى كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة .

(٣) إنه أمر أن يقول لهم : إنى أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته ، وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصى .

(٤) إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله ، لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لارجوع بعده .

(٥) وصف لهم النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده .

الإيضاح

(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر سبحانه رسوله أن يعظ المؤمنين ويحملهم على الطاعة والتقوى باجتناب معاصيه واتباع أوامره .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى لمن أحسن فى هذه الدار ، وعمل صالح الأعمال ، وزكى نفسه فيها — حسنة من صحة وعافية ونجاح فى الأعمال التى يزاولها كفاء مايتحلى به من تمسك بآداب الدين واتباع فضائله ، وحسنة فى الآخرة فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

ثم رغبهم فى الهجرة من مكة إلى المدينة وصبرهم على مفارقة الأوطان فقال :

(وأرض الله واسعة) أى إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة فى البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين فقد فعل كثير منهم ذلك .

ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أى ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لايقدر قدره ، كما وفّى من قبلهم أجورهم على هذه الشاكلة . وعن الحسين ابن على رضى الله عنهما قال : سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يابنى

إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصبُّ عليهم الأجر صبًّا ثم تلا : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال النحاس : من صبر على المعاصى يقال صابر ، ومن صبر على المصيبة يقال صابر على كذا .

ثم ذكر ما أمر به نبيه من الإخلاص فى الطاعة فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك : إن الله أمرنى أن أعبده مفردا له الطاعة دون كل ما تدَّعون من دونه من الآلهة والأنداد .

وفى هـذا نعى لهم على تماديهم فى عبادة الأوثان ، والكلام عليه من وادى قولهم (إياكَ أعنى واسمعى يا جاره) .

(وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت أن أكون أول المسلمين وسابقهم فى إخلاص التوحيد لله ، وإخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

(قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم : إنى أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو إفراده بالربوبية — عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفى هذا من التعريض بهم ما لا يخفى .

(قل الله أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه) أى قل لهم : اللهَ أعبد لا غيره لا استقلالا ولا اشتراكا ، مخلصا له عبادتى مبتعدا من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم .

وفى هذا تهديد ووعيد شديد :

(قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى قل لهم

أيها الرسول : إن الخسران الذى لا خسران بعده — هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلوهم وأوقعوهم فى العذاب السرمدى يوم القيامة إذ أوقعوهم فى هلكة ما بعدها هلكة .

(ألا ذلك هو الخسران المبين) أى هذا هو الخسران المبين الظاهر لكمال هوله، وفظاعة شأنه .

ثم فصل ذلك الخسران و بينه بعد إبهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال :

(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) أى لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » وقوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(ذلك يخوف الله به عباده) أى إنما يقص عليكم ربكم خبر ما سيكون لا محالة، ليزدجر عباده عن المحارم والآثام .

بعد هذا أمرهم بتقواه وحذرهم من عصيانه فقال :

(يا عباد فاتقون) أى يا عبادى بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى ، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى ، وهذه منة منه تعالى منطوية على نهاية اللطف والرحمة .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ

فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ (٢٠).

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه وعيده لعبدة الأصنام — أردف ذلك وعد من اجتنبوا عبادتها وبعدوا عن الشرك، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال الترهيب والترغيب.

الإيضاح

(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) الطاغوت: الشيطان، ويطلق على الواحد والجمع، وسميت عبادة الأوثان عبادة للشيطان، إذ كان الآمر بها والمزين لها.

أى والذين اجتنبوا عبادة الأصنام وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه — لهم البشرى بالثواب العظيم من الله على ألسنة رسله حين الموت وحين يحشرون من قبورهم للحساب.

ثم مدحهم بأنهم نُقَّاد فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل فقال:

(فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أى فبشر هؤلاء الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، وأنابوا إلى ربهم وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق — بالنعيم المقيم فى جنات النعيم.

(أولئك الذين هداهم الله) أى هؤلاء هم الذين وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

(وأولئك هم أولو الألباب) أى وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر

المستقيمة ، التى لاتطيع الهوى ولا يغلبها الوهم ، فتختار خير الأمرين فى دينها ودنياها.

روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى ثلاثة نفر : زيد بن عمرو وأبى ذر الغِفارى وسلمان الفارسى ، كانوا فى الجاهلية يقولون « لا إله إلا الله » .

ثم بين أضداد المذكورين أولا وسجل عليهم الحرمان من الهداية فقال :

(أفمن حق عليه كلمة العذاب ؟ أفأنت تنقذ من فى النار؟) أى أأنت مالك شئون الناس ومصرّف أمورهم ، فمن حقت عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال وتدسيته نفسه بولوغها فى الآثام والمعاصى — فأنت تنقذه من النار ؟ — كلا ، ليس أمرهم إليك بل أمرهم إلى ربهم يجازيهم بحكمته وعدله .

ثم أعاد جزاء المتقين عناية بأمرهم بعد ذكر أضدادهم فقال :

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار) أى لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، لهم فى الجنة غرف طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات تجرى الأنهار خلال أشجارها .

ثم أكد حصول ذلك لهم فقال :

(وعد الله لايخلف الله الميعاد) أى وعد الله هؤلاء المتقين بذلك ، ووعده الحق ، فهو لايخلف ما وعدهم ، بل يفى بوعده .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) .

شرح المفردات

فسلكه : أى فأدخله ، ينابيع : أى عيونا ومجارى ، ألوانه : أى أنواعه وأصنافه يهيج : أى يجف ، حطاما : أى فتاتا متكسرا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها — أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضّيها وشيكا، تحذيرا من الاغترار بزهرتها، والركون إلى لذتها، فمثّل حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا متكسرا، فما أسرع زواله، وأيسر تقضيه !.

الإيضاح

إنك أيها الرسول لتشاهد الماء وقد نزل من السماء فجرى عيونا فى الأرض فسقيت به أنواع مختلفة من النبات من برّ إلى شعير إلى أرز إلى نحو ذلك ثم نضجت وجفّت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة ثم صارت فتاتا متكسرة، فما أشبه حال الدنيا بحالها فهى سريعة التقضّى وشيكة الزوال، فليعتبر بذلك أولو الحجا، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض، ولا يغتروا ببهجتها ولا يفتنوا بزخرفها.

ونحو الآية قوله: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً».

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

شرح الصدر للإسلام : الفرح به والطمأنينة إليه ، والنور : البصيرة والهدى ، والقسوة : جمود وصلابة فى القلب ؛ يقال قلب قاسٍ : أى لايرقّ ولا يلين ، أحسن الحديث : هو القرآن ، متشابها : أى يشبه بعضه بعضا فى الحسن والأحكام ، مثانى : واحدها مثنى من التثنيه : أى التكرير ، تقشعر : أى تضطرب وتتحرك وتشمئز ، تلين أى تسكن وتطمئن ، الخزى : الذل والهوان ، يتذكرون : أى يتعظون ، غير ذى عوج : أى لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال :

وقد أتاك يقينٌ غير ذى عوجٍ　　　من الإله وقولٌ غيرُ مكذوبِ

المعنى الجملى

بعد أن بالغ فى ذكر مايدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه والإعراض عن الدنيا — أردف ذلك ببيان أنه لاينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره ونوّر قلبه وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن من يتقى بيديه المخاوف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لايفكر

فى مآل أمره، وعاقبة عمله، وبعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم، فلقد كَذَّبَ كثير قبلهم فأتاهم العذاب بغتة من حيث لايشعرون، فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والقتل والخسف، ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا، ثم ذكر أن القرآن قد ضرب الأمثال للناس لعلهم يرعوون ويتذكرون، بلسان عربى مبين لعلهم يتقون.

الإيضاح

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟) أى أفمن دخل النور قلبه فانشرح للإسلام لما رأى فيه من البدائع والعجائب المهيئة للحكمة، الممهدة لقبول الحق والموصلة إلى الرشاد — كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته ؟ وقد روى أن علامة ذلك الانشراح الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل حلول الموت.

والخلاصة — هل يستوى من أنار الله بصيرته ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق ؟

ونحو الآية قوله: « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ».

قال ابن عباس: من شرح الله صدره للاسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: « تلا النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يا نبى الله كيف انشراح صدره ؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، قلنا: فما علامة ذلك يارسول الله ؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». وأخرج الترمذى عن ابن عمر «أن رجلا قال يارسول الله: أى المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم ذكرا للموت، وأحسنهم له استعدادا، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع، فقالوا ما آية ذلك

يا نبى الله ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذى قدر فى الجملة السالفة فقال :

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى فالويل أشد الويل لمن قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أن تلين منه القلوب ، فهم إذا ذكر الله عندهم وذكرت دلائل قدرته وبدائع صنعه اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قسوة .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: اطلبوا الحوائج من السمحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى» .

ثم بين حالهم فقال :

(أولئك فى ضلال مبين) أى أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

وبعدئذ وصف القرآن الذى يشرح الصدر ويلين القلب فقال :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى الله أنزل أحسن الحديث قرآنا كريما يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة ، كما تتشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر ، تُثَنَّى وتردد قصصه وأنباؤه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود ، ووجلت القلوب ، وإذا تليت آيات

الرحمة والوعد لانت الجلود ، وسكنت القلوب ، واطمأنت النفوس . قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) أى ذلك الكتاب يهدى به الله من يشاء ويوفقه للإيمان .

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن والتصديق به ، فما له مُخرج من الضلالة ، ولا موفِّق لسلوك طريق الحق. ثم ذكر علة ما تقدم من تباين حال المهتدى والضالّ فقال :

(أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) أى أكل الناس سواء ؟ فمن شأنه أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه العذابَ الشديد السيئ يوم القيامة ، (لأن يده التى كان يتقى بها المكاره فى الدنيا مغلولة إلى عنقه) ، كمن هو آمن لايعتريه مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء محظور مخوف .

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين من الإهانة فى ذلك اليوم فقال :

(وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى — ذوقوا وبال ما كسبتم فى الدنيا ، ودسيتم به أنفسكم حتى أوقعتموها فى الهاوية ، النار الحامية .

ثم ذكر ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأخروى فقال :

(كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون . فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى إن بعض الأمم الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لاتحتسب ولايخطر لها بالبال ، فلحقها الذل والصغار فى الحياة الدنيا ، فأصيبت تارة بالمسخ وأخرى بالخسف وثالثة بالقتل أو السبى أو نحو ذلك من ضروب النكال والوبال ، و إن عذاب الآخرة لأنكى عاقبة وأشد أثرا لو علموا ذلك واعتبروا به .

ثم بين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ عبرة لهم لو كانوا يعقلون فقال :

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) أى ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين بالله أمثال القرون الخالية تخويفا لهم وتحذيرا ، ليتعظوا ويزدجروا ويقلعوا عماهم عليه مقيمون من الكفر بربهم، بكلام عربى لالبس فيه ولا اختلاف ، ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم ، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وسطوته ، وينيبوا إليه ويفردوه بالعبادة ، ويتبرءوا من الآلهة والأنداد .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) .

شرح المفردات

ضرب المثل : تشبيه حال عجيبة بأخرى وجعلها مثلا لها ، متشاكسون : أى مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة أخلاقهم ، سلما لرجل : أى خالصا لسيد واحد ، والميت (بالتشديد) من لم يمت وسيموت ، والميت (بالتخفيف) من قد مات وفارقته الروح ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألنى تفسير ميْتٍ وميّتٍ ... فدونك قد فسرتُ إن كنتَ تعقلُ
فمن كان ذا روح فذلك ميّت ... وما الميْت إلا من إلى القبر يُحمَلُ

تختصمون : أى تحتكمون للقضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحكمة فى ضرب الأمثال للناس، وهى أن تكون عظة وذكرى لهم ليتقوا ربهم، ويرعووا عن غيهم وضلالهم — أردفه بذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم، وهناك يستبين المحق والمبطل، والضال والمهتدى، فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم.

الإيضاح

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا؟) أى ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم: ماذا تقولون فى عبد مملوك قد امتلكه شركاء، بينهم اختلاف وتنازع؛ فهم يتجاذبونه فى حاجهم وهو حائر فى أمره إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين، وإذا احتاج إليهم فى مهمّ رده كل منهم إلى الآخرين، فهو فى عذاب دائم وتعب مقيم، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته، ويقضى له سائر حاجاته، فأىّ العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا؟ — الجواب لايحتاج إلى بيان — هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالاً حائرا لايدرى أىّ تلك الآلهة يَعبد؟ ولا على أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفده؟ أما من لم يثبت إلا إلٰها واحدا فهو قائم بما كلفه، عارف ما يرضيه وما يسخطه — لاشك أن البون بين حاليهما شاسع.

وقوله (هل يستويان مثلا) أى هل تستوى صفتاهما وحالاهما؟.

(الحمد لله) أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أن لا إله إلا هو — ثبت أن الحمد لله لالغيره.

(بل أكثرهم لايعلمون) أى بل أكثر الناس لايعلمون أن الحمد له لالغيره فيشركوا به سواه.

ولما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله ، وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز الحق من المبطل قال :

(إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أى إنك ستموت وهم سيموتون ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتجُّ أنت عليهم بأنك قد بلّغت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لاطائل تحته ، وبما لايدفع عنهم لوما ولا تقريعا ، ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضللتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآباؤنا الأولون .

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرَض أو مال فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه» رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المُفْلِسُ ؟ قالوا المُفْلِس فينا من لادرهم له ولا متاع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيُعْطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فَنِيَتْ حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» أخرجه مسلم .

وعن أبى سعيد الخُدْرى قال : لما نزلت هذه الآية كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صِفِّين ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ووفِّقْنا لما فيه رضاك .

تم هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثلاث بقين من ذى القعدة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	جمع الناس للحساب والجزاء .
٦	البعث ممكن وليس بمستحيل .
١٠	القرآن يدل على أن جميع الكواكب سائرة .
١٣	لكل من الشمس والقمر مدار يسبح فيه .
١٥	السفن البرية والسفن الهوائية .
١٩	تأتى الساعة بغتة والناس لا يشعرون .
٢٠	خروج الخلق من الأجداث .
٢٢	ما يتمتع به أهل الجنة من مآكل ومشارب .
٢٣	شهادة الأيدى والأرجل على المجرمين يوم القيامة .
٣٠	ماينبغى للرسول أن يكون شاعرا .
٣٢	عاقبة من أعرض عن النظر فى آيات ربه .
٣٤	تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى قومه .
٣٦	دليل القدرة فى الأنفس والآفاق .
٣٩	تنزيهه سبحانه عما لا يليق به .
٤٢	قسمه تعالى بملائكته بأن الإله واحد .
٤٤	الدنيا بيت فرشه الأرض وسقفه السماء .
٤٥	الدليل على الحشر والنشر وقيام الساعة .

الصفحة	المبحث
٤٧	مقالتهم فى القرآن .
٤٩	يحشر الظالمون مع من على شاكلتهم فى المعاصى .
٥١	يوم القيامة يتخاصم الأتباع والرؤساء من أهل الضلال .
٥٦	وصف خمور الجنة .
٥٩	سمر أهل الجنة فى الجنة .
٦٠	اغتباط المؤمنين بما آتاهم ربهم من النعيم .
٦٣	وصف شجرة الزقوم .
٦٤	تقليد الأبناء للآباء .
٦٥	تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قومه ليسوا بدعا فى الأمم .
٦٨	تقريع إبراهيم لقومه على عبادة الأصنام .
٧١	عدول قومه عن الحجاج إلى استعمال القوة .
٧٣	طاعة إسماعيل لأبيه فى ذبحه تنفيذاً للرؤيا .
٧٦	الذبيح إسحاق أم إسماعيل ؟
٧٨	نعم الله على موسى وهارون .
٨١	قصص لوط عليه السلام .
٨٢	قصص يونس عليه السلام .
٨٤	توبيخ المشركين على نسبة البنات إليه سبحانه .
٩٣	مجمل ما حوته هذه السورة .
٩٤	سورة ص .
٩٦	عجب المشركين من قول الرسول : إن الإله واحد .
٩٨	الأسباب التى تمنع فى زعمهم أن يكون محمد نبيا .
١٠٤	قصص داود عليه السلام .

الصفحة	المبحث
١٠٧	قضية من قضايا داود التي حكم فيها .
١١٠	الرد على المفسرين فيما قالوه فى قصص داود .
١١٤	الحكمة فى خلق هذا الكون .
١١٥	ليس من العدل مساواة البرّ بالفاجر فى الجزاء .
١١٧	عرض سليمان للصافنات الجياد والحكمة فى ذلك .
١١٩	تسخير الريح لسليمان عليه السلام .
١٢٣	داء أيوب عليه السلام ودواؤه ورفض ماقيل فى ذلك نقلا عن اليهود .
١٣٠	وصف نعيم المتقين فى مآكلهم ومشاربهم .
١٣٣	محاورة بين رؤساء الضلال وأتباعهم .
١٣٥	الرسول منذر لامسيطر .
١٣٦	الأدلة التى ترشد إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
١٤١	اعتذار المشركين عن عبادة الأصنام .
١٥٠	تهديد المشركين على أفعالهم القبيحة .
١٥٢	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصح المؤمنين بنصائح .
١٥٣	للصابرين أجرهم بغير حساب .
١٥٦	بشرى من يسمعون القول فيتبعون أحسنه .
١٥٨	صفات الدنيا الموجبة للنفرة منها .
١٥٩	وجوب الإقبال على طاعة الله .
١٦٠	ضرب القرآن الأمثال للناس .
١٦٤	أصيبت الأمم الماضية بضروب من العذاب فى الدنيا قبل الآخرة .

A ٢٠

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقاً

الجزء الرابع والعشرون

مكتبة العرب
لصاحبها
يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥هـ — ١٩٤٦م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الرابع والعشرون

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

مثوى : مُقاما ؛ من ثوى بالمكان يثوى ثُويًا وثُواء : إذا أقام به ، والذى جاء بالصدق : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدّق به هم أتباعه ، أسوأ الذى عملوا : أى ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، ويجزيهم أجرهم : أى يثيبهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بعض هنات المشركين ، و بعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم — أردف ذلك بنوع آخر منها ، وهو أنهم يكذبون فيثبتون لله ولداً ويثبتون له شركاء ، ويكذّبون القائل الحق ، فيكذبون محمداً بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، و بعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ، ووعد المصدّقين له ، فذكر أن الله يؤتيهم من فضله الثواب و يمنع عنهم العقاب .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق) أى لا أحد يبلغ ظلمه ظلم من افترى على الله الكذب فجعل معه آلهة أخرى ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله وهو أيضا كذّب بالحق الذى جاء به رسوله من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته وإخبارهم بالبعث والنشور .

وفى قوله (إذ جاءه) بيان لأنهم كذبوا به من غير وقفة ولا إعمال روّية بتمييز بين حق و باطل كما يفعل أهل النَّصَفة فيما يسمعون .

و بعد أن ذكر حالهم أردفه بوعيدهم فقال :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليس فى النار مأوى ومسكن لمن كفروا بالله وأبوا تصديق رسوله وامتنعوا عن اتباعه فيما يدعو إليه من التوحيد والشرائع التى أنزلها عليه .

وخلاصة هذا — ألا يكفيهم ذلك جزاء على أعمالهم .

و بعد أن ذكر حال المكذبين ووعيدهم أردفه بذكر الصادقين المصدقين ، ومدحهم على ما فعلوا فقال :

(والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) أى والذى جاء بالصدق

وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدّق به وهم أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على طريقه — هم الذين اتقوا الله فوحدوه وبرئوا من الأوثان والأصنام وأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه، رجاء ثوابه وخوف عقابه.

ثم ذكر ما وعدهم به من ثواب عظيم ونعيم مقيم فقال:

(لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) أى لهم من الكرامة عند ربهم ما تشتهيه أنفسهم وتقرّ به أعينهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك جزاء من أحسن عملا، فأخلص لربه فى السر والنجوى، وراقبه فى أقواله وأفعاله، وعلم أنه محاسب على النقير والقطمير، والجليل والحقير.

ثم بين سبحانه ما هو الغاية لهم عند ربهم فقال:

(ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) وذلك أعظم ما يرجونه من دفع الضر عنهم؛ والنفس إذا علمت زوال المكروه عنها كان فى ذلك سرور ولذة لها تعدل السرور واللذة بجلب المنافع لها.

(ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) أى ويثيبهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساويها، وقدّم تكفير السيئات على إعطاء الثواب، لأن دفع المضار أهم من جلب المسارّ.

وفى ذكر تكفير الأسوإ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه.

أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ؛ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠).

شرح المفردات

بكاف عبده: أى يكفيه وعيد المشركين وكيدهم، الذين من دونه: هم الأصنام، ذى انتقام: أى ممن عاداه وعادى رسوله.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يؤتى المؤمنين ما يشاءون فى الجنة ويكفر عنهم سيئاتهم — أردف ذلك ببيان أنه يكفيهم فى الدنيا ما أهمهم، ولا يضيرهم ما يخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام، فإن الأمور كلها بيده تعالى؛ فمن يضلله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له، وهو ذو العزة المنتقم الجبار. ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم، فحين تسألهم من خلق السموات والأرض يقولون الله؟ وهم مع ذلك يعبدون غيره، ثم سألهم سؤال تعجيز: هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضرا أراده الله بأحد، أو يمنع خيرا قدره الله لأحد؟ إذا فالله حسبى وعليه أتوكل.

وبعد أن أعيته الحيلة فى أمرهم ـ أمره أن يقول لهم: اعملوا كما تشاءون، وعلى نحو ما تحبون، إنى عامل على طريقتى؛ ويوم الحساب ترون المحق من المبطل، ومن سيحل به العذاب المقيم الذى سيخزيه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الإيضاح

(أليس الله بكاف عبده ؟) أى الله وحده هو الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصايب والويلات ، ويعطيهم جميع المشتهيات ، والمراد أنه يكفى مَن عَبَدَه وتوكل عليه .

وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لايتيسر لأحد أن ينكرها .

ثم رتب على ذلك ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(ويخوفونك بالذين من دونه) أى ويخوفك المشركون بغير الله من الأوثان والأصنام عبثا وباطلا ، لأن كل نفع أو ضر فلا يصل إلا بإرادته تعالى . وقد روى أنهم خوّفوا النبى صلى الله عليه وسلم مضرة الأوثان فقالوا : أتسبّ آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنّك أو تصيبنّك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد ، فإن لها شدة لايقوم لها شىء ، فعمَد خالد إلى العُزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس .

وفى الآية إيماء إلى أنه يكفى نبيه صلى الله عليه وسلم دينه ودنياه ، ويكفى أتباعه أيضا ، ويكفيهم شر الكافرين .

ونحو الآية قوله : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ » .

ثم أبان شديد جهلهم لتوعدهم بما لايضر ولا ينفع فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يضلله الله لتدسيته نفسه وحبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال .

(ومن يهد الله فما له من مضلّ) أى ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية

نفسه وتحبيبها إلى صالح العمل ، فلا مضلّ له يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء بغير سلوكه ، إذ لارادّ لفعله ولا معارض لإرادته ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(أليس الله بعزيز ذى انتقام) أى الله عزيز لايغالب ، ومنيع لاينازع ولا يمانع، وذو انتقام من أعدائه لأوليائه ، فهو الذى لايضام من استند إلى جنابه ، أو لجأ إلى بابه .

ثم أقام الدليل على غفلتهم وشديد جهلهم فى عبادتهم للأصنام والأوثان مع تفرده تعالى بالخالقية لكل شىء وعدم خلقها شيئا فقال :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى إن هؤلاء المشركين يقرون بوجود الإله العالم الحكيم لوجود الدليل ، ووضوح السبيل الذى لايمكن إنكاره ، فإذا هم سئلوا اعترفوا به ، وإذا كان كذلك فكيف ساغ لهم عبادة غير الخالق أو تشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكال الفطنة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم ، وأحسنوا الظن بهم ، هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يبكتهم ويوبخهم بعد هذا الاعتراف فقال :

(قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هنّ ممسكات رحمته ؟) أى أخبرونى عن آلهتكم هذه ، هل تقدر على كشف ما أراده الله بى من الضر أو منع ما أراده لى من الخير ؟ وإذا لم تكن لها قدرة على شىء فلا ينبغى التعويل عليها ولا عبادتها ، بل نعبد الإله القادر الذى تكون عبادته كافية فى جلب السراء ودفع الضراء .

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبى صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لاتدفع شيئا من قدر الله ولكنها تشفع فنزل قوله :

(قل حسبى الله) فى جميع أمورى من جلب نفع أو دفع ضر ، فلا أخاف شيئا من أصنامكم التى تخوفوننى بها .

(عليه يتوكل المتوكلون) أى عليه لا على غيره يعتمد العاملون .

وفى الحديث « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

وروى عن ابن عباس أنه قال: «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، رُفعت الأقلام ، وجفّت الصحف ، واعمل لله بالشكر فى اليقين . واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ونحو الآية قول هود عليه السلام : « إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » حين قال له قومه : « إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

ولما أورد عليهم الحجة التى لا دافع لها ـ أمر رسوله أن يقول لهم على وجه التهديد:

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون. من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أى اعملوا على ما أنتم تعتقدون فى أنفسكم من القوة والشدة واجتهدوا فى أنواع مكركم وكيدكم فإنى عامل أيضا فى تقرير دينى والسعى فى نشره بين الناس ، فسوف تعلمون أن العذاب والخزى فى الدنيا يصيبنى أو يصيبكم ، فيظهر حينئذ أينا المبطل أنا أو أنتم ، ويحل علىّ العذاب المقيم الدائم فى الآخرة أو عليكم .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥).

المعنى الجملى

بعد أن حاجهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وحدانيته تعالى — سلاه عن إصرارهم على الكفر الذى كان يعظم عليه وقعه كما قال: « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال: « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وأزال عن قلبه الخوف فأعلمه أنه أنزل عليه الكتاب بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه، فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه، ومن ضل فضير ضلاله عليه، وما وُكل عليهم ليجبرهم على الهدى.

ثم ذكر أنه تعالى يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهرا وباطنا، وظاهرا فقط حين النوم؛ فيمسك الأولى ولا يردها إلى البدن، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة، وفى ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر.

ثم أبان أن هذه الأصنام التى اتخذت شفعاء لاتملك لنفسها شيئا ولا تعقل شيئا، فكيف تشفع ؟ و بعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم وأنه إذا قيل لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد .

الإيضاح

(إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن بالحق لتبلغه للإنس والجن مبشرا برحمة الله ، ومنذرا بعقابه ، وفيه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم والهادى لهم إلى الصراط المستقيم .

(فمن اهتدى فلنفسه) أى فمن عمل بما فى الكتاب الذى أنزل عليك واتبعه فإنما بغى الخير لنفسه ، إذ أكسبها رضا خالقها وفاز بالجنة ونجا من النار .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن حاد عن البيان الذى بيناه لك ، فضل عن الحجة ، فإنما يجور على نفسه ، وإليها يسوق العطب والهلاك ، لأنه يكسبها سخط الله وأليم عقابه فى دركات الجحيم « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(وما أنت عليهم بوكيل) أى وما أنت أيها الرسول برقيب على من أرسلت إليهم ترقب أعمالهم وتحفظ عليهم أفعالهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال :

(الله يتوفى الأنفس حين موتها) أى الله هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء أجلها بالموت ، ويقطع تعلقها بالجسد تعلق المتصرف فيه .

(والتى لم تمت فى منامها) أى ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الجسد مع بقاء الروح متصلة به .

(فيمسك التى قضى عليها الموت) أى فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الجسد .

(ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) أى ويرسل النائمة إلى الجسد حين اليقظة إلى أجل مسمى هو وقت الموت .

روى عن ابن عباس أنه قال : إن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها النفَس والتحريك ، فيتوفيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها حين النوم .

وأخرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره (طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن) فإنه لايدرى ما خَلَفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وأخرج أحمد والبخارى وأبو داود وابن أبى شيبة عن أبى قتادة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادى : إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء » .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت أنا ، فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحرّ الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية فى أجساد العباد ، فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء » .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال :

العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء ولم يخطر على باله فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئا ! فقال على كرم الله وجهه ، أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهى عنده سبحانه فى السماء فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهى الكاذبة ، لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها ، وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله رضى الله عنهما اهـ .

ومن هذا تعلم أن النفس علوية هبطت من المحل الأرفع ، وشغلت بتدبير منزلها فى ليلها ونهارها ، ولا تزال تنتظر العود إلى ذياك الحمى ، فحين النوم تنتهز الفرصة ، فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور وتستعد لقبول بعض آثاره ، والاستضاءة بشىء من أنواره ؛ فمتى رأت وهى فى تلك الحال فاضت عليها أنواره فكانت الرؤيا صادقة ، ومتى رأت وهى راجعة القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام ، وتزدحم فيه أىّ ازدحام ، كانت رؤياها كاذبة ، وهى فى كلتا الحالين متفاوتة على حسب الاستعداد ؛ والله ولى التوفيق ، ومنه الهداية لأقوم طريق .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم ، ثم يرسلها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها .

ثم أنكر على المشركين اتخاذ الأصنام شفعاء ، فقال :

(أم اتخذوا من دون الله شفعاء) أى بل اتخذ المشركون آلهتهم التى يعبدونها لتشفع لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم ؟

وإجمال المعنى — إنه لاينبغى لهم ذلك ، إذ لايخطر على بال عاقل فائدة لهذا ، ومن ثم أمر رسوله أن يتهكم بهم ويحمقهم على ما يفعلون فقال :

(قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون) أى قل لهم أيها الرسول : أتتخذون شفعاء كما تزعمون ، ولو كانوا لايملكون لكم نفعا ، ولا يعقلون أنكم تعبدونهم .

ثم أمر رسوله أن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

(قل لله الشفاعة جميعا) فليس لأحد منها شىء إلا بإذنه لمن ارتضى كما قال : «مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ؟» وقال : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى » .

والخلاصة — إنه تعالى مالك الشفاعة كلها ، لايستطيع أحد شفاعة لديه إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذونا له ، وكلاهما ليس بموفور هنا .

ثم بين العلة فى أن الشفاعة جميعا له فقال :

(له ملك السموات والأرض) أى له السلطان فى السموات والأرض ، وكل من فيها ملك له ومنها ما تعبدون من دونه ، فاعبدوا مالك الملك كله الذى لايتصرف أحد فى شىء منه إلا بإذنه ورضاه .

(ثم إليه ترجعون) أى ثم إليه مصيركم بعد البعث وهو معاقبكم على إشراككم به سواه إن أنتم متم على هذه الحال .

وخلاصة ذلك — اعبدوا من يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضركم فيها ، وفى الآخرة بعد مماتكم يجازيكم بما قدمتم من عمل ، خيرا كان أو شرا .

ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الذى تقشعر منه الجلود خشية .

ثم ذكر هفوة من هفواتهم التى تصدر منهم ، وتدل على غفلة عظيمة وتناقض بين الاعتراف بالألوهية وإنكارها فقال :

(وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الاشمئزاز أن يمتلىء القلب غيظا وغما ينقبض عنهما أديم الوجه كما يرى فى وجه العابس المحزون ، والاستبشار أن يمتلىء القلب سرورا تنبسط له بشرة الوجه .

أى إنه إذا قيل لا إله فى الكون إلا الله وحده نفرت قلوب أولئك المشركين الذين لايؤمنون بالبعث والمعاد بعد الموت ، وإذا ذكرت الآلهة التى يدعونها من دون الله فقيل : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى؛ استبشروا وفرحوا لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى .

قال ابن عباس فى الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لايؤمنون بالآخرة أبو جهل بن هشام والوليد بن عتبة وصفوان وأبىّ بن خلف .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » .

قال السيد الألوسى فى تفسيره ناعيا حال المسلمين اليوم : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف الله تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق أهواءهم ومعتقداتهم فيهم ، ويعظمون من يحكى لهم ذلك ، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل ، وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره ، وقد قلت يوما لرجل يستغيث فى شدة ببعض الأموات ، وينادى يا فلان أغثنى ، فقلت له: قل يا ألله فقد قال سبحانه : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فغضب وبلغنى أنه قال : فلان منكر على الأولياء ، وسمعت من بعضهم أنه قال : الولى أسرع إجابة من الله عز وجل ، وهذا من الكفر بمكان ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان اهـ .

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد — أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه فى أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم ، تسلية له ، وبيانا لأن سعيه مشكور ، وجِدّه معلوم لديه ، وتعليما لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى ، ثم ذكر أحوالهم يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال وما ينتظرهم من العذاب .

الإيضاح

(قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى قل : يا ألله يامبدع السموات والأرض ، ويا عالم ماغاب عنا وما تشهده العيون والأبصار ، أنت تحكم بين عبادك فتفصل بينهم بالحق ، يوم تجمعهم لفصل القضاء فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا من القول فيك وفى عظمتك وسلطانك ، فتقضى بيننا وبين المشركين الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم ، وإذا ذكر مَنْ دونه استبشروا وفرحوا .

أخرج مسلم وأبو داود والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته . اللهم ربَّ جبريل

وميكائيل و إسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا أن نقول : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت رب كل شىء و إله كل شىء ، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما أو أجرّه إلى مسلم » . قال أبو عبد الرحمن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام .

وقال أبو بكر الصديق : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول إذا أصبحت ، و إذا أمسيت ، و إذا أخذت مضطجعى من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شىء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم» رواه الترمذى .

و بعد أن ذكر معتقداتهم الفاسدة ذكر فى وعيدهم أمورا :

(١) (ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أى ولو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما فى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه ، وقُبِلَ ذلك منهم يوم القيامة لافتدوا به أنفسهم من أهوال ذلك العذاب الشديد الذى سيعذبون به ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة آل عمران .

(٢) (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) أى وظهر لهم من عذاب الله

الذى أعده لهم مالم يكن فى حسبانهم ولم يحدثوا أنفسهم به .

وفى هذا وعيد عظيم لهم وتهديد بالغ غاية لاغاية وراءها .

قال مجاهد : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات ، وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديداً فقيل له : ماهذا الجزع ؟ قال أخاف آية من كتاب الله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب .

(٣) (وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وظهر لهم حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم ما كانوا اجترحوه من السيئات وارتكبوه من الآثام وعلموا أنهم مجازون على النقير والقطمير ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، وأيقنوا أنهم مواقعوه لامحالة ؛ لاستهزائهم بما كان ينذرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن المشركين بعض هنواتهم الفاسدة — حكى عنهم هناة أخرى هى أنهم حين الوقوع فى الضر من فقر أو مرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما

منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون على ماحباهم به من النعم أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لايعلمون ذلك .

وما هذه المقالة ببدع منهم بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله يبسطه تارة ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإنا نرى كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير للمال وحسن تصريفه فى ضيق شديد ، وكثيراً من الجهلاء والحمق فى بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

الإيضاح

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن أمر المشرك عجيب يدعو إلى الدهشة والحيرة ، فإذا هو أصيب بضر من فقر أو مرض جأر إلى الله واستعان به لكشف ذلك الضر عنه ـ وإذا تغيرت الحال ونال شيئا من الرخاء أو زال عنه ما به من العلة قال : إنما أوتيت هذا لعلمى بوجوه المكاسب وجدى واجتهادى ، أو لذهابى إلى الأطباء واهتمامى بالعلاج فلم أدخر دواء ناجحا إلا بذلت نفيس المال للحصول عليه .

وهذا منه تناقض عجيب ، ففى الحال الأولى يستغيث بربه ، وفى الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه ويقطع صلتها عن المنعم بها الذى أوجدها وأرادها ، وفى الحق إن ما أعطيه من النعم إنما هو فتنة واختبار لحاله ، أيشكر أم يكفر ، أيطيع أم يعصى ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله وامتحان لهم ؛ ومن ثم يقولون مايقولون ، ويدّعون من الدعاوى ما لا يفقهون .

ثم بين أن هذه مقالة ليست وليدة أفكارهم بل سبقهم بها كثير ممن قبلهم فقال :

(قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى قد زعم مثل هذا الزعم وادعى مثل هذه الدعوى كثير ممن سبقهم من الأمم ، فلم يغن عنهم شيئا حين جاءهم أمر ربهم على تكذيبهم رسله واستهزائهم بهم ، ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا ويجمعون من حطامها .

ثم ذكر ماهو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فأصابهم سيئات ما كسبوا) أى لحق بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال ، فعوجلوا بالخزى فى الدنيا كالخسف الذى لحق بقارون ، والصاعقة التى نزلت بقوم لوط ، وسيصيبهم النكال الدائم فى الآخرة .

ثم أوعد سبحانه مشركى قومه على ماسيئاتهم فى الدنيا والآخرة فقال .

(والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا) أى والذين كفروا بالله من قومك وظلموا أنفسهم سيصيبهم أيضا وبال السيئات التى اكتسبوها ، كما أصاب الذين من قبلهم . فأصابهم القحط سبع سنين متوالية وقتل صناديدهم يوم بدر ، وأسر منهم العدد الكثير .

(وما هم بمعجزين) أى وما هم بفائتين الله هربا يوم القيامة ، بل مرجعهم إليه ويصنع بهم ما شاء من العقوبة .

ثم أقام الدليل على قدرة الله وعظيم حكمته فقال :

(أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟) أى أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى المكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق ، والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقرون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله لاسواه .

وإنما خص المؤمنين بذلك ، لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها .

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) .

شرح المفردات

الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى ، لاتقنطوا : أى لاتيأسوا ، والإنابة : الرجوع . والإسلام لله : الإخلاص له ، أحسن ما أنزل إليكم من ربكم : هو القرآن ، بغتة : أى فجأة ، ياحسرتا : أى ياحسرتى وندمى ، فرّطت : أى قصرت ، فى جنب الله : أى فى عبادته وطاعته ، لمن الساخرين : أى المستهزئين ، كرة : أى رجعة .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن وعيد الكافرين فيما سلف — أردفه بذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنْبَهَةٌ لهم من ضلالهم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ودعا مع الله إلهاً آخر ، وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله (قل ياعبادى) الآية .

الإيضاح

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) أى قل أيها الرسول للمؤمنين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا حدود الله ، فارتكبوا محارمه وتركوا أوامره : لا تيأسوا من مغفرة الله ، فهو يغفر الذنوب جميعا لمن تاب إليه ولجأ إلى جنابه ، وإن كثرت وكانت كزبد البحر .

روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل : « وَالَّذِينَ لاَيَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ » ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » .

والمراد من الآية الأولى قوله : « إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا » الآية .

وروى أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب

أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر الآية ، فقال رجل يارسول الله فمن أشرك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ألا ومن أشرك — ثلاث مرات » .

وروى أحمد أيضا عن عمر بن عنبسة رضى الله عنه قال : « جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يتوكأ على عصا له فقال : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات ، فهل يُغفر لى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم قد غفر لك غدراتك وفجراتك » .

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة والإخلاص فى العمل ، ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله ، فإن باب الرحمة واسع كما قال : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » وقال : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن سُتَيْد بن شَكَل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » فقال له مسروق : صدقت .

وبعد أن نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، فيحل الرجاء مكانه . وجاء بما لا يبقى بعده شك ولا يخالج القلب عند سماعه ظن فقال :

(إن الله يغفر الذنوب جميعا) أى إن الله يغفر كل ذنب ، كائنا ما كان

إلا ما أخرجه النص القرآنى ، وهو الشرك بقوله : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين فى رجائه ، الخالعين لثياب القنوط ، المحافظين لسوء الظن بمن لايتعاظمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجهين إليه فى طلب العفو ، الملتجئين إليه فى مغفرة ذنوبهم .

ثم ذكر علة ذلك فقال :

(إنه هو الغفور الرحيم) بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد التوبة منها .

فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته — أولى بهم مما بشرهم الله به ، فقد ركب أعظم الشطط ، وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير هو الذى جاءت به نصوص الكتاب ، وهو المسلك الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه من قوله : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

وبعد أن وعد سبحانه بالمغفرة أمر بشيئين :

(١) الإنابة إليه بقوله : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) أى أيها الناس أنيبوا إلى ربكم بالتوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة ، واستجيبوا إلى مادعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية له قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتجدوا نصيرا ولا معينا من عذابه النازل بكم .

(٢) اتباع الأحسن بقوله : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون) أى واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لاتعلمون به حتى يغشاكم ، ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد .

ولما خوفهم بالعذاب ذكر علة ذلك فقال :

(١) (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) أى بادروا إلى العمل واحذروا أن تقول بعض الأنفس : ياحسرتى على تقصيرى فى طاعة الله، وسخريتى واستهزائى بدين الله وكتابه، وبرسوله وبالمؤمنين.

(٢) (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) أى أو تقول : لو أن الله أرشدنى إلى دينه وطاعته، لكنت ممن اتقى الله فترك الشرك والمعاصى .

(٣) (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) أى أو تقول حين رؤية العذاب : ليت لى رجعة إلى الدنيا فأكون من المهتدين المحسنين لعقيدتهم وأعمالهم .

وخلاصة ذلك — إن هذا المقصر تحسر على التفريط فى الطاعة، وفقد الهداية ثم تمنى الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات .

فأجابه سبحانه بقوله :

(بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) أى إنه لافائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتى فى الدنيا على لسانى رسولى الذى أرسلته إليك وفى كتابى الذى يتلوه عليك، ويذكرك بما فيه من وعد ووعيد، وتبشير وإنذار فكذبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستنّ بسنتهم ويتبع مناهجهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) .

شرح المفردات

وجوههم مسودة : أى لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ، والمثوى : المقام ، والمفازة : الظفر بالبغية على أتمّ وجه .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المشركين فيما سلف بما سيكون لهم من الأهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم — أردف ذلك بذكر حال لكل منهما تبدو للعيان ، ويشاهدها كل إنسان ، يوم العرض والحساب .

الإيضاح

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) أى وترى أيها الرسول يوم القيامة وجوه الذين كذبوا على الله ، فزعموا أن له ولداً وأن له شريكا وعبدوا آلهة من دونه — مجللة بالسواد ، لما أحاط بها من الكآبة والحزن الذى علاها ، والغم الذى لحقها .

ثم علل هذا وأكده بقوله :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليست النار كافية لهم سجنا وموئلا ، ولهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال : « هو سفه الحق وغمص (احتقار) الناس » وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ ، يلحقهم الصَّغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم » .

(وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) أى وينجى الله من عذاب جهنم الذين اتقوا الشرك والمعاصى وينيلهم ما يبتغون ، ويعطيهم فوق ما كانوا يؤملون .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة قال: « يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رُعبٌ أو خوف قال له : لا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ولا أنت المعنىّ به ، فإذا كثر ذلك عليه ، قال فما أحسنك ؟ فمن أنت ؟ فيقول أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح ، حملتنى على ثقلى ، فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك ، فهى التى قال الله: « وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ».

ثم بين هذه المفازة فقال :

(لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) أى لا يمسهم أذى جهنم ولا يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا ، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه ، نعيم مقيم ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر .

وخلاصة ذلك — إنهم أمنوا من كل فزع ، و بعدوا من كل شر ، وفازوا بكل خير .

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

وكيل : أى قيّم بالحفظ والحراسة فيتولى التصرف على حسب الحكمة والمصلحة ، مقاليد : أى مفاتيح لفظ فارسى معرّب ، واحده إقليد معرب إكليد جمع جمعا شاذا ، ليحبطن عملك : أى ليذهبن هباء ولا يكون له أثر ، وما قدروا الله حق قدره : أى ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به ، والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض ، بيمينه : أى بقدرته .

المعنى الجملى

بعد أن بسط الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك — عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به سواه ، وأنهم إن فعلوا غير ذلك حبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية .

الإيضاح

(الله خالق كل شىء) أى هو سبحانه الخالق للأشياء جميعا من خير وشر وإيمان وكفر بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما ، وكلها تحت جبروته وقهره .

(وهو على كل شىء وكيل) أى وهو القائم على كل الأشياء يتولاها بحراسته وحفظه على حسب ما تقتضيه المصلحة ، فهى محتاجة إليه فى بقائها كما هى محتاجة إليه فى وجودها .

ثم فصل ذلك بعض التفصيل فقال :

(له مقاليد السموات والأرض) أى هو حافظ الخزائن ومدبرها ومالك مفاتيحها فله التصرف فى كل شىء مخزون فيهما .

والخلاصة — هو القادر عليهما والحافظ لهما .

أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال لى يا عثمان : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك .

مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ، وأستغفر الله الذى لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » وعلى هذا فالمراد أن هذه الكلمات يوحّد بها ويمجّد وهى مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه خيرهما

(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) أى والذين كفروا بالأدلة التى وضعت فى الأكوان وجاءت فى القرآن ، دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته و بديع حكمته — أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات والأرض ، لأنهم حرموا من ذلك فى الآخرة بخلودهم فى النار .

ثم أمر رسوله أن يوبخهم على أمره بعبادة الأصنام والأوثان فقال :

(قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) أى قل لمشركى قومك الداعين لك إلى عبادة الأصنام والقائلين لك : هو دين آبائك : أفتأمرونى أيها الجاهلون بعد مشاهدتى الآيات الدالة على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية — أن أعبد غيره ، والعبادة لا تصلح لشىء سواه .

روى عن ابن عباس « أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ويطئون عقبه (أى يطفئون دعوته ويزيلونها) وقالوا هذا لك يا محمد وتكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها

بسوء ، قال حتى أنظر ما يأتينى من ربى فنزل : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » إلى آخر السورة ، ونزل (قل أفغير الله تأمرونى — إلى قوله — من الخاسرين) » .

وعنه أيضا : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة آلهتهم وهم يعبدون معه إلهه .

ثم حذر وأنذر عباده من الشرك فقال :

(ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) أى ولقد نزل عليك الوحى من ربك بأنه إذا حصل منك إشراك به بعبادة صنم أو وثن ليبطلنّ كل عمل لك من أعمال الخير كصلة رحم وبرّ ببائس فقير ولا تنال به ثوابا ولا جزاء ولتكونن ممن خسروا حظوظهم فى الدنيا والآخرة ، وأوحى إلى الرسل من قبلك مثل هذا .

فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك ، وهذا كلام سيق على سبيل الفرض والتقدير لتهييج المخاطب المعصوم ، والإيذان بشناعة الإشراك وقبحه ، حتى لينْهى عنه من لايكاد يفعله فكيف بغيره ؟ والحكم بحبوط عمل المشرك فى الآخرة مقيدّ بما إذا مات وهو كذلك بدليل قوله فى الآية الأخرى : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

ثم رد عليهم ما أمروه به من عبادة الأصنام وأمره بعبادته وحده فقال :

(بل اللهَ فاعبد) أى لاتعبد ما أمرك به قومك ، بل اللهَ فاعبده دون سواه من الأنداد والأوثان .

(وكن من الشاكرين) لإنعامه عليك بما هداك من التوحيد والدعاء إلى دينه ، وما اختصك به من الرسالة .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وما قدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا غيره معه ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامحمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية .

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعة آخرين عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » وهو يقول هكذا بيده يحركها يُقْبِلُ بها ويُدْبِرُ ، يمجد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرّنّ به » .

(والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) أى إن الأرض جميعاً تحت ملكه يوم القيامة يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يتصرف فيها سواه ، والسموات مطويات طى السجل للكتب بقدرته التى لا يتعاصَى معها شىء ، وفى هذا رمز إلى أن مايشركونه معه فى الأرض أو فى السماء مقهور تحت سلطانه جل شأنه .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟» .

وقد علمت أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه ، وأن الخلف يؤولونه ، والأول أسلم ، والثانى أحكم .

قال صاحب الكشاف : والغرض من هـذا الكلام إذا أخذته بجملته ومجموعه — تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز اهـ .

وقال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه اهـ .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة ، والحكمة الباهرة .

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الصور : القرن ينفخ فيه ، صعق : أى غشى عليه ، ينظرون : أى ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ ، وأشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت ، بنور ربها : أى عدله ، ووضع الكتاب : أى ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، بالحق : أى بالعدل ، ماعملت : أى جزاء ما عملت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عظمته تعالى بأنه خالق كل شىء وهو الوكيل على كل شىء ، وبيده مقاليد السموات والأرض -- أردف هنا بذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، بذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ، ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا من خير أو شر .

الإيضاح

(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) بين سبحانه ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء والنفخ فى الصور ، وإنما هما نفختان يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية بعد أن كانوا عظاما ورفاتا .

أخرج ابن ماجه والبزار وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا « إن صاحبى الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر ؟ متى يؤمران » ؟

وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : « ذكر رسول الله صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل » .

وليس فى القرآن ولا فى صحيح الأخبار ما يدل على تعيين من استثناهم الله من الصعق والفزع ، ومن ثم قال قتادة لا ندرى من هم ؟ .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » . وقوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » .

وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

(وأشرقت الأرض بنور ربها) أى وأضاءت أرض المحشر بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط فى الحساب . ووزن الحسنات والسيئات .

(ووضع الكتاب) أى وضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين كما قال : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » . وقال فى آية أخرى : « مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » .

(وجىء بالنبيين) ليكونوا شهداء على أممهم كما قال : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

(والشهداء) أى الحفظة من الملائكة الذين يقيدون أعمال العباد خيرها وشرها كما يدل على ذلك قوله : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » . فالسائق يسوق للحساب ، والشهيد يشهد عليها .

و بعد أن بين أنه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات — بين أنه يوصل إلى كل أحد حقه كاملا غير منقوص ، ودل على ذلك بأربع عبارات :

(١) (وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بينهم بالعدل والصدق .

(٢) (وهم لايظلمون) بنقص ثواب ولا زيادة فى عقاب ، ونحو الآية قوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

(٣) (ووُفيت كل نفس ما عملت) أى وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت جزاء كاملا .

(٤) (وهو أعلم بما يفعلون) فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب فلا يفوته شىء من أعمالهم ، ومن ثمّ يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

والخلاصة — إنما وضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة ، لالحاجة إليها فى علم الله بما يعملون وما يقولون ، ثم جزائهم على ما قدموا من خير أو شر .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الإهانة والاحتقار ، والزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض ، والخزنة : واحدهم خازن نحو سدنة وسادن ، وينذرونكم : أى يخوفونكم ، حقت : أى وجبت .

المعنى الجملى

بعد أن شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال بقوله : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ » — فصل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ من خزنة جهنم على طريق السؤال والجواب التهكمى وهو أشد وقعاً على الأبىّ العيوف الذى تأبى نفسه الهوان والاحتقار .

الإيضاح

(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) أى وسيق الكافرون بربهم المشركون به الأصنام والأوثان إلى جهنم سوقا عنيفا ، أفواجا متفرقة بعضها فى إثر بعض على حسب ترتب طبقاتهم فى الضلال والشر بزجر وتهديد ووعيد ، كما يساق المجرمون فى الدنيا إلى السجون جماعات جماعات مع الإهانة والتحقير على ضروب شتى .

ونحو الآية قوله : «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» أى يدفعون إليها دفعاً .

(حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ليدخلوها ، كأبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتى أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها ، فتفتح ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم .

ثم ذكر سؤال الخزنة لهم على طريق التوبيخ والإهانة فقال :

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) أى ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون ماينبئونكم به من طاعة ربكم والاعتراف بوحدانيته وترك الشرك به ، ويسهل عليكم مراجعتهم حين يقيمون عليكم الحجج والبراهين مبينين صدق مادعوكم إليه ، وينذرونكم أهوال هذا اليوم ؟

فأجابوهم معترفين ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لوضوح السبل أمامهم ، ولا سبيل حينئذ إلى الإنكار والجحود .

(قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أى قالوا بلى قد أتانا رسل من ربنا فأنذرونا وأقاموا الحجج والبراهين ، ولكنا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشّقوة والضلالة ، فعدلنا بسوء اختيارنا عن الحق إلى الباطل ، وفعلنا الشر دون الخير ، وعبدنا ما لايضر ولاينفع وتركنا عبادة الواحد القهار .

ونحو الآية قوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » .

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف .

(قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى قالت لهم الملائكة الموكلون بعذابهم: ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً لاخروج لكم منها ولا زوال لكم عنها .

(فبئس مثوى المتكبرين) أى وبئس المصير، وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الأشقياء وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال — أردفها بذكر أحوال السعداء وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم وما يقال لهم ومايقولون . ثم أخبر بأن ملائكته محدقون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويعظمونه وينزهونه عن النقائص، وأنه سيقضى بين الخلائق بالعدل، وأن أولئك المتقين سيقولون: الحمد لله رب العالمين على ما تفضل به علينا وأنعم .

الإيضاح

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) أى وسيق المتقون إلى الجنة جماعة إثر جماعة على النجائب وفودا إلى الجنة، المقربون فالأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين

يلونهم ، كل طائفة منهم مع من يشا كلهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم .

والمراد بالسوق هنا الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعَل من يكرَّم من الوافدين على بعض الملوك ؛ وبالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب والهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فشتان مابين السوقين .

(حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها ، كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه وتقف منتظرة حضوره فرحا بقدمه — فرحوا بما أفاد الله به عليهم من النعيم ، وبما شاهدوا مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيُسْبِغُ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم وغيره .

وروى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درىّ فى السماء إضاءة » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لايدخله إلا الصائمون » .

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

(وقال لهم خزنتها سلام عليكم) أى وقال لهم الخزنة : سلام عليكم من جميع المكاره والآلام ، فلا يعتريكم مكروه بعد ذلك .

(طبتم) نفسا مما أتيح لكم من النعيم المقيم ، وقد يكون المعنى : طبتم فى الدنيا فلم تدنسوا أنفسكم بالشرك والمعاصى ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم .

(فادخلوها خالدين) أى فادخلوها ما كثين فيها أبدا لا زوال ولا فناء ولا تحوّل عنها .

(وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) أى وقال المؤمنون إذا عاينوا ذلك النعيم المقيم والعطاء العظيم فى الجنة : الحمد لله الذى صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا بذلك فى الدنيا وقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقالوا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » .

(وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أى وجعلنا نتصرف فى أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث ، فنتخذ منها مباءة ومسكنا حيث شئنا .

(فنعم أجر العاملين) أى فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، وثوابنا الذى أعطيتنا.

(وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) أى وترى أيها الرائى الملائكة محيطين بجوانب العرش قائمين بجميع ما يطلب منهم ، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس ، ويصلّون حول العرش شكرا لربهم وتنزيها له عن كل نقص .

(وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بين العباد بالعدل ، فأدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار ، أعاذنا الله منها .

(وقيل الحمد لله رب العالمين) أى وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكر للذى بدأ خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم ، ومن له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات التى لا يعلم عدّها إلا هو .

وقد بدأ سبحانه هذه الآية بالحمد وختمها بالحمد ، للتنبيه إلى تحميده فى بداية كل أمر ونهايته .

وقال قتادة : « افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : « وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين والمرسلين صلاة دائمة إلى يوم الدين .

مجمل مشتملات هذه السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .

(٢) الأمر بعبادة الله وحده والنعى على المشركين فى عبادتهم للأوثان والأصنام .

(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله .

(٤) طبيعة المشرك فى السراء والضراء .

(٥) ضرب الأمثال فى القرآن وفائدة ذلك .

(٦) تمنى المشركين الفداء حين يرون العذاب .

(٧) الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم إذا تابوا .

(٨) ما يرى على وجوه أهل النار من الكآبة والحزن .

(٩) ذكر أحوال يوم القيامة .

(١٠) وصف ذهاب أهل النار إلى المحشر وما يشاهدونه من الأهوال .

(١١) وصف ذهاب أهل الجنة وما يشاهدونه فيها من النعيم المقيم .

(١٢) بعد فصل القضاء يقول أهل الجنة (الحمد لله رب العالمين) .

سورة غافر

هى مكية إلا آيتى ٥٦، ٥٧ فمدنيتان ، وآيها خمس وثمانون ، نزلت بعد سورة الزُّمر.

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنه ذكر فى سابقتها ما يئول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .

(٢) إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة ، وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : آل حم ديباج القرآن ، وعنه أيضا إذ وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن لكل شىء لبابا ولباب القرآن آل حم ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شىء ثمرة ، وإن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم» . وعنه أيضا « مثل الحواميم فى القرآن كمثل الحِبَرات فى الثياب » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) .

الإيضاح

(حمٓ) تقدم الكلام فى أمثال هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور بما يغنى عن إعادته هنا ، وقد اخترنا هناك أن أحسن الآراء فى ذلك أنها كلمات يراد بها

التنبيه فى أول الكلام نحو (ألا) و (يا) وينطق بأسمائها فيقال (حاميم) بتفخيم الألف وتسكين الميم، ويجمع على حواميم وحواميات، وأنكر ذلك الجواليقى والحريرى وابن الجوزى وقالوا لا يقال ذلك بل يقال آل حم، ويؤيد ذلك أن صاحب الصحاح نقل عن الفرّاء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب ، وحديث ابن مسعود وقدم تقدم : إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن ، وعلى هذا قول الكميت بن زيد فى الهاشميات .

وجدنا لكم فى آل حم آية تأولها منا تقىّ ومُعْرِب

يريد بذلك قوله تعالى : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) أى هذا القرآن تنزيل من الله الغالب القاهر فى ملكه الكثير العلم بخلقه وبما يقولون وما يفعلون .

وفى هذا إيماء إلى أنه ليس بمنقول ولا مما يجوز أن يكذّب به .

(غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) أى وهو الذى يغفر ماسلف من الذنوب، ويقبل التوبة فى مستأنف الأزمنة لمن تاب وخضع، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله وبغى ، المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والنعم التى لا يطيقون القيام بشكرها ولا شكر واحدة منها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » .

وقد ذكر غافر الذنب وقابل التوب لترغيب عباده العاصين ، وذكر شديد العقاب لترهيبهم ، وفى مجموع هذا الحثّ على فعل المراد من تنزيل الكتاب وهو التوحيد والإيمان بالبعث والإخلاص لله فى العمل والإقبال عليه ، وقد جمع القرآن هذين الوصفين فى مواضع كثيرة منه كقوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » ليبقى العبد بين الرجاء والخوف .

(لا إله إلا هو) فلا نظير له ، فيجب اتباع أوامره وترك نواهيه .

(إليه المصير) أى إليه وحده المرجع والمآب ، فيجازى كل نفس بما كسبت .

أخرج أبو عبيد وابن سعد وابن مردويه والبيهقى فى الشُّعَب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حٰم المؤمن إلى — إليه المصير ، وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) .

شرح المفردات

الجدل : شدة اللدد فى الخصومة ، تقلبهم : أى تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، والأحزاب : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، وهمّت : أى عزمت ، ليأخذوه : أى ليقتلوه ويعذبوه ، ليدحضوا : أى ليزيلوا ، حقت : أى وجبت ، كلمة ربك : أى حكمه بالإهلاك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب أنزله لهداية الناس وسعادتهم فى دنياهم وآخرتهم إذا هم عملوا بهديه — ذكر أحوال من يجادل فيه لغرض إبطاله وإخفاء

نوره ، ثم أرشد رسوله ألا يغتر بأحوال أولئك المجادلين وتركهم سالمين فى أبدانهم وأموالهم يتصرفون فى البلاد للتجارة لسعة الرزق والتمتع بزخرف الدنيا ، فإنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية ممن كذبوا رسلهم فحل بهم البوار فى الدنيا وسينزل بهم النكال فى الآخرة فى جهنم وبئس القرار .

الإيضاح

(ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) أى ما يخاصم فى القرآن بالطعن فيه وتكذيبه كقولهم مرة إنه شعر ، وأخرى إنه سحر وثالثة إنه أساطير الأولين إلى أشباه ذلك من سخيف المقال — إلا الذين جحدوا به وأعرضوا عن الحق مع ظهوره .

وهذا النوع من الجدل هو المذموم ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر » أما الجدل لتقرير الحق وإيضاح الملتبس ، وكشف المعضل ، واستنباط المعانى ، ورد أهل الزيغ بها ، ورفع اللبس ، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، فهو وظيفة الأنبياء ، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح لنوح « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية ، فخرج يعرف فى وجهه الغضب ، فقال إنما هلك من كان قبلهم باختلافهم فى الكتاب ، رواه مسلم .

وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما علىّ : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » الآية ، وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

ولما حكم سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغتر بشىء من حظوظهم الدنيوية فقال .

(فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) أى فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافقة

فى البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب فى رحلة الشتاء فى اليمن ورحلة الصيف فى الشام ، ثم يرجعون سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم وإن أمهلوا فإنهم لايهملون . قال الزجاج : لايغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم .

ثم قال مسليا رسوله عن تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة فى سلفه الأنبياء ، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل فقال :

(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) أى كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم كما هى سنتنا فى أمثالهم من المكذبين كعاد وثمود ومن بعدهم ، وكانوا فى جدلهم على مثل الذى عليه قومك .

(وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أى وحرصت كل أمة على تعذيب رسولهم بحبسه وإصابة ما أرادوا منه . وقال قتادة والسدى ليقتلوه ، فقد جاء الأخذ بمعنى الإهلاك فى قوله تعالى : « فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » .

(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى وخاصموا رسولهم بالباطل بإيراد الشبه التى لاحقيقة لها كقولهم : « مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » ليبطلوا به الحق الذى جاء به من عند الله ، وليطفئوا النور الذى أوتيه . قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا الإيمان .

(فأخذتهم فكيف كان عقاب) أى فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم فلم أبق منهم دياراً ولا نافخ نار وصاروا كأمس الدابر ، وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين كما قال : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل فى آيات الله وإلى ذلك أشار بقوله .

(وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، وقصصت عليك خبرها أن يحل بها عقابى — وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، لأن الأسباب واحدة وهى كفرهم وعنادهم للحق واهتمامهم بإطفاء نور الله الذى بثه فى الأرجاء لإصلاح نظم العالم وسعادته فى دينه ودنياه ، وارتقاء النفوس البشرية والسموّ بها عن الاستخذاء إلى شجر أو حجر أو حيوان طمعا فى خير يرجى منه وشفاعة تنفع عند الله .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) .

شرح المفردات

العرش : مركز تدبير العالم كما تقدم إيضاح ذلك فى سورة يونس ، وندع أمر وصفه إلى الله عالم الغيب فهو العليم بعرشه ووصفه ، وقهم : أى احفظهم من وقيته كذا أى حفظته ، السيئات : أى الجزاء المرتب عليها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسل بالباطل ، لإطفاء نور دعوتهم — أردف ذلك ببيان أن أشرف المخلوقات وهم

الملائكة الذين يحملون العرش والحافون حول العرش — يحبون المؤمنين و يطلبون لهم المغفرة من ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزنا ، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله.

الإيضاح

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا) أى إن الملائكة الذين يحملون عرش ربهم ، والملائكة الذين هم حوله ينزهون الله متلبسين بحمده على نعمه ، ويقرون بأن لا إله إلا هو ولا يستكبرون عن عبادته ، ويسألون أن يغفر لمن أقروا بمثل ما أقروا به من توحيد الله والبراءة من كل معبود سواه .

ونحن نؤمن بما جاء فى الكتاب الكريم من حمل الملائكة للعرش ، ولا نبحث عن كيفيته ولا عن عدد الحاملين له ، فإن ذلك من الشؤون التى لم يفصلها لنا الكتاب ولا السنة المتواترة فنكل أمر علمها إلى ربنا ، وعلينا التسليم بما جاء فى كتابه .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحمل يراد به التدبير والحفظ ، وأن الحفيف والطواف بالعرش يراد به القرب من ذى العرش سبحانه ، ومكانة الملائكة لديه ، وتوسطهم فى نفاذ أمره .

ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكيا عنهم :

(ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء من خلقك ، والمراد أن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك يحيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

(فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) أى فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عن ذنوبهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك

المنكرات ، واجعل بينهم و بين عذاب الجحيم وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتمم نعمتك عليهم ، فإنك وعدت من كان كذلك بالبعد عن هذا العذاب ولا يبدل القول لديك . قال مُطَرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية .

وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ، ثم قال ياخلف : ماأكرم المؤمن على الله ، يكون نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

(ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ربنا وأدخلهم الجنات التى وعدتهم إياها على ألسنة رسلك ، وأدخل معهم فى الجنة الصالحين من الآباء والأزواج والذرية ، لتقرّ بهم أعينهم ، فإن الاجتماع بالأهل والعشيرة فى موضع السرور يكون أكمل للبهجة وأتم للأنس .

قال سعيد بن جُبير : يدخل الرجل الجنة فيقول يارب أين أبى وجدى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك ، فيقول : يارب كنت أعمل لى ولهم ، فيقال أدخلوهم الجنة ، ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » .

(إنك أنت العزيز الحكيم) أى أنت الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور ، الحكيم الذى لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور .

ثم عمموا فى الدعاء لهم بأن يمنع عنهم العقوبات الدنيوية والأخروية فقالوا :

(وقهم السيئات) أى واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم التى كانوا قد أتوها قبل توبتهم ، ولا تؤاخذهم بذلك فتعذبهم به .

(ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أى ومن تصرف عنه سوء عاقبة ما ارتكب من السيئات يوم القيامة فقد رحمته ونجيته من عذابك .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى وهذا هو الفوز الذى لا فوز أجمل منه ، ولا مطمع وراءه لطامع ، إذ وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لاينقطع ، و بأفعال قليلة ملكا لاتصل العقول إلى كنه جلاله .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) .

شرح المفردات

المقت : أشد البغض ، والروح : الوحى ، يوم التلاق : هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، بارزون : أى ظاهرون لا يسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله — أردف ذلك ببيان أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم و باستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا مافرط منهم .

و بعد أن هددهم أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته بإظهاره للآيات و إنزاله للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ماسواه ، وكل ماسواه محتاج إليه ، وأنه ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم الجزاء والحساب .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) أى إن الكافرين تناديهم الملائكة يوم القيامة وهم يتلظون النار و يذوقون العذاب فيمقتون أنفسهم و يبغضونها أشد البغض بسبب ما أسلفوا من سيء الأعمال التى كانت سبب دخولهم فى النار — إن مقت الله لكم فى الدنيا حين كان يعرض عليكم الإيمان فتكفرون — أشد من مقتكم أنفسكم اليوم وأنتم على هذه الحال .

والخلاصة — إن مقت الله لأهل الضلال حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا

فتركوه وأبوا أن يقبلوه - أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، قاله قتادة ومجاهد والحسن البصرى وابن جرير .

ثم ذكر ما يقولونه حين يخاطبون بهذا الخطاب فقال :

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى قالوا ربنا خلقتنا أمواتا وأمتنا حين انقضاء آجالنا ، وأحييتنا أوّلا بنفخ الأرواح فينا ونحن فى الأرحام ، وأحييتنا باعادة أرواحنا إلى أبداننا حين البعث نقله ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن مسعود ، وجعلوا ذلك نظير آية البقرة : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » .

(فاعترفنا بذنوبنا) أى فاعترفوا أنهم أنكروا البعث فكفروا وفعلوا من الذنوب ما لا يحصى عدّا ، لأن من لم يخش عاقبة يتماد فى غيه ، ولكن حين رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التى اقترفوها .

ثم طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما فاتهم فقالوا :

(فهل إلى خروج من سبيل) أى فهل أنت معيدنا إلى الدنيا لنعمل غير الذى كنا نعمل فإنك قادر على ذلك .

وهذا أسلوب يستعمل فى التخاطب حين اليأس ، قالوه تحيرا أو تعللا عسى أن يتاح لهم الفرج .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » .

فما كان جوابهم عما طلبوا إلا الرفض البات مع ذكر السبب فقال :

(ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى لاسبيل إلى رجعتكم إلى الدار الدنيا ، لأن طباعكم لا تقبل الحق بل تنفيه ، فإنكم كنتم فيها إن دعى الله وحده كفرتم وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله ، فأنتم هكذا تكونون لو رُددتم إلى الدنيا كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

ثم ذكر ما ترتب على أعمالهم التى عملوها وما ضروا إلا أنفسهم فقال :

(فالحكم لله العلى الكبير) أى فالحكم حينئذ لله الذى لايحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة ، وهو ذو الكبرياء والعظمة الذى ليس كمثله شىء ومن ثم اشتدت سطوته بمن أشركوا به ، واقتضت حكمته خلودهم فى النار ، فلا سبيل إلى خروجكم منها أبدا إذ أشركتم به سواه .

ثم ذكر ما يدل على كبريائه وعظمته فقال :

(هو الذى يريكم آياته) أى هو الذى يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى العالم العلوى والسفلى من الآيات العظام الدالة على كمال خالقها وقدرة مبدعها وتفرده بالألوهية كما قال :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم خصص من هذه الآيات ما هم فى أشد الحاجة إليه وهو المطر فقال :

(وينزل لكم من السماء رزقا) أى وهو الذى ينزل لكم المطر الذى يخرج به من الزرع والثمار ما تشاهدونه مما هو مختلف الألوان والطعوم والروائح والأشكال ، مما أبدعته يد القدرة ووشته بأبدع الحلى والمناظر .

(وما يتذكر إلا من ينيب) أى وما يعتبر بتلك الآيات ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من ينيب إلى ربه ، ويتفكر فى بديع ما خلق ، وعظيم ما أوجد ويترك التقليد واتباع الهوى .

والخلاصة — إن دلائل التوحيد مركوزة فى العقول لايحجبها إلا الاشتغال بعبادة غير الله ، فإذا أناب العبد إلى ربه زال الغطاء ، وظفر بالفوز ، وظهرت له سبل النجاة .

ولما ذكر ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) أى إذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص التذكير بمن ينيب فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها ، وخالفوا المشركين فى مسالكهم ، ولا تلتفتوا إلى كراهتهم لذلك ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن الزبير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب الصلوات المكتوبة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لايستجيب دعاء قلب غافل لاه » .

وبعد أن ذكر من صفات كبريائه كونه مظهرا للآيات منزلا للأرزاق — ذكر ثلاث صفات أخرى تدل على الجلال والعظمة فقال :

(١) (رفيع الدرجات) أى إنه أرفع الموجودات وأعظمها شأنا ، لأن كل شىء محتاج إليه ، وهو مستغن عما عداه ، وإنه أزلى أبدى ليس لوجوده أول ولا آخر ، وإنه العالم بكل شىء « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

(٢) (ذو العرش) أى إنه مالك العرش ومدبره ، فهو مستول على عالم الأجسام

وأعظمها العرش ، كما هو مستول على عالم الروحانيات وهى مسخرة له ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(٣) (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) أى يلقى الوحى بقضائه على من يشاء من عباده الذين يصطفيهم لرسالته ، وتبليغ أحكامه إلى من يريد من خلقه .

ونحو الآية قوله : « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » وقوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » .

(لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون) أى لينذر بالعذاب يوم يلتقى العابدون والمعبودون ، يوم هم ظاهرون لايكنّهم شىء ، ولا يسترهم شىء .

(لايخفى على الله منهم شىء) فيعلم ما فعله كل منهم ، فيجازيه على حسب ما قدمت يداه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

ويقال عند بروز الخلق :

(لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) أى يقول الرب تعالى : لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيجيب سبحانه فيقول ذلك أى هو الواحد الذى لامثل له ، القهار لكل شىء سواه بقدرته ، الغالب بعزته . وقيل : المجيب هم أهل المحشر فقد روى أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عز وجل عليها ، فيؤمر مناد ينادى « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » يقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا .

وبعد أن ذكر صفات قهره فى ذلك اليوم — أردفها ببيان صفات عدله وفضله فقال :

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم) أى اليوم يثاب كل عامل بعمله ، فيلاقى أجره ، ففاعل الخير يجزى الخير وفاعل الشر يجزى بما يستحق ، لايبخس أحد ما استوجبه من أجر عمله فى الدنيا فينقص منه إن كان محسنا ، ولا يحمل على مسىء إثم ذنب لم يعمله .

روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا — إلى أن قال — يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »

ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق فى ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاء فقال :

(إن الله سريع الحساب) أى إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة ، لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لمن الملك اليوم — إلى قوله الحساب » .

ونحو الآية قوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ

(١٩) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) .

شرح المفردات

يوم الآزفة : يوم القيامة وسميت بذلك لقربها ؛ يقال أزف السفر : أى قرب ، قال :

أزف الترحُّلُ غير أنَّ ركابنا لما تزَلْ برحالنا وكأنْ قَدِ

والحناجر : واحدها حنجرة أوحنجور كحلقوم لفظا ومعنى ، وهى لحمة بين الرأس والعنق ، كاظمين : أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج ، والحميم : القريب ، خائنة الأعين : يراد بها النظر إلى ما لا يحل ، ما تخفى الصدور : أى ما تكتمه الضمائر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الأنبياء ينذرون الناس بيوم التلاق — أعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة تصطك منها المسامع وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المهيب.

الإيضاح

(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذميم معتقداتهم التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا .

ثم بين أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال :

(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك

بالله قريب ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شىء وإن كان فى غاية الخفاء فقال :

(يعلم خائنة الأعين) أى يعلم ربكم ما خانت أعين عباده وما نظرت به إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب ، قال ابن عباس فى الآية : هى الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غضوا نظر إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها . وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها ، أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر .

(وما تخفى الصدور) أى لا يخفى عليه شىء من أمورهم حتى ما يحدثون به أنفسهم وتضمره قلوبهم .

(والله يقضى بالحق) أى والله يحكم بالعدل فى الذى خانته الأعين بنظرها ، وأخفته الصدور من النوايا ، فيجزى الذى أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى ، ويجزى الذين رددوا النظر ، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذى أوعدهم به فى دار الدنيا .

(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء) أى والأوثان والآلهة التى يعبدها هؤلاء المشركون من قومك — لا يقضون بشىء لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شىء ، فاعبدوا الذى يقدر على كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

وغير خافٍ ما فى هذا من التهكم بآلهتهم .

(إن الله هو السميع البصير) أى إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة ، البصير بما تفعلون من الأفعال ، وهو محيط بكل ذلك ومحصيه عليكم ، فيجازيكم عليه جميعا يوم الجزاء .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢).

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة — أردفه بتخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

الإيضاح

حذر الله هؤلاء المشركين مما حل بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم وأعظم آثاراً كعاد وثمود ، « والسعيد من وعظ بغيره » فقال واعظا ومذكراً : ألم يسر هؤلاء المشركون بالله فى البلاد فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشا ، وأبقى فى الأرض آثاراً ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى واكتسبوا من الآثام ، فأبيدوا جميعا وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا

فَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) .

شرح المفردات

السلطان : الحجة والبرهان ، فرعون : ملك القبط بالديار المصرية ، وهامان وزيره ، وقارون كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالا ، عذت : التجأت وتحصنت ، متكبر : أى مستكبر عن اتباع الحق .

المعنى الجملى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصص موسى مع فرعون مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمروا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى خوفا أن يبدل دينهم أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوذ موسى بربه ورب بنى إسرائيل من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يقول سبحانه مسليا نبيه عن تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصر له فى الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ،

فإن الله أرسله بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وجعلوه ساحرا مجنونا حين عجزوا عن معارضته .

وخص فرعون وهامان وقارون بالذكر، لأنهم الرؤساء المكذبون والناس تبع لهم.

ولما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجئوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره ، و إلى هذا أشار بقوله :

(فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى فلما جاءتهم الآيات البينات الدالة على توحيد الله ووجوب العمل بطاعته ، قالوا غيظا وحنقا وعجزاً عن المعارضة : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه من أبناء بنى إسرائيل وأبقوا نساءهم لخدمتنا .

قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ليمتنعوا من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم ويشتد عضدهم بالذكور من أولادهم ، لكن الله شغلهم عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمّل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر .

وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

(وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى وما مكرهم وقصدهم وهو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم — إلا ذاهب سدى و باطلا ، فالناس لا يمتنعون من الإيمان و إن فُعل بهم ما فُعل ، و إن القدر المقدور لامحالة نافذ والقضاء المحتوم لابدّ واقع ، والنصر حليف المؤمنين ، كما وعد فى كتابه المكنون « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

والخلاصة — إن ما أظهروه من الإبراق والإرعاد سيضمحل لامحالة ويذهب هباء أمام تلك القوة القاهرة وسيكون النصر للمتقين .

ثم ما كفاهم قتل البنين واستحياء البنات من بنى إسرائيل بل أرادوا أن يجتثوا هذه الشجرة من أصلها كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه) أى وقال فرعون لملئه : دعونى أقتل موسى وليدع ربه الذى أرسله إلينا ليمنعه منا ، وكان إذا هم بقتله كفوه وقالوا له : ليس هذا بالذى يخاف منه وهو أضعف من ذلك شأنا ، وما هو إلا ساحر يصاوله ساحر مثله ، وإنك إن قتلته أدخلت الشبهة فى نفوس القوم واعتقدوا أنك عجزت عن مقابلة الحجة بالحجة ، وما زالون به هكذا يحاورونه ويداورونه حتى يكف عن قتله .

وربما يكون قد قال ذلك تمويها على قومه وإيهاما أن حاشيته هم الذين يكفونه عن قتله ، وما يكفه عن ذلك إلا ما فى نفسه من هول الفزع الذى استحوذ عليه ، كما يرشد إلى ذلك قوله « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » فإن ظاهره الاستهانة به بدعائه ربه سبحانه ؛ كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك ، وباطنه أن فرائصه كانت ترتعد من دعائه ربه ، فلهذا تكلم بما تكلم به مظهرا أنه لا يبالى بدعائه ربه ، كما يقول القائل ذرونى أفعل كذا وما كان فليكن .

ثم ذكر السبب فى قتله فقال :

(إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) أى إنى أخاف أن يفسد موسى عليكم أمر دينكم الذى أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم فى دينه الذى هو عبادة الله وحده ، أو يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، إذ يجتمع إليه الهَمَل الشُّرَّد ويكثرون من الخصومات والمنازعات وإثارة القلاقل والاضطرابات ، فتتعطل المزارع والمتاجر وتعدم المكاسب .

والخلاصة — إنه يقول : إنى أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل ، أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل ، وهما أمران أحلاهما مُرّ .

وقد جعل ظهور مادعا إليه موسى وانتشاره فى الأرض واهتداء الناس به فساداً ، وليس الفساد إلا ماهو عليه هو ومن تابعه .

ولما هدد فرعونُ موسى بالقتل استعاذ بالله من كل متعظم عن الإيمان به لايؤمن بالبعث والنشور ، فصانه من كل بلية ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) أى إنى استجرت بالله ربى وربكم واستعنت به من شر كل مستكبر لايذعن للحق، ولا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه الخلائق ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما أساء ، وإنما خص الاستعاذة بمن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء ، لأنهما عنوان قلة المبالاة بالعواقب ، وعنوان الجرأة على الله وعلى عباده ، فمن لم يؤمن بيوم الحساب لم يكن للثواب على الإحسان راجيا ، ولا من العقاب على الإساءة وقبيح ما يأتى من الأفعال خائفا .

وفى قوله (ربى وربكم) حثّ لهم على موافقته فى العياذ به سبحانه ، والتوجه إليه جل شأنه بالأرواح ، فالأرواح الطاهرة إذا تظاهرت كان ذلك أدنى إلى الإجابة ، وأقرب إلى تحقق الغرض ، ومن ثم شرعت صلاة الجماعة ، وإنما قال (من كل متكبر) ولم يقل « منه » سلوكا لطريق التعريض ، وتحاشيا مما قد يعرض له من الأذى إذا هو سمع كلامه فهو وافٍ بالغرض ومبين للعلة التى لأجلها أبى واستكبر .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) .

شرح المفردات

الرجل المؤمن : هو ابن عم فرعون وولىّ عهده وصاحب شرطته وهو الذى نجا مع موسى وهو المراد بقوله : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى » ، والبينات : هى الشواهد الدالة على صدقه ، والمسرف : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، والكذاب المفترى ، ظاهرين : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن موسى أنه مازاد حين سمع مقالة فرعون الداعية إلى قتله ، على أن استعاذ بالله من شره — أردف ذلك ببيان أن الله قيض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ويذبّ عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر .

الإيضاح

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟) أى وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه منهم خوفا على نفسه : أينبغى لكم أن تقتلوا رجلا ما زاد على أن قال : ربى الله وقد جاءكم بشواهد دالة على صدقه ، ومثل هذه المقالة لاتستدعى قتلا ولا تستحق عقوبة فاستمع فرعون لكلامه ، وأصغى لمقاله وتوقف عن قتله ، قال ابن عباس : لم يكن فى آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى قال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

وخلاصة ذلك — أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء ، وهى قتل النفس المحرمة من غير روية ولا تأمل ولا اطلاع على سبب يوجب قتله ؟ وما لكم علة فى ارتكابها إلا كلمة الحق ، وهى قوله : ربى الله .

أخرج البخارى وغيره من طريق عروة بن الزبير قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص : أخبرنا بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ » .

وأخرج البزار وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا أنت ، قال أما إنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى عن أشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم ، فمن ؟ قال أبو بكر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش فهذا يجؤه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحداً ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، ويجأ هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم رفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم : أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال: ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا رجل أعلن إيمانه وبذل ماله ودمه » .

ثم ذكر من الحجج ما يؤيد به رأيه فقال :

(١) (وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى إن كان كاذبا فى قيله إن الله أرسله إليكم ليأمركم بعبادته وترك دينكم الذى أنتم عليه ،

فإنما إثم كذبه عليه دونكم ، وإن يك صادقا فى قيله ذلك أصابكم الذى أوعدكم به من العقوبة على مُقامكم على الدين الذى أنتم عليه مقيمون ، فلا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين : سخطا على الكفر ، وسخطا على قتل رسوله .

وفى قوله : بعض الذى يعدكم - مبالغة فى التحذير ، فإنه إذا حذرهم من بعض العذاب أفاد أنه مهلك مخوف فما بال كله ؟ إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار عدم التعصب .

(٢) (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) أى إنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله ، ولما عاضده بتلك المعجزات ، إلى أنه لو كان كذلك لخذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله .

وفى هذا تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعاء الربوبية ، لا يهديه الله إلى سبيل الرشاد ، ولا يلهمه طريق الخير والفلاح .

(٣) (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟) أى يا قوم قد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه بقتله ، فإنه لا قِبَل لكم به ، وإن جاءنا لم يمنعه عنا أحد .

وفى قوله : ينصرنا وجاءنا ، تطييب لقلوبهم ، وإيذان بأنه ناصح لهم ، ساعٍ فى تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، سعيه فى حق نفسه ، ليتأثروا بنصحه .

ولما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم كما حكى سبحانه عنه بقوله :

(قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) أى قال فرعون مجيبا هذا المؤمن الناهى عن قتل موسى : لا أشير عليكم برأى سوى ما ذكرته من وجوب قتله حسما للفتنة ، وإنى لأرى أن هذا هو سبيل الرشاد والصلاح ، ولا أعدّ غير هذا صوابا .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠)
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢)
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤)
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ (٣٥).

شرح المفردات

الأحزاب : أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، والدأب : العادة ، يوم التناد : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة . قال أمية بن أبى الصّلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التّنادِ

عاصم : أى مانع ، مرتاب : أى شاك فى دينه ، ويوسف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وروى عن ابن عباس أنه يوسف بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة ، والسلطان : الحجة ، والمقت : أشد الغضب .

المعنى الجملى

بعد أن سمع ذلك المؤمن رأىَ فرعون فى موسى وتصميمه على قتله، وإقامة البراهين على صحة رأيه، وأنه لاسبيل إلى العدول عن ذلك — أعاد النصح مرة أخرى لقومه، لعلهم يرعوون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم، فذكرهم بأس الله وسنته فى المكذبين للرسل، وضرب لهم الأمثال بما حل بالأحزاب من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود، ثم ذكرهم بأهوال يوم القيامة، يوم لاعاصم من عذاب الله، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة مَن بعده، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلا فى الآخرين، وكأن لسان حاله يقول: هأنذا قد أسمعت، ونصحت فما قصرت، والأمر لكم فيما تفعلون.

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) أى قال ناصحا قومه: يا قوم إنى أخاف عليكم إن كذبتم موسى وتعرضتم له بسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوهم كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، فقد نزل بهم من بأس الله وعذابه ما لم يجدوا له واقياً ولا عاصما، وهذه سنة الله فى المكذبين جميعا، فحذارِ حذارِ أيها القوم وإنى لكم ناصح أمين، وما أهلكهم إلا بسوء أفعالهم وعظيم ما اجترحوا من الآثام والمعاصى وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وإلى هذا أشار بقوله:

(وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما أهلك الله هذه الأمم ظلما لهم بغير جرم اجترموه، بل أهلكهم بإجرامهم وكفرهم، وتكذيبهم رسله، بعد أن جاءوهم بالبينات، فأنفذ فيهم قدره، وأحل بهم وعيده.

وبعد أن خوفهم العذاب الدنيوى خوفهم العذاب الأخروى فقال :

(وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة حين ينادى بعضكم بعضا ، ليستغيث به من شدة الهول ، أو حين ينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، وينادى « أَصحابُ الجنة أصحاب النار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ » وينادى « أَصحابُ النار أصحاب الجنة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » .

يوم تولون مدبرين هربا من زفير النار وشهيقها ، فلا يجديكم ذلك شيئا ، ولا تجدون من يعصمكم من العذاب ، فتردّون إليه وينالكم منه ما قدّر لكم وكتب عليكم .

ثم نبه إلى شدة ضلالتهم وعظيم جهالتهم فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله ولا يلهمه رشده فما له هاد يهديه إلى طريق النجاة ويوفقه إلى الخلاص .

وفى هذا إيماء إلى أنه يئس من قبولهم نصحه .

ثم وبخهم بأنهم ورثوا التكذيب بالرسل من آبائهم الأولين ، وأسلافهم الغابرين فقال :

(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى ولقد جاء آباءكم يوسفُ من قبل موسى بالآيات الواضحات ، والمعجزات الباهرات ، فلم يزالوا فى ريب من أمره ، وشك من صدقه ، فلم يؤمنوا به ، حتى إذا مات قالوا : لن يبعث الله رسولا من بعده يدعو إليه ويحذر بأسه ، ويخوف من عقابه ؛ فالتكذيب متوارث ، والعناد قديم ، والريب

دأب آبائكم الغابرين ، وقد نسب تكذيب الآباء إليهم ، لما تقدم من أن الأمم متكافلة فيما بينها ، فينسب ما حدث من بعضها إلى جميعها ، إذا تواطئوا واتفقوا عليه كما جاء فى قصص ثمود حين كذب قُدار فعقر الناقة فنسب الكذب إلى ثمود جميعها كما قال : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

والخلاصة — إنهم كفروا بيوسف فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن ذلك لايجدد عليهم الحجة .

وقد قالوا هذه المقالة على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس فى تكذيب من بعده ، وليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم إلى الشك فى رسالته التكذيب برسالة من بعده .

ثم بين أنه لاعجب فى تكذيبهم فقد طمس الله بصائرهم ، وران على قلوبهم ، حين دسّوا أنفسهم بقبيح الخصال وعظيم الآثام .

(كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أى مثل هذا الضلال الواضح ، يضل الله ويصد عن سبيل الحق ، وقصد السبيل من هو مسرف فى معاصيه مستكثر منها ، شاك فى وحدانيته ووعده ووعيده ، لغلبة الوهم عليه ، وانهماكه فى التقليد .

ثم بين هؤلاء المسرفين المرتابين فقال :

(الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى إن المسرفين المرتابين هم الذين يخاصمون فى حجج الله التى أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج التى لامستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسكون بتقليد الآباء والأجداد ، ويتمسكون بترّهات الأباطيل التى لايتقبلها ذوو الحصافة والرأى .

ثم أكد ما سلف وقرره وتعجب من حالهم فقال :

(كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) أى كبر ذلك الجدل بغضا لدى الله والمؤمنين ، فمقت الله إياهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب ، ومقت المؤمنين تظهر آثاره فى هجرهم إياهم ، والاحتراس من التعامل معهم ، وعدم الركون إليهم فى الدين والدنيا .

ثم بين أن هذه سنة الله فيهم وفى أمثالهم فقال :

(كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) أى كما طبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين أبوا أن يوحدوا الله ويصدقوا رسله ، واستعظموا عن اتباع الحق ، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والجدل بغير الحق .

ونسب التكبر إلى القلب ، لأنه هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

قال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) .

شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف ، الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتصل به إلى شىء من حبل وسلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب .

قال زهير بن أبى سُلْمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	ولو رام أسباب السماء بسلم

والتباب : الخسران والهلاك ، ومنه قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقوله سبحانه : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف تكبر فرعون وجبروته — أبان هنا أنه بلغ من عتوّه وتمرده وافترائه فى تكذيب موسى أن أمر وزيره هامان أن يبنى له قصرا شامخا من الآجرّ ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ، ومقصده من ذلك الاستهزاء به ونفى رسالته ، وأكد ذلك بالتصريح بقوله : « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » ثم أرشد إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران .

الإيضاح

(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسى وقتله : يا هامان ابن لى قصرا منيفا عالى الذرا رفيع العماد ، علّني أبلغ أبواب السماء وطرقها ، حتى إذا وصلت إليها رأيت إله موسى ، ولا يريد بذلك إلا الاستهزاء والتهكم ، وتكذيب دعوى الرسالة من رب السموات والأرض .

والخلاصة — إن هذا نفى لرسالته من عند ربه .

ثم أكد هذا النفى الضمنى بالتصريح به بقوله :

(وإنى لأظنه كاذبا) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يقول ويدعى من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا على قومه ، توصلا بذلك

إلى بقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعلم أن الإله ليس فى جهة العلو فحسب ، وكأنه يقول : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فإذا هو فى السماء ، والسماء لايتوصل إليها إلا بسلم ، فيجب أن نبنى الصرح لنصل إليه .

ثم بين السبب الذى دعاه إلى ما صنع فقال :

(وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) أى وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيء ، فانهمك فى غيّه ، واستمر فى طغيانه ، ولم يرعو بحال ، وصدّ عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وتدسيته نفسه والسير بها قدُما فى شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدها .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه وأنه ذاهب سدى وأن الله ناصر أولياءه ، ومهلك أعداءه و« مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإلى هذا أشار بقوله :

(وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى وما احتياله الذى يحتال به ليطلع على إله موسى إلا فى خسار وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شيء مما أراده من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر فى العاقبة له «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)
يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

وَيَاقَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) .

شرح المفردات

الرشاد : ضد الغى والضلال ، متاع : أى يستمتع به أياماً قليلة ثم ينقطع ويزول، دار القرار : أى دار البقاء والدوام ، إلى النجاة : أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، إلى النار : أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ، ما ليس لى به علم : أى ما لا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان ، لاجرم : أى حقاً ، دعوة : أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، مردّنا : أى مرجعنا ، وأن المسرفين : أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، فستذكرون : أى فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ، وقاه : حفظه ، يُعرضون عليها : أى تعرض أرواحهم عليها .

المعنى الجملى

اعلم أن هذا المؤمن لما رأى تمادى قومه فى تمردهم وطغيانهم أعاد عليهم النصح مرة أخرى ، فدعاهم أولا إلى قبول هذا الدين الذى هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين

لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة ، وأنها هى الدار التى لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذى يوجب النجاة والدخول فى الجنات ، وهم يدعونه إلى الكفر الذى يوجب الدخول فى النار ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة ، فلا فائدة فى عبادتها ، ومردّ الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين فى المعاصى هم أصحاب النار ؛ ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله وتفويض أمره إلى الله الذى يدفع عنه كل سوء يراد به ؛ ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه فوقاه السوء الذى دبروه له وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط بآل فرعون سوء العذاب فغرقوا فى البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب فى النار .

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) أى يا قوم إن اتبعتمونى فقبلتم منى ما أقول لكم سلكتم الطريق الذى به ترشدون باتباعكم دين الله الذى ابتعث به موسى .

ثم زهدهم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال :

(ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار) أى ياقوم ماهذا النعيم الذى عُجّل لكم فى هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هى دار الاستقرار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالبة على جانب العقاب فقال :

(من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى من عمل فى دار الدنيا معصية

من المعاصى كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكرا كان أو أنثى وهو مؤمن بربه مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهلكة فقال :

(ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟) أى أخبرونى كيف أنتم وما حالكم ، أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله بإيمانكم بالله وإجابة رسوله وتصديق ما جاء به من عند ربه ، وتدعوننى إلى عمل أهل النار بما تريدون منى من الشرك؟.

ثم فسر الدعوتين بقوله :

(تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) أى تدعوننى إلى الكفر بالله والإشراك به فى عبادته ما لم يقم دليل على ألوهيته ، وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) أى حقا أن ما تدعوننى إليه من الأصنام لا يجيب دعوة من يدعوه ، فهو لا ينفع ولا يضر فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ونحو الآية : «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» وقوله : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ

اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

(وأن مردّنا إلى الله) أى وأن منقلبنا بعد الموت والبعث إلى الله ، وحينئذ يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

(وأن المسرفين هم أصحاب النار) أى وأن المشركين بالله المتعدّين حدوده هم أهل الجحيم خالدين فيها أبدا قاله قتادة وابن سيرين ، وقال ابن مسعود ومجاهد والشعبى : هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها الذين ركبوا أهواءهم ودسّوا أنفسهم بصنوف المعاصى .

ثم ختم نصحه بكلمة فيها تحذير ووعيد لهم ، ليتفكروا فى عاقبة أمرهم لعلهم يرعوون عن غيهم فقال :

(فستذكرون ما أقول لكم) أى فستعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه وتتذكرونه فتندمون حيث لا ينفع الندم ، وإنى قد بالغت فى نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد .

ثم ابتدأ كلاما آخر يبين به اطمئنانه إلى ما يجرى به القدر ويخبئه له الغيب كما هو دأب المؤمنين الصادقين فقال :

(وأفوّض أمرى إلى الله) أى وأتوكل على ربى وأفوض إليه أمرى وأستعين به ليعصمنى من كل سوء . قيل إنه قال ذلك لما أرادوا قتله والإيقاع به . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه .

ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك فقال :

(إن الله بصير بالعباد) أى إنه خبير بهم فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال لسوء استعداده وتدسيته نفسه ، وله الحجة الدامغة ، والحكمة البالغة ، والقدرة النافذة .

ثم أخبر سبحانه أنه قد كانت النصرة له والهلاك لعدوه فقال :

(فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب) أى فحفظه الله

مما أرادوا به من المكر السيء فى الدنيا ، إذ نجاه مع موسى عليه السلام ، وفى الآخرة بإدخاله دار النعيم ، وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب فى الدنيا بالغرق فى اليمّ ، وفى الآخرة بدخول جهنم و بئس القرار .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قصدوه بالسوء ، وقد روى عن ابن عباس أنه لما ظهر إيمانه قصد فرعون قتله فهرب ونجا .

ثم فصل ما أجمله من سوء العذاب بقوله :

(النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيا ، و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة على النار بالغداة والعشى و ينفّس عنهم فيما بين ذلك ، و يدوم هذا إلى يوم القيامة ، وحينئذ يقال لخزنة جهنم : أدخلوا آل فرعون النار .

قال بعض العلماء وهذه الآية دليل على عذاب القبر ، و يؤيده ما روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار ، و يقال هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة ، ثم قرأ : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » .

وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته فى الآخرة ، قال : عذابا دون العذاب وقرأ : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

وقد أثبت علماء الأرواح حديثا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه ، فقد نرى نائمين فى سرير واحد يقوم أحدهما مذعوراً كئيباً وجلا مما شاهد فى نومه ، بينما نرى الثانى مستبشراً فرحاً بما لاقى من المسرة والنعيم ،

فيروى أنه كان فى حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة وبهاء، وجمال ورُواء.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا بَلَى، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠).

شرح المفردات

المحاجة: المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر، الضعفاء. الأتباع والمرءوسون، والمستكبرون: السادة أولو الرأى فيهم، والتبع: واحدهم تابع كخدم وخادم، مغنون: أى دافعون، نصيبا: أى قسطا وجزءا، حكم: قضى، الخزنة: واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار، ضلال: أى فى ضياع وخسار.

الإيضاح

(وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى واذكر أيها الرسول لقومك وقت حجاج أهل النار وتخاصمهم وهم فى النار، فيقول الأتباع للقادة السادة: إنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، فتكبرتم علي الناس بنا.

(فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟) أى فهل تقدرون أن تحتملوا عنا قسطا من العذاب فتخففوه عنا ، فقد كنا نسارع إلى محبتكم فى الدنيا ، ومن قِبَلكم جاءنا العذاب ، ولولا أنتم لكنا مؤمنين .

ومقصدهم من هذا المقال تخجيلهم و إيلام قلوبهم ، و إلا فهم يعلمون أنهم لاقدرة لهم على ذلك التخفيف .

فرد عليهم أولئك الرؤساء بما حكاه الله عنهم بقوله :

(قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها) أى وقال رؤساؤهم الذين أبوا الانقياد للأنبياء : إنا جميعا واقعون فى العذاب ، فلو قدرنا على إزالته عن أنفسنا لدفعناه عنكم .

وخلاصة مقالهم : إنا وأنتم فى العذاب سواء .

(إن الله قد حكم بين العباد) بفصل قضائه ، فلا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، وكل منا كافر ، وكل منا يستحق العقاب ولا يغنى أحد عن أحد شيئا .

ولما يئس الأتباع من المتبوعين رجعوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء كما حكى الله عنهم بقوله :

(وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) أى وقال أهل جهنم لخدمها وقوّامها مستغيثين بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء رجاء أن يجدوا لديهم فرجا من ذلك الكرب الذى هم فيه : ادعوا ربكم أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب .

فرد عليهم الخزنة موبخين لهم على سوء ما كانوا يصنعون مما استحقوا عليه شديد العذاب .

(قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟) أى أو ما جاءتكم الرسل بالحجج على توحيد الله لتؤمنوا به وتبرءوا مما دونه من الآلهة ؟

فأجابوهم :

(قالوا بلى) أى قالوا أتونا فكذبناهم ولم نؤمن بهم ولا بما جاءوا به من البينات الواضحة والبراهين الساطعة ، حينئذ قال لهم خزنة جهنم تهكما بهم :

(قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى قالوا لهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم فادعوا أنتم وحدكم ، فإنا لاندعو لمن كفر بالله وكذب رسله ، وإن دعاءكم لايفيدكم شيئا فما هو إلا فى خسران وتبار ، وسواء دعوتم أو لم تدعوا فإنه لايستجاب لكم ولا يخفف عنكم .

روى الترمذى وغيره عن أبى الدرداء قال : « يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلون لايغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغصُّون به فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطَّع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبونهم : « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ » .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ
(٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى
وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ

اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦).

شرح المفردات

يوم يقوم الأشهاد: هو يوم القيامة، والأشهاد: واحدهم شهيد بمعنى شاهد، والهدى: ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع، والإبكار: أول النهار إلى نصفه، والعشى: من النصف إلى آخر النهار، والسلطان: الحجة.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى أول السورة أنه لا يجادل فى آيات الله إلا القوم الكافرون، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلية لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه — أردف ذلك بوعده له بالنصرة على أعدائه فى الدنيا والآخرة، وتلك سنة الله، فهو ينصر الأنبياء والرسل ويقيض لهم من ينصرهم على أعدائهم؛ ويملأ قلوبهم بنور اليقين، ويلهمهم أن النصرة لهم آخرا مهما تقلبت بهم الأمور.

الإيضاح

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى إنا لنجعل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، وننصر معهم من آمن بهم فى الحياة الدنيا إما بإعلائهم على من كذبوهم كما فعلنا بداود وسليمان، فأعطيناهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكما فعلنا بمحمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره على من كذبه من قومه — وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل كما فعلنا بنوح وقومه من إغراقهم وإنجائه، وكما فعلنا بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكناهم غرقا ونجينا موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل — وإما بانتقامنا

منهم بعد وفاة رسلنا كما نصرنا شعيبا بعد مهلكه بتسليطنا على من قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم ممن قتله .

وكذلك ننصرهم عليهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة لرسلها ـ بالشهادة بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وأن الأمم قد كذبتهم .

(يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) أي يوم لاينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لايعتذرون إلا بباطل كما حكى سبحانه عنهم من قولهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

(ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) أي ولهم فى هذا اليوم الطرد من رحمة الله ، ولهم شر ما فى الآخرة من العذاب الأليم والقرار فى سواء الجحيم .

ولما بين أنه ينصر الأنبياء والمرسلين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من تلك النصرة فى الدنيا فقال :

(ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولى الألباب) أي ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع مايهتدى به الناس فى الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه فتوارثوها خلفا عن سلف وصارت هداية لهم وتذكرة لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

وبعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلا بحال موسى خاطب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله :

(فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) أي فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجز وعده وناصرك وناصر من صدقك ، وآمن بك على من كذبك

وأنكر ما جئت به من عند ربك ، وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنه ، وصلّ شكراً له طرفى النهار كما جاء فى الآية الأخرى : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ » .

وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله وألا يَفْتُر اللسان عنه ، ولا يغفل القلب حتى يدخل فى زمرة الملائكة الذين قال سبحانه فى وصفهم : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ » .

ولما ابتدأ عزّ اسمه بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذى يحملهم على تلك المجادلة فقال :

(إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) أى إن الذين يخصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة — ما يحملهم على هذا الجدل إلا كبر فى صدورهم يمنعهم عن اتباعك وقبول الحق الذى جئتهم به ، إذ لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة ، وهم فى صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا فى خدمتك ، وما هم ببالغى موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذى يدرك بالأمانى .

والخلاصة — إنه ما يحملهم على تكذيبك إلا ما فى صدورهم من الكبر والحسد لك ، وما هم ببالغى إرادتهم فيه ، فإن الله قد أذلهم .

ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المستكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال :

(فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) أى فالتجئ إلى الله تعالى فى دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك ، فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شىء منها .

لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ويعتقدون استحالته ويعملون أقيسة وهمية ، وقضايا جدلية كقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولهم : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » ذكر هنا برهانا يؤيد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتكم كما جاء فى الآية الأخرى « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

الإيضاح

(لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أى لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة أعظم فى النفوس وأجلّ فى الصدور ، أكبر من خلق الناس لعظم أجرامهما ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة فى مزاولة الأفعال أن علاج الشىء الكبير أشق من علاج الشىء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى ولكن هؤلاء المشركين لايتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها ولا يعلمون أن الله لايعجزه شىء .

وبعد أن ذكر سبحانه الجدل بالباطل ذكر مثلا للباطل والحق وأنهما لايستويان فقال :

(وما يستوى الأعمى والبصير) أى وما يستوى الكافر الذى لايتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما يشاء ويؤمن بذلك ويصدق به — والمؤمن الذى يرى بعينيه تلك الحجج فيتفكر فيها ويتعظ بها ويعلم ما تدل عليه من توحيده وعظيم سلطانه وقدرته على خلق الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها ، وقد ضرب لهما مثل الأعمى والبصير ، ليستبين ذلك الفارق على أتم وجه وأعظم تفصيل ، فما الأمثال إلا وسائل للإيضاح تبين للناس المعقولات وهى لابسة ثوب المحسوسات ، فيتضح ما انبهم منها وخفى من أمرها كما قال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) أى وكذلك لايستوى المؤمنون المطيعون لربهم والعاصون المخالفون لأمره ، ونحو الآية قوله : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ » .

(قليلا ما تتذكرون) أى ما أقل ما تتذكرون حجج الله فتعتبرون بها وتتعظون ، ولو تذكرتم واعتبرتم لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فنى من خلقه وإعادته لحياة أخرى هذه الحياة .

ولما قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة والبعث والنشر — أردفه بالإخبار بأنه واقع لامحالة فقال :

(إن الساعة لآتية لاريب فيها) أى إن يوم القيامة الذى يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لاشك فيه ، فأيقنوا بمجيئه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ،

ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه عليكم ، ليدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وفيها ترون مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ولكن أكثر الناس لايؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لايصدّقون بمجيئه ، ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا فى الأرض فساداً ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب المسيب .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) .

شرح المفردات

ادعونى : أى اعبدونى ، أستجب لكم : أى أثبكم على عبادتكم إياى ، داخرين: أى صاغرين أذلاء ، لتسكنوا فيه : أى لتستريحوا فيه ، مبصراً : أى يبصر فيه ،

تؤفكون : أى تصرفون ، قراراً : أى مستقرا ، بناء : أى قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب للسكنى فيها ، فتبارك : أى تقدس وتنزه ، الدين : الطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لاينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لاجرم أمر الله تعالى بها فى هذه الآية .

ولما كانت العبادة لاتنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات .

الإيضاح

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى اعبدونى أثبكم ، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك ومجاهد فى جماعة آخرين ، ويؤيده أن القرآن كثيرا ما استعمل الدعاء بمعنى العبادة كقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا » .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء الاستغفار » وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله يغضب عليه » . أخرجه أحمد والحاكم . وعن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى ، وعن ابن عباس قال : «أفضل العبادة الدعاء » وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخارى فى الأدب عن عائشة قالت «سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل ؟ فقال : دعاء المرء لنفسه » .

ثم صرح سبحانه بأن المراد من الدعاء العبادة فقال :

(إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى إن الذين يتعظمون عن إفرادى بالعبادة و إفرادى بالألوهة سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء .

وفى هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم كبير ، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه ، واستدفاع الشرّ به ، بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة الشديدة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم إليه ، وعوّلوا فى كل مطالبكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التوكل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء مطالبكم ، وحصول رغباتكم ، فهو الكريم الجواد الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، و يغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا .

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي إلى قوله : دَاخِرِينَ» أخرجه الترمذى والبخارى فى الأدب والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية .

ولما أمر بالدعاء، والاشتغالُ به لابد أن يسبق بمعرفة المدعوّ — ذكر الدليل عليه بذكر بعض نعمه فقال :

(١) (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى إن الله الذى لاتصلح الألوهة إلا له ، ولا تنبغى العبادة لغيره ـ هو الذى جعل الليل للسكون والاستراحة من الحركة والتردد فى طلب المعاش والحصول على ما يفى بحاجات الحياة .

(٢) (والنهار مبصرا) أى وجعل النهار مضيئا بشمسه ذات البهجة والرواء ، لتتصرفوا فيه بالأسفار ، وجوب الأقطار ، والتمكن من مزاولة الصناعات ، ومختلف التجارات .

ثم ذكر نتيجة لما تقدم فقال :

(إن الله لذو فضل على الناس) أى فهو المتفضل عليهم بالنعم التى لاتحصى ، ولا يمكن أن تستقصى .

ثم بين أن كثيرا من عباده جحدوا هذه النعم ، واستكبروا عبادة المنعم فقال :

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) هذه النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لغفلتهم وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، وإما عن النظر ، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم كما هو حال الجاهلين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » .

ثم بين كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده فقال :

(ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) أى ذلكم الذى فعل كل هذا ، وأنعم عليكم بهذه النعم هو الله الواحد الأحد خالق جميع الأشياء ، لا إله غيره ولا رب سواه ، فكيف تنقلبون عن عبادته ، وتنصرفون عن توحيده ، وتصرفون عن الإيمان ، مع قيام البرهان ، وتعبدون غيره من الأصنام التى لاتخلق شيئا وهى مخلوقة منحوتة .

ثم ذكر أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم قبلهم ، بل قد سبقهم فى هذا خلق كثير فقال :

(كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله — ضل وأفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل للجهل والهوى .

وبعد أن ذكر من الدلائل تعاقب الليل والنهار ذكر هنا الأرض والسماء فقال:

(الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) أى الله الذى جعل لكم

الأرض مستقرا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وجعل لكم السماء سقفا محفوظا مزينا بنجوم ينشأ عنها الليل والنهار والظلام والضياء.

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق والأكوان — ذكر دلائل الأنفس فقال:

(وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات) أى وخلقكم فأحسن خلقكم، إذ خلق كلا منكم منتصب القامة، بادى البشرة، متناسب الأعضاء، مهيأ لمزاولة الصناعات، واكتساب الكمالات، ورزقكم من طيبات المطاعم والمشارب.

(ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) أى ذلكم الذى أنعم عليكم بهذه النعم، هو الذى لا تنبغى الألوهة إلا له، ولا تصلح الربوبية لغيره، لا من لا ينفع ولا يضر، فتقدس الله سبحانه وتنزه وهو رب العالمين.

ثم نبه إلى وحدانيته وأمر بإخلاص العبادة فقال:

(هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) أى هو الحى الذى لا يموت، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، لا معبود بحق غيره تجوز عبادته وتصلح الألوهة له، فادعوه مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهة، ولا تشركوا فى عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم، ولا تجعلوا له ندًّا ولا عِدْلا.

ثم أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه وجليل عظمته فقال:

(الحمد لله رب العالمين) أى احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملك وإنس وجن، لا الآلهة التى تعبدونها، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن نفع غيرها وضره، وعن ابن عباس أنه قال: «من قال لا إله إلا الله فليقل إثرها: الحمد لله رب العالمين» وذلك قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البينات التى جاءته ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة ، والخُشُب المصوّرة ، و بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

الإيضاح

(قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك من قريش وغيرهم : إنى نهيت أن أعبد ما تدعون من دون الله من وثن أو صنم ، حين جاءتنى الأدلة من عند ربى وهى آيات الكتاب الذى أنزله علىّ وهى مؤيدة لأدلة العقل ومنبهة لها .

وجملة ذلك — إن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التى فى الأكوان والأنفس .

ولما بين أنه نُهى عن عبادة غيرالله – أردف ذلك بذكر أنه أمر بعبادته تعالى فقال:
(وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أى وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له دينى.

ثم ذكر من الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال :

(هوالذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل إنسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم ، والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء — ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم .

وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب .

(١) الطفولة . (٢) بلوغ الأشد . (٣) الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة . وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، ولتعقلوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم . وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر — استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة فقال :

(هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له كن فيكون بلا معاناة ولا كلفة .

وهذا تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات حين تعلق إرادته بوجودها ، وتصوير لسرعة ترتب المكوّنات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ؟ (٦٩) الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)
إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ
اللهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) .

شرح المفردات

الكتاب : القرآن ، يسحبون : أى يجرّون ، الحميم : الماء الحار ، يسجرون : أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومنه : «وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» أى : المملوء ، ضلوا عنا : أى غابوا ، تفرحون : أى تبطرون ، تمرحون : تختالون أشراً و بطراً .

المعنى الجملى

عود على بدء بالتعجيب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الفاسدة ، والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟) أى انظر واعجب من هؤلاء المكابرين فى آياتنا الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها ،

كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى على الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها وقيام الأدلة على صحتها وأنها فى نفسها موجبة للتوحيد .

ثم بين صفات هؤلاء المبطلين بقوله :

(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) أى هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا من إخلاص العبادة له سبحانه والبراءة مما يعبد من دونه من الآلهة والأنداد والاعتراف بالبعث بعد الممات .

ثم هددهم وأوعدهم على ما يفعلون فقال :

(فسوف يعلمون. إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون) أى فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما نخبرهم به وصدق ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب حين تجعل الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ، يسحبون بها فى الحميم فينسلخ كل شىء عليهم من جلد ولحم وعروق، ثم تملأ بهم النار. ونحو الآية قوله : « ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقوله : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ »

ثم ذكر أنهم يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها فقال:

(ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) أى ثم يسألون ويقال لهم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ليغيثوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ؟ فيجيبون ويقولون غابوا عنا وأخذوا طريقا غير طريقنا وتركونا فى البلاء — لا ، بل الحق أننا ما كنا ندعو فى الدنيا شيئا يعتدّ به ، وهذا كما تقول حسبت أن فلانا شىء فإذا هو ليس بشىء ، إذا خبَرْته فلم تر عنده خيرا .

والخلاصة — إنهم اعترفوا بأن عبادتهم إياها كانت عبادة باطلة .

(كذلك يضل الله الكافرين) أي كما أضل الله تعالى هؤلاء وأبطل أعمالهم، كذلك يفعل بأعمال جميع من يدين بالكفر فلا ينتفعون بشيء منها .

ثم بين السبب فيما يأتيهم من هذا العذاب فقال :

(ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أي هذا الذي فعلنا بكم اليوم من شديد العذاب بسبب فرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا بارتكاب الشرك والمعاصي ، ومرحكم وبطركم فيها بتمتعكم باللذات .

(ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أي ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم كما قال تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » خالدين فيها أبدا ، فبئس منزل المتكبرين على الله في الدنيا أن توحدوه ويؤمنوا برسله - جهنم .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

المعنى الجملي

كان الكلام من أول السورة إلى هنا في تزييف طرق المجادلين في آيات الله ، وهنا أمر رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين في الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به هؤلاء المشركون فى آيات الله التى أنزلها عليك وعلى تكذيبهم إياك ، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر بهم والعلوّ عليهم وإحلال العقاب بهم ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة كما قال :

(فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) أى فإما نرينك فى حياتك بعض الذى نعدهم من العذاب والنقمة كالقتل والأسر يوم بدر فذلك ما يستحقونه ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وننتقم منهم أشد الانتقام ونأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ » .

ثم قال مسليا رسوله :

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) أى ولقد أرسلنا رسلا وأنبياء من قبلك إلى أممهم ، منهم من أنبأناك بأخبارهم فى القرآن وبما لاقوه من قومهم وهم خمسة وعشرون ، ومنهم من لم نقصص عليك فيه خبرهم ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينهم وبين أقوامهم .

وعن أبى ذر قال : «قلت يارسول الله كم عِدّة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيرا» رواه الإمام أحمد .

(وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى وليس فى الرسل أحد إلا آتاه الله آيات ومعجزات جادله قومه فيها وكذبوه ، وجرى عليه من الإيذاء ما يقارب ما جرى عليك فصبر على ما أوذى ، وكانوا يقترحون عليه المعجزات على سبيل

التعنت والعناد لا للحاجة إليها ، فكان من الحكمة عدم إجابتهم إلى ما طلبوا ، ولم يكن ذلك بقادح فى نبوّتهم ، فلا عجب فى اقتراح قومك عليك المعجزات التى لم يكن إظهارها صلاحا ، لاجرم إذ لم يجابوا إلى ما طلبوا ، لأن المصلحة فى عدم إجابتهم .

(فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) أى فإذا جاء أمر الله وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين قضى بالعدل فنجى رسله والذين آمنوا معهم ، وأهلك الذين افتروا على الله الكذب وجادلوا فى آياته وزعموا أن له شركاء .

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المبطلين وبالغ فى ذلك بما فيه العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — عاد إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لا تحصى .

الإيضاح

:

(الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون) المراد من الأنعام هنا: الإبل خاصة ، لأنها ذات المنافع التى ذكرت فى الآية ، وقد عد سبحانه لها الفوائد التالية :

(١) أكلها واستعمالها طعاما لهم ولضيفانهم وقد كانوا يتفاخرون بنحرها عند قدوم الطارق .

(٢) لها منافع أخرى كالأوبار والأصواف التى تتخذ منها بيوت الشَّعرَ والملابس الصوفية وقد كانوا يستعملونها كثيراً ، والألبان التى تستعمل شربا ويستخرج منها الجبن ليكون إداما لهم فى طعامهم وسائر حاجتهم المعيشية والجلود التى تدبغ لتكون نعالا وفُرُشا على ضروب شتى .

(٣) استعمالها للنُّجْعَة وطلب مساقط الغيث لحاجتهم إلى الكلأ والقوت لهم ولماشيتهم والسفر من صقع إلى صقع ومن قطر إلى آخر ، وهى لما لها من خفّ مفرطح أنسب حيوان للسير فى رمال الصحراء ومن ثم قالوا «الجمل سفينة الصحراء» وقال شاعرهم يصف ذلك :

مافَرَّقَ الألاَّف بَعْـــدَ الله إلا الإبلُ
وما غرابُ البين إلّا ناقةٌ أو جملُ

وقد كانت من أهم سبل المواصلات فى الأزمنة الغابرة فى البر كما كانت السفن كذلك فى البحر .

ونحو الآية قوله فى سورة النحل «وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ» .

ثم ذكر أن هذه آيات من آيات الله الباهرة التى لامجال لإنكارها فقال :

(ويريكم آياته فأىَّ آيات الله تنكرون) أى إنه تعالى له آيات يراها خلقه عيانا ويشاهدونها متجددة كل يوم وفى كل آن .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فأيًّا منها تنكرون، وبأيها تعترفون وهى ظاهرة بادية للعيان لاسبيل إلى جحدها .
وقصارى ذلك — إنكم لاتقدرون على إنكار شىء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) .

المعنى الجملى

ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته طلبا للرياسة والجاه والحصول على المال وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل لايغنى عنهم من الله شيئا ، وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فلم ينفعهم شىء من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأنّى لهم ذلك ؟ ، وهيهات هيهات .

فذلك لايجديهم فتيلا ولا قطميرا ، سنة الله فى عباده ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

صاحِ هل رَيْتَ أو سمعت براعٍ   ردّ فى الضَّرْع ماقَرَى فى الحِلاب

الإيضاح

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى أفلم يسر هؤلاء المجادلون فى آيات الله من مشركى قريش - فى البلاد ، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد - إلى ماحل بالأمم قبلهم ، ويشاهدوا ماأحللنا بهم من بأسنا حين تكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، وكيف كانت عاقبة أمرهم ، وقد كانوا أكثر منهم عددا وأشد بطشا وأقوى جندا وأبقى فى الأرض أثرا ، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع ويبنون أهراما ضخمة فلما جاءهم بأسنا ، وحلت بهم نقمتنا لم يغن ذلك عنهم شيئا ، ولا رد عنهم العذاب الذى حل بهم .

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلما جاء هذه الأمم المكذبة للرسل من أرسلوا إليهم بالأدلة الواضحة والبراهين الظاهرة ، فرحوا بما عندهم من شبهات ظنوها علما نافعا كقولهم : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ » وقولهم : « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا » وقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » ولكن حل بهم ما كانوا يستعجلون به رسلهم استهزاء وسخرية .

وقد سمى ماعندهم من العقائد الزائفة، وشبههم الداحضة علما تهكما واستهزاء بهم.

ثم ذكر حالهم حين عاينوا العذاب فقال :

(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) أى فلما عاينوا عذابنا النازل بهم قالوا آمنا بالله ، وكفرنا بتلك المعبودات الباطلة ، والآلهة الزائفة التى لاتجدى فتيلا ولا قطميرا .

ثم بين أن ذلك لايفيدهم شيئا فقد فات الأوان فلا يفيد الندم ولا الاعتراف بالحق شيئا .

ندم البُغاةُ ولاتَ ساعة مَنْدَم والبغىُ مرْتعُ مبتغيه وَخِيمْ

فقال سبحانه :

(فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أى فلم يفدهم إيمانهم عند معاينة عقابنا وحين ينزل بهم عذابنا ، بعد أن مضى فيهم حكمنا ، فمثل هذا الإيمان لايفيد شيئا كما قال تعالى لفرعون حين الغرق وحين « قال : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » — « الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟» .

وبعدئذ ذكر سبحانه أن هذه سنته فيهم وفى أمثالهم من المكذبين فقال :

(سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) أى وهكذا كانت سنة الله فى الذين سلفوا إذا عاينوا عذابه لم ينفعهم إيمانهم حينئذ ، بعد أن جحدوا ربهم وأنكروا وحدانيته وعبدوا مَن دونه من الأصنام والأوثان .

وقصارى ذلك — إن حكم الله فى جميع من تاب حين معاينة العذاب ألا تقبل منه توبة ، وقد جاء فى الحديث « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أى فإذا غرغر وبلغت الروح الحلقوم فلا توبة ، ولهذا قال : « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » .

اللهم اقبل توبتنا ، واغفر حَوْبَتَنا ، وآمن روعتنا ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

مجمل ماحوته السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .

(٢) الجدل بالباطل فى آيات الله .

(٣) وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله .

(٤) طلب أهل النار الخروج منها لشدة الهول ثم رفض هذا الطلب .

(٥) إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .

(٦) إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .

(٧) قصص موسى عليه السلام مع فرعون وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والذى يكتم إيمانه .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

(٩) تعداد نعم الله على عباده فى البر والبحر .

سورة فصلت

هى مكية وآيها أربع وخمسون ، نزلت بعد غافر .

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ولينظر بم يرد عليه ؟ فقالوا مانعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة فقالوا ائته يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبدالمطلب ؟، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عتبة فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلمْ حتى نسمع قولك ، أما والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله ماننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يارجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا

لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغت ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » — حتى بلغ — « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فقال عتبة : حسبك حسبك ، ماعندك غير هذا ؟ قال : لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ماوراءك ؟ قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا فهل أجابك ؟ قال والذى نصبها بَنِيَّةً (يريد الكعبة) ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال ؟ قال لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة » .

وأخرج أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة حٰمٓ أتى أصحابه فقال ياقوم أطيعونى فى هذا اليوم واعصونى بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ماسمعت أذنى قط كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه » . وفى هذا الباب روايات كثيرة تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة وتلاوته صلى الله عليه وسلم أول هذه السورة عليه .

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنهما اشتركتا فى تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم فى السورة السابقة بقوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الخ » وهددهم هنا بقوله : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .

(٢) إن كلتيهما بدئ بوصف الكتاب الكريم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥).

شرح المفردات

لايسمعون : أى لايقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى : أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، والأكنة واحدها كنان كأغطية وغطاء: وهى خريطة السهام؛ والمراد أنها فى أغطية متكاثفة ، والوقر: الثقل فى السمع.

الإيضاح

(حم) تقدم الكلام فى هذا فى السورة قبلها .

(تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا القرآن منزل من الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وخص هذين الوصفين (الرحمن الرحيم) بالذكر لأن الخلق فى هـذا العالم كالمرضى المحتاجين إلى الدواء ، والقرآن مشتمل على كل مايحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان رحمة لهم ولطفا بهم كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

(كتاب فصلت آياته) أى هو كتاب بينت آياته، وميزت لفظا بفواصل ومقاطع،

ومبادئ للسور وخواتم لها ، وميزت معنى بكونها وعدا ووعيدا ، ومواعظ ونصائح ، وتهذيب أخلاق ورياضة نفس ، وقصص الأولين ، وتواريخ الماضين .

ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

(قرآنا عربيا) أى أنزلناه بلغة العرب ، ليسهل عليهم فهمه كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

وفى هذا امتنان من الله عليهم ليسهل عليهم قراءته وفهمه .

(لقوم يعلمون) معانيه لكونه جاء بلسانهم ، فهم أهل اللسان فيفهمونه بلا واسطة ، وغيرهم لايفهمه إلا بوساطتهم .

(بشيراً ونذيراً) أى بشيراً لأوليائه بالجنة والنعيم المقيم إن داوموا العمل بما فيه من أوامر ونواه ، ونذيراً لأعدائه بالعذاب الأليم إن هم أصروا على التكذيب به والجدل فيه بالباطل وترك أوامره وفعل نواهيه .

ثم بين حال المشركين حين أنزل إليهم فقال :

(فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون) أى فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق .

ثم صرحوا بنفرتهم منه وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب تعللا واحتقاراً لدعوته :

(١) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا ، فهى لاتفقه ما تقول من التوحيد ولا يصل إليها قولك .

(٢) (وفى آذاننا وقر) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) (ومن بيننا و بينك حجاب) أى ومن بيننا و بينك ستر يمنعنا عن إجابتك.

روى أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا و بينك حجاب ، استهزاء منه .

وقصارى ما يقولون : إن قلوبهم نابية عن إدراك ماجئت به من الحق وتقبله واعتقاده كأنها فى غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لايدخل إليها شىء منه كأن بها صمما ، ولتباعد الدينين وتباعد الطريقين كان بينهم وبين رسول الله حجاب كثيف وحاجز منيع .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده مجال للوفاق فقالوا :

(فاعمل إننا عاملون) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشتيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) .

شرح المفردات

فاستقيموا إليه : أى فأخلصوا له العبادة ، ويل : أى هلاك ، لايؤتون الزكاة: أى لايفعلون مايزكى أنفسهم من الإيمان والعمل الصالح ، ممنون : أى مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلقٍ على الصديق ولا خيرى بممنونِ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المشركون الأسباب التى تحول بينهم وبين قبول دعوته — أمر رسوله أن يجيب عن كلامهم بأنه لايقدر على جبرهم على الإيمان وحملهم عليه قسرا ،

فإنه بشر مثلهم ولا ميزة له عليهم إلا بأن الله أوحى إليه ولم يوح إليهم ، ثم ذكر أن خلاصة الوحى علم وعمل ، أما العلم فدعامته التوحيد ، وأما العمل فأسه الاستغفار والتوبة مما فرط من الذنوب ، ثم أردف ذلك بالتهديد لمن يشرك بالله ولا يزكى نفسه من دنس الشح والبخل ، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة ، وينصرف إلى الدنيا ولذاتها ، وبعد أن ذكر وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم عند ربهم أجرا دائما غير مقطوع ولا ممنوع .

الإيضاح

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) أى قل أيها الرسول لقومك : ما أنا إلا بشر مثلكم فى الجنس والصورة والهيئة ، ولستُ بملَك ولا جنّى لايمكنكم التلقى منى ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ، بل أدعوكم إلى التوحيد الذى دلت عليه الدلائل الكونية وأيده النقل عن الأنبياء جميعا من آدم فمن بعده ، فأخلصوا له العبادة وسلوه العفو عن ذنوبكم التى سلفت منكم بالتوبة من شرككم — يتب عليكم ويغفر لكم .

(وويل للمشركين . الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) أى وخسارة وهلاك لمن أشرك بربه ولم يواس البائس الفقير بشىء من ماله ، يدفع به عوزه ، ويزيل خصاصته ، وأنكر البعث والحساب والجزاء ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذاك أقوى دليل على استقامته وثباته وصدق نيته ، وصفاء طويته ؛ وما خُدِع المؤلَّفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، بها لانت شكيمتهم ، وزالت عصبيتهم ؛ وما ارتدت بنو حنيفة بعد رسول الله إلا بمنعهم

الزكاة ، فعرّضوا أنفسهم للحرب ، والطعن والضرب ، إبقاء على أموالهم ولو ذهبت مهجهم وأرواحهم .

وقصارى ذلك — دمار وهلاك لمن أشرك بربه ، ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التي من أهمها البخل بالمال ودفع غائلة الجوع عن المسكين والفقير ، وأنكر البعث والجزاء .

ونحو الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

و بعد أن ذكر وعيد المشركين أردفه بوعد المؤمنين فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمر به ، وانتهوا عما نهى عنه — لهم عند ربهم جزاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قال السُّدّى : نزلت هذه الآية فى المرضى والزمْنَى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون فى الصحة .

ونحو الآية قوله : « مَا كِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » وقوله : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

فى يومين : أى فى نوبتين ، والرواسى : الجبال الثوابت ، أقواتها : أى أقوات أهلها ، سواء : أى كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أى لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، استوى : أى عمد وقصد نحوها قصدا سويا من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجها لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، دخان : أى مادة غازية أشبه بالدخان ، فقضاهن : أى فرغ من تسويتهن، أمرها : أى شأنها وما هى مستعدة له واقتضت الحكمة أن يكون فيها ، بمصابيح : أى بكواكب ونجوم ، وحفظا : أى وحفظناها حفظا من الآفات .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحى أن إلهكم إله واحد ، فأخلصوا له العبادة — أردف هذا بما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات ، ولا عجب فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما لا يخفى عليه شىء منهما ، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقهما وتقديرهما ، تعالى الله عن ذلك .

الإيضاح

(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ؟) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخا وتقريعا . كيف تكفرون بالله الذى خلق الأرض التى تقلكم

فى نوبتين ؟ فتقولوا إنه لايقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبوا إليه الأولاد ، وتقولوا إنه لم يبعث أنبياء — أى كيف تقولون هــذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

(وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون له أنداداً وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام والأوثان .

ثم شدد عليهم فى الإنكار و بين أن مثل هذا لاينبغى أن يكون فقال :

(ذلك رب العالمين) أى ذلك الذى خلق الأرض فى نو بتين نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستا وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض (الجلوجيا) ـ هو رب العالمين لاربها وحدها ، فهو مربى المخلوقات جميعا ، فإن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبات يعلم سبحانه عددها ، فكيف يكون شىء منها ندا له وضريبا ؟.

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال :

(وجعل فيها رواسى من فوقها) أى وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسُسُها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال آساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصلة إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ، فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صوانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلو مترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب .

(وبارك فيها) أى وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع ، فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار، ومخزنا للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس .

(وقدر فيها أقواتها) أى قدر لأهلها من الأقوات مايناسب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجا إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنتقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

(فى أربعة أيام) أى إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما : أى فى تتمة خمسة عشر يوما .

وقصارى ذلك — إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .

(سواء للسائلين) أى فى أربعة أيام كاملة على وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ » فالناس والحيوان جميعا كلهم سائلون ربهم مايحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء — سؤالا طبيعيا مغروسا فى جبلّتهم .

ولما كان الإنسان يهتم بحال ماحوله من الأرض قدم ذكرها وبين أنها هى وما عليها قد كوّنها فى أربع نوبات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر فحسب فقال :

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ؛ وتسمى فى العلم الحديث

(عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأصل دخانا .

وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة ، بل كان على وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، وكفى بكتاب مقدس أن يقول : إنه خلق الأرض فى نوبتين، وما عليها فى نوبتين ، والسموات السبع كذلك .

ثم ذكر ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال :

(فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) أى فقال لتلك العوالم السماوية ، وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين فأجابتا قالتا أتينا طائعين ، قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك ، طائعتين أو كارهتين : « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لاجرى قسر، فإنا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعا لا قسرا ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذى هو فيه .

(فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى فأتم خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة كما قال « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما اقتضته الحكمة وحسن النظام .

ومن ذلك يفهم وجه الحكمة فى قوله — فقال لها وللأرض الخ ، وهى الدلالة على أن حركة الإتيان منهما كانت معا ، فبينما نرى الأرض دائرة حول نفسها وحول

الشمس نرى الشمس دائرة حول نفسها وحول شموس أخرى أكبر منها ، فهذا هو السبب فى ذكرهما معا .

وقصارى ذلك — إنه قال لهما معا وأجابتاه معا ، لأن الأرض لما كانت ضمن المجموعة الشمسية كانت دائرة كبقية أجزائها .

(وأوحى فى كل سماء أمرها) أى وخلق فى كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحار و برد وثلج إلى نحو أولئك مما لايعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة .

(وزينا السماء الدنيا بمصابيح) أى بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وهى وإن تفاوتت ارتفاعا وانخفاضا فكلها ترى متلألئة .

(وحفظا) أى وحفظناها من الاضطراب فى سيرها ومن اصطدام بعضها ببعض ، وجعلناها تسير على نهج واحد مادام هذا النظام باقيا حتى يأتى اليوم الموعود ، فهناك تختل نظمها كما قال سبحانه : «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى إن ذلك الذى تقدم هو تقدير العزيز الذى قد عزّ كلّ شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها ، سرها ونجواها ، ظاهرها و باطنها .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) .

شرح المفردات

صاعقة : أى عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأىّ شىء كان ، وهى فى الأصل الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، من بين أيديهم ومن خلفهم : أى من كل ناحية ، صرصرا : أى باردة تهلك بشدة بردها . أنشد قطرب قول الحطيئة فى المديح :

المُطْعِمُون إذَا هبَّتْ بصَرْصَرَةٍ والحاملون إذا استُودُوا على الناس

استودوا : أى سئلوا الدية . نحسات واحدها نحسة (بكسر الحاء) أى نكدات مشئومات ، والهون : الذل .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم عبادة الأنداد والأوثان وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك ، لم يبق حينئذ طريق للعلاج .

ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم، كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

الإيضاح

(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك المكذبين لِمَا جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله فإنى أنذركم بحلول نقمته بكم كما حلت بالأمم الماضية التى كذبت رسلها كعاد وثمود ومن على شاكلتهما ممن فعل فعلهما حين جاءتهم الرسل فى القرى المجاورة لبلادكم، وأمروا أهلها بعبادة الله وحده، فكذبوهم واستكبروا عن إجابة دعوتهم، واعتذروا بشتى المعاذير كما ذكر ذلك سبحانه بقوله:

(قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) أى قالوا إنا لا نصدق برسالتكم فما أرسل الله بشرا، ولو أرسل رسلا لأنزل ملائكة، وإذاً فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

وقد تقدم فى غير موضع دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاءوا بها. وقوله:

« بما أرسلتم به » ليس إقراراً منهم بكونهم رسلا، بل ذكروه استهزاء بهم كما قال فرعون: « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ».

أخرج البيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال « قال أبو جهل والملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت السحر والكهانة والشعر، وعلمت من ذلك علما، وما يخفى علىّ إن كان كذلك، فأتاه فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه، قال: لِمَ تشتم آلهتنا وتضللنا؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن بك الباءة (الميل إلى قربان النساء) زوجناك عشر نسوة تختارهن، أىّ بنات

من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغنى به ، ورسول الله ساكت ، فلما فرغ قال صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا — حتى بلغ — فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا لانرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لايكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم ، ولقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب » .

وقد ذكرنا هذا القصص قبل برواية أخرى ، وهذه الرواية أتم من سابقتها فأعدناها تكميلا للفائدة .

ولما بين سبحانه كفر قوم عاد وثمود إجمالا و بين معاذيرها — أردف ذلك بذكر ما لكل منهما من الجناية وما حل به من العذاب فقال :

(فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟) أى فأما عاد فبغوا وعصوا ربهم ولم يقبلوا كلام الرسول الذى جاء لهم وقالوا من أشد منا قوة؟ حتى يستطيع قهرنا و إذلالنا ، وقد كانوا قوما طوال القامة شديدى الأسر ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، وقد روى فى قوتهم روايات ليس بنا حاجة إلى تصديقها كقولهم : إن الرجل منهم كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ويجعلها حيث يشاء .

فرد الله عليهم موبخا بقوله :

(أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟) أى أما يفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ إنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ،

وإن بطشه لشديد ، وإنه لقادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، فيقول · (كن فيكون)

(وكانوا بآياتنا يجحدون) أى وكانوا يعرفون أن آياتنا التى أنزلناها على رسلنا حق لامرية فيها ، ولكنهم جحدوها وعصوا رسله .

وقد يكون المراد : إنهم جحدوا الأدلة التكوينية التى نصبناها لهم ، وجعلناها حجة عليهم .

ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

(فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) أى فأرسلنا عليهم ريحا باردة تهلك بشدة بردها ، وإذا هبت سمع لها صوت قوىّ لتكون عقوبة لهم من جنس ما اغتروا به .

ثم بين سبحانه وقت نزول العذاب عليهم فقال :

(فى أيام نحسات) أى فى أيام مشئومات نكدات متتابعات كما قال فى آية أخرى : « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » .

ثم بين الغاية التى من أجلها نزل العذاب فقال :

(لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى أنزلنا عليهم هذا العذاب كى نذيقهم الذل والهوان فى الحياة الدنيا بسبب ذلك الاستكبار .

ثم أرشد إلى أن هذا العذاب هين يسير إذا قيس بعذاب الآخرة فقال :

(ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) أى ولعذاب الآخرة أشد إهانة وخزيا من عذاب الدنيا ، وهم لايجدون إذ ذاك نصيرا ولا معينا يدفعه عنهم .

وبعد أن ذكر قصص عاد أتبعه بقصص ثمود فقال :

(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى وأما ثمود فبينا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ، ودللناهم على سبل النجاة بنصب الأدلة التكوينية ، وإنزال الآيات التشريعية ، فكذبوه واستحبوا العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان .

ثم ذكر جزاءهم على ما اختاروه لأنفسهم فقال :

(فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) أى فأرسلنا عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا ، بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله .

(ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ونجينا صالحا ومن آمن معه من المؤمنين من ذلك العذاب ، فلم يمسسهم سوء ولا نزل بهم مكروه ، بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) .

شرح المفردات

يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم ؛ من قولهم ، وزعته : أى كففته ، جلودهم : أى جوارحهم ، أرداكم : أى أهلكم ، مثوى : أى مقام ، وإن يستعتبوا : أى يطلبوا العتبى والرضا ، من المعتبين : أى المجابين إلى ما يطلبون

يقال أعتبنى فلان : أى أرضانى بعد إسخاطه إياى ، قال الخليل : تقول استعتبته فأعتبنى : أى استرضيته فأرضانى ، قال النابغة فى اعتذاراته للنعمان بن المنذر :

فإن أكُ مظلوما فعبدٌ ظلمتَه وإن يكُ ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتِبُ

المعنى الجملى

بعد أن بين كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون — أردف ذلك بذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتمّ للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر .

الإيضاح

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) أى واذكر أيها الرسول لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعون ويزدجرون حين يساقون إلى النار ، فيحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قاله السدى وقتادة وغيرهما .

وفى هذا إيماء إلى كثرة عددهم وشدة سوقهم ودفعهم .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) أى حتى إذا وُقفوا على النار شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من المعاصى ، بعلامات متمايزة تدل على الأخلاق المختلفة ، لكل خلق منها علامة خاصة نحن لانعرف الآن كنهها ، وربما كانت سوائل روحية ، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ؛ فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة ، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة ، وتلك السوائل تلازمهم فتكون مشقية لهم ومضايقة ، أو مفرحة لهم ومنعمة ، وهكذا الأجسام بعد الموت لاتشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم .

ثم ذكر سبحانه أنهم لاموا جوارحهم على أداء الشهادة التى تُلزمهم الحجة، فحكى عنهم قولهم لها.

(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟) أى قالوا على جهة اللوم والمؤاخذة لجلودهم حين شهدوا عليهم، لم شهدتم علينا؟ وقد كانوا فى الدنيا مساعدين لهم على المعاصى، فكيف يشهدون عليهم الآن؟.

فأجابوهم حينئذ معتذرين:

(قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) أى قالوا: إن الله جعل فينا من الدلالات الفعلية ما يقوم مقام النطق، بل ما هو أفصح منها، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح.

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى. قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى. قال: يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطق، فتنطق بأعماله، قال ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول بُعْدًا لكن وسُحْقاً، فعنكنّ كنت أناضل».

(وهو خلقكم أول مرة) فهو لا يخالَف ولا يمانَع، وقد جعل فيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها، ولكنّ قليلا من الناس من يفطن إلى ذلك.

فمن قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه، ومن ثم قال:

(وإليه ترجعون) أى وإليه مصيركم بعد مماتكم، فيجازى كل نفس بما كسبت لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

ثم وبختهم جلودهم على ما كانوا يفعلون فى الدنيا فقالت لهم :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أى وما كنتم تَسْتَخْفُون حين تفعلون قبيح الأعمال ، وترتكبون عظيم الفواحش - بالحيطان والحجب حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصى ، وتجحدون البعث والجزاء .

قال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى فأحسن :

العمرُ ينقص والذنوبُ تزيد وتقال عَثَراتُ الفتى فيزيدُ
هل يستطيع جحودَ ذنب واحد رجلٌ جوارحُه عليه شهودُ
والمرء يُسأل عن سِنيه فيشْتَهى تقليلَها وعن الممات يحيدُ

(ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكن ظننتم عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون من المعاصى فاجترأتم على فعلها .

والخلاصة — إنكم كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار حين ارتكاب الذنوب ، وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم ، كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمن أن تمر عليه حال إلا وهو يفكر فى أن الله رقيب عليه ، كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قُلْ علىَّ رقيب
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشى وثقفيان ، أو ثقفى وقرشيان ، قليلٌ فقه قلوبهم ، كثير شحم

بطونهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر إن سمع منه شيئا سمع كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ — إلى قوله مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) أى وهذا الظن الفاسد الذى كان منكم فى الدنيا وهو أن الله لا يعلم كثيرا من قبائح أعمالكم ومساويها — هو الذى أوقعكم فى مواقع التلف والردى ، فصرتم اليوم من الهالكين إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء ، فكفرتم نعم الخالق والرازق ، وانهمكتم فى الشهوات والمعاصى .

أخرج أحمد وأبو داود والطيالسى وعبد بن حميد ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال العلماء : الظن قسمان :

(١) حسن ؛ وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل « أنا عند ظن عبدى بى » .

(٢) قبيح ؛ وهو أن يظن أن الله يعزب عن علمه بعض الأفعال .

وقال قتادة ، الظن نوعان : مُنْجٍ ومُرْدٍ .

(١) فالمنجى قوله : « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ » .

(٢) والمردى هو قوله : «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» .

وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون على المعاصى ، ولا يتوبون منها ، ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وقد كذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

ثم أخبر عن حالهم فقال :

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) أى فإن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا وتكون النار مثوى لهم ومُقاما .

(وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وإن يبدوا معاذير فلن تقبل منهم ولا تقال لهم العثرات .

ونحو الآية قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

وقيضنا : أى يسرنا وهيأنا ، قرناء : واحدهم قرين : أى أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس ، والغوا فيه : أى عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوّشوا عليه ، دار الخلد : أى دار الإقامة المستمرة ، تحت أقدامنا : أى ندوسهما بهما انتقاما منهما.

المعنى الجملى

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك بذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن عملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لايتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته برفع الأصوات وإنشاء الأشعار حتى يهوشوا على القارئ ويغلبوا على قراءته ؛ ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد يطلبون أن يروا من كانوا السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والإنس ليدوسوهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية .

الإيضاح

(وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى وسلطنا عليهم إخوانا وأعوانا من شياطين الجن والإنس ، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، فألقوا إليهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا إلا الدهر ، فسهل عليهم فعل ما يشتهون ، وركوب كل ما يتلذذون به من الفواحش .

(وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الذين كفروا من قبلهم ممن فعلوا فعلهم .

ثم علل استحقاقهم للعذاب فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) أى لأنهم استووا جميعا فى الخسار والدمار واستحقوا اللعن والخزى فى الحياة الدنيا والآخرة .

و بعد أن أخبر عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا بالقرآن فقال :

(وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لاتنصتوا لسماع هذا القرآن ، وعارضوه باللغو والباطل بإنشاد الشعر والأراجيز حتى تهوشوا على القارئ لعلكم تغلبون على قراءته ، وتميتون ذكره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون : الغوا فيه بالبكاء والصفير و إنشاد الشعر .

قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى ما يقول :

وقد يكون المعنى لاتطيعوا . من قولهم : سمعت لك : أى أطعتك .

ثم أوعد الكفار بالعذاب الشديد فقال :

(فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى فلنذيقن الكافرين عذابا لايحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوإ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام و إكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ، ومن ثم لم يجازَوا إلا على السيئات .

وفى هذا تعريض بمن لايخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن ، وتهديد ووعيد لمن يصدر منه حين سماع القرآن ما يهوش على القارئ ويخلط عليه القراءة .

ثم بين العذاب الشديد الذى يحيق بهم فقال :

(ذلك جزاء أعداء الله النار) أى ذلك الجزاء المعدّ لأعداء الله هو النار .

(لهم فيها دار الخلد) أى إنهم مخلدون فيها أبدا لا انقطاع لعذابها ولا انتقال منها .

ثم ذكر أن هذا جزاء لما عملوا فقال :

(جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى هى جزاء لهم على جحودهم بآياتنا ، واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

(وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى العذاب : ربنا أرنا شياطين الإنس والجن الذين أوقعونا فى الضلال ندسهم تحت أقدامنا انتقاما منهم ومهانة وذلة لهم .

وقصارى ذلك — إنهم طلبوا من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقى الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ، والشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم ويحملونهم على المعاصى .

والشياطين على ضربين : جنىّ وإنسيّ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » وقال : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وقال علىّ كرم الله وجهه : هما ابن آدم الذى قتل أخاه و إبليس أى لأنهما هما اللذان سنّا المعصية .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) .

شرح المفردات

استقاموا : أى ثبتوا على الإيمان ولم يرجعوا إلى الشرك ، أولياؤكم : أى أعوانكم فى شئونكم ، تدّعون : أى تتمنون وتطلبون ، النزل : ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المعنى الجملى

بعد أن أسلف القول فى وعيد الكفار بما لم يبق بعده فى القوس منزع — أعقبه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من إتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

قال عطاء عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق .

الإيضاح

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى إن الذين قالوا ربنا الله اعترافا بربوبيته ، وإقرارا بوحدانيته ، ثم ثبتوا على ذلك فلم تزل أقدامهم ، ويدخل فى هذا كل العبادات والاعتقادات .

قال أبو بكر رضى الله عنه : الاستقامة ألا يشركوا بالله شيئا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى والبخارى فى تاريخه ومسلم والنسائى وابن ماجه وابن حبّان عن سفيان بن عبد الله الثقفى « أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه » قال الترمذى حسن صحيح .

والخلاصة — الاستقامة : الاعتدال فى الطاعة اعتقاداً وقولا وفعلا مع الدوام على ذلك .

(تتنزل عليهم الملائكة) من عند الله سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن ؛ أى بكل ما يعنّ لهم من الشئون الدنيوية والدينية مما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام ، كما أن الكفار يغويهم قرناء السوء بتزيين المعاصى وارتكاب الآثام .

قال وكيع : البشرى تكون فى ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث.

(ألا تخافوا ولا تحزنوا) أى لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

وقال عطاء : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها.

(وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) أى ويقال لهم : أبشروا بالجنة التى وعدتم بها على ألسنة الرسل فى الدنيا ، فإنكم واصلون إليها ، مستقرون بها خالدون فى نعيمها .

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من هذا كله فقال :

(نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى نحن أعوانكم فى أمور دنياكم نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم فى دنياكم ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤمّنكم من الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ويوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .

وقصارى ذلك — نحن المتولون حفظكم وولايتكم فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليَّه فاز بكل مطلب ، ونجا من كل مخافة .

(ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) من صنوف اللذات وأنواع النعم .

(ولكم فيها ما تدّعون) أى ولكم فيها ما تمنون وتطلبون .

ونحو الآية قوله : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » .

والجملة الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار ما يطلبون سواء أكان مشتهى لهم أم لا ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى كالفضائل العلمية ونحوها.

(نزلاً من غفور رحيم) أى أعطاكم ربكم ذلك كرامة من لدنه ، وهو الغفور لذنوبكم ، الرحيم بكم أن يعاقبكم بعد توبتكم .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ (٣٣) وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) .

شرح المفردات

دعا إلى الله : أى دعا إلى توحيده ، المسلمين: أى الخاضعين ، الحسنة : ما ترضى الله ويتقبلها ، والسيئة : ما يكرهها ويعاقب عليها ، ادفع : أى ردّ ، والحميم: الصديق ، وما يلقاها : أى يتقبلها ويحتملها ، حظّ : أى نصيب وافر من الخير ، ينزغنك : أى يوسوسن لك ، وأصل النزغ : النخس ، فاستعذ بالله : أى التجئ إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصى — أردف ذلك بذكر حال أضدادهم الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته ، ثم أعقب هذا بأن الحسنة والسيئة لا يستويان ثوابا عند الله ، ثم أمر رسوله بدفع سفاهات المشركين وجهالاتهم بطريق الحسنى ، لما فى ذلك من تألف القلوب ، وارعواء النفوس عن غيها ، وثوبها إلى رشدها ، وأرشد إلى أن هذه فعلة لا يتقبلها إلا الصابرون على احتمال المكاره ، ومن لهم حظ عظيم من الثواب عند الله ، ثم ختم ذلك بتلك النصيحة الذهبية ، وهى أنه إذا صرف الشيطانُ المرء عن شىء مما شرعه الله فليتعوذ من شره ولا يطعه فى أمره ، والله سميع لما يقول ، عليم بكل ما يفعل ، وهو المجازى له على ذلك .

الإيضاح

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ؟) أى لا أحد أحسن قولا ممن جمع بين خصال ثلاث :

(١) الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين والسُّدى وابن زيد والحسن : والداعى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خِيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

(٢) العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

(٣) أن يتخذ الإسلام دِينا ويخلص إلى ربه ، من قولهم : هذا قول فلان أى مذهبه ومعتقده .

وقد يكون المراد أنه يتلفظ بذلك ابتهاجا بأنه منهم وتفاخرا به مع قصد الثواب .

وبعد أن ذكر محاسن الأعمال التى بين العبد وربه — ذكر محاسن الأعمال التى بين العباد بعضهم مع بعض ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذى المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان فقال :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى ولا تتساوى الحسنة التى يرضى الله بها ويثيب عليها ، والسيئة التى يكرهها ويعاقب عليها .

وقد يكون المعنى — ولا تستوى دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى ، والصبر على سفاهة الكفار ، وترك الانتقام منهم - وما أظهروه من الغلظة والفظاظة فى قولهم : « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » وقولهم : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » .

والخلاصة — إن فعلك أيها الرسول حسنة ، وإن فعلهم سيئة ، فإذا أتيت بهذه الحسنة استحققت التعظيم فى الدنيا ، والمثوبة فى الآخرة ، وهم بضد ذلك ، فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على السيئة مانعا من الاشتغال بالحسنة .

ثم ذكر بعض الحسنات ووضحها بذكر بعض ضروبها فقال :

(ادفع بالتى هى أحسن) أى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التى هى أحسن الطرق ، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر والإغضاء عن الهفوات ، واحتمال المكاره ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ، ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم ، وتركوا قبيح أفعالهم .

ثم بين نتائج الدفع بالحسنى فقال :

(فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم) أى إنك إن فعلت ذلك انقلبوا من العداوة إلي المحبة ، ومن البغض إلى المودة ، قال عمر : ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وقال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر

عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم .

وروى أن رجلا شتم قَنْبَرا مولى علىّ بن أبى طالب ، فناداه علىّ يا قَنْبَر دع شاتمك ، والْهُ عنه تُرض الرحمٰن ، وتسخط الشيطان .

وقالوا ما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه ، ولله در القائل :

وللكفُّ عن شتم اللئيم تكرما أضرُّ له من شتمه حين يُشْتم

وقال آخر :

وما شىء أحبُّ إلى سفيهٍ إذا سبَّ الكريم من الجواب
متاركةُ السفيه بلا جواب أشدُّ على السفيه من السِّباب

وقال محمود الوراق :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه لدىَّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأتْبَع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صُنْتُ عن إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا تفضلتُ إن الفضل بالحلم حاكم

وقال آخر :

إن العداوة تستحيل مودةً بتدارك الهفوات بالحسنات

قال مقاتل : نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبى صلى الله عليه وسلم فصار له وليًّا فى الإسلام حميا بالمصاهرة .

ثم نبه إلى عظيم فضل هذه الطريق بقوله :

(وما يلقاها إلا الذين صبروا) أي ومايقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا الصابرون

على تحمل المكاره وتجرّع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ، فإن ذلك يشق على النفوس ، و يصعب احتماله فى مجرى العادة إلا من عصم الله .

وقال أنس فى تفسير ذلك : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنتَ صادقا غفر الله لى ، و إن كنتَ كاذبا غفر الله لك .

(وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى وما يتقبلها إلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة .

قال قتادة : الحظ العظيم الجنة ، أى وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة .

ثم ذكر طريقا لمنع تهييج الشر ودفع الغضب إذا بدت بوادره فقال :

(و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) أى و إن وسوس إليك الشيطان ليحملك على مجازاة المسىء فاستعذ بالله من كيده وشره ، واعتصم من خطراته ، إنه هو السميع لاستعاذتك منه ، واستجارتك به من نزغاته ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك ، العليم بما ألقى فى رُوعك من نزغاته وحدثتك به نفسك وما قصدت من صلاح ، ونويت من إحسان .

ومن شياطين الإنس من يفعل مثل هذا ، فيصرف عن الدفع بالتى هى أحسن ، فيقول لك : إن فلانا عدوك الذى فعل بك كيت وكيت ، فانتهزِ الفرصة ، وخذ ثأرك منه لتعظم فى عينه وأعين الناس ، ولا يظنّنّ فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى نحو أولئك من العبارات المثيرة للغضب التى ربما لاتخطر ببال شياطين الجن — نعوذ بالله من شر كل شيطان .

والخلاصة — إن صرفك الشيطانُ عما شرعتَ فيه من الدفع بالحسنى ، فاستعذ بالله من شره ، وامض لشأنك ، ولا تطعه .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) .

شرح المفردات

الآية : هى البرهان والحجة ، يسأمون : أى يملّون ، خاشعة : أى جامدة يابسة لا نبات فيها ، اهتزت : أى تحركت ، وربت : أى انتفخت .

المعنى الجملى

لما ذكر فى الآيات السابقة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى ـ أردفه بذكر الدلائل على وجوده تعالى وقدرته وحكمته ، تنبيها إلى أن الدعوة إلى الله هى تقرير الدلائل على ذاته وصفاته ، ثم ذكر منها الدلائل الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم أتبعها بآية أرضية تشاهد رأى العين فى كل حين وهى حال الأرض حين خلوّها من المطر والنبات ، ثم حالها بعد نزول المطر ، فهى تنتعش بعد أن كانت ميتة ، وتهتز بعد أن كانت ساكنة ، والذى أحياها هو الذى يحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير .

الإيضاح

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أى ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالتها على وحدانيته وعظيم سلطانه — الليل والنهار ، ومعاقبة كل منهما صاحبه ،

والشمس ونورها ، والقمر وضياؤه ، وتقدير منازلها فى فلكيهما ، واختلاف سيرهما فى السماء ، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار والأسابيع والشهور والأعوام ، وبذلك تضبط المعاملات وأوقات العبادات .

ولما كانت الشمس والقمر من أجل الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى نبه إلى أنهما مخلوقان مسخران له تعالى وهما تحت قهره وسلطانه فلا تعظموهما وعظموا خالقهما فقال :

(لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) أى لا تسجدوا أيها الناس للشمس والقمر ، فإنهما إنما يجريان بمنافعكم بإجراء الله إياهما طائعين له فى جريهما ، وهما لا يستطيعان لكم نفعا ولا ضرا ، فله فاسجدوا ، وإياه فاعبدوا دونهما ، لأنهما لا فضيلة لهما فى أنفسهما ، فيستحقا بها العبادة من دون الله ، ولو شاء الله لأعدمهما أو طمس نورهما .

وفى هذا رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب والنجوم ، وزعموا أنهم بعبادتهم إياها يعبدون الله ، فنهوا عن ذلك .

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) أى فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون هذه الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله — فالله لا يعبأ بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلا ونهارا ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملّون .

ولما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أى ومن الأدلة على قدرته تعالى على البعث وإحياء الموتى بعد بِلاها وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها — أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ،

فإذا نزل عليها من السماء الغيث تحركت بالنبات وانتفخت وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ثم تصدعها وتشققها إذا حان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو فى الجوّ ويغطى قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقه .

(إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير) أى إن الذى أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع — قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم ، وهو القدير على كل شىء ، لا يعجزه شىء كائنا ما كان.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) .

شرح المفردات

يقال: ألحد الحافر فى الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق منها ، والمراد بالملحدين المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ، والذكر . القرآن ، من بين يديه ومن خلفه : أى من جميع جهاته ، حكيم : أى فى جميع أفعاله ، حميد : أى محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة — أعقب هذا بتهديد من ينازع

فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد ، فهددهم بقوله : « لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » وبقوله : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » و بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ الخ » .

الإيضاح

(إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) أى إن الذين يميلون عن الحق فى حججنا تكذيبا بها وجحودا لها — نحن بهم عالمون لا يخفون علينا ، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا ، وسنجازيهم بما يستحقون .

ولا يخفى ما فى ذلك من شديد الوعيد كما يقول الملك المهيب: إن الذين ينازعوننى فى ملكى أعرفهم ، ولا شك فهو يريد تهديدهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال :

(أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟) أى أفمن يلقى فى النار لإلحاده بالآيات وتكذيبه الرسول خير أم من آمن بها وجاء يوم القيامة من الآمنين حين يجمع الله الخلائق للعرض عليه والحكم بينهم بالعدل ؟ لا شك أنهما لا يستويان.

وظاهر الآية العموم وتمثيل حالى المؤمن والكافر ، وقيل المراد بمن يلقى فى النار أبو جهل ، و بمن يأتى آمنا النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن بشير بن تميم قال : نزلت فى أبى جهل وعمار بن ياسر .

و بعد أن أبان لهم عاقبة الملحدين بالآيات والمؤمنين بها ، هددهم بقوله :

(اعملوا ما شئتم) فقد علمتم مصير المسىء والمحسن ، فمن أراد أحد الجزاءين فليعمل له فإنه ملاقيه .

(إنه بما تعملون بصير) أى إنه بأعمالكم ذو خبرة وعلم لا تخفى عليه خافية منها ولا من غيرها ، وهو مجازيكم على حسب أعمالكم .

ثم بين أولئك الملحدين بقوله :

(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) أى إن الملحدين هم الذين جحدوا هذا القرآن وكذبوا به حين جاءهم .

ثم وصف الذكر بقوله :

(١) (وإنه لكتاب عزيز) أى وإنه لكتاب عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع عن كل عيب ، محمىّ بحماية الله .

(٢) (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أى ليس للبطلان إليه سبيل ، فلا تكذبه الكتب السابقة عليه كالتوراة والإنجيل ، ولا يجىء من بعده كتاب يكذبه ، قاله سعيد بن جبير والكلبى .

وقال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، وبه قال قتادة والسُّدّى .

وقصارى ذلك — إن الباطل لايتطرق إليه ولا يجد لديه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ، فكل ما فيه حق وصدق وليس فيه ما لا يطابق الواقع .

(٣) (تنزيل من حكيم حميد) أى وهو تنزيل من عند ذى الحكمة بتدبير شئون عباده ، المحمود على ما أسدى إليهم من النعم التى منها تنزيل هذا الكتاب ، بل هى أجلها .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦).

المعنى الجملى

بعد أن هدد الملحدين فى آياته — سلّى رسوله عما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه، وحثه على الصبر، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وقولهم: فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ، فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لايعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة، ثم أجاب عن شبهة قالوها، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم — بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا مالنا وللعجمة؟. ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين، والذين لايؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم، فقومك ليسوا ببدع فيها بين الأمم، ثم أبان أن المرء وما عمل، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، ولا يظلم ربك أحداً.

الإيضاح

(ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ما جئتهم به من عند ربك إلا مثل ما قالته الأمم التى كذبت رسلها من قبلهم، فاصبر على ما نالك منهم من أذى كما صبر أولو العزم من الرسل، وقد يكون المعنى — ما يقال لك من التوحيد و إخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك و إن اختلفت فى غير هذا، تبعا للزمان والمكان.

ونحو الآية على المعنى الأول قوله : « كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

وعلى المعنى الثانى قوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

ثم ذكر علة أمره بالصبر فقال :

(إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) أى إن ربك لذو مغفرة للتائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم ، وذو عقاب مؤلم لمن أصرّ على كفره ومات على ذلك قبل التوبة .

ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم فقال :

(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمى وعربى ؟) أى ولو جعلنا هذا القرآن الذى أنزل إليك بلغة العجم — لقال قومك من قريش : هلا بينت أدلته وما فيه من حكم وأحكام بلغة العرب حتى نفقهه ونعلم ما هو وما فيه ، وكانو يقولون منكرين : أقرآن أعجمى ولسان المرسل إليهم عربى ؟

وخلاصة ذلك — لو نزل بلسان أعجمى لقالوا هلا بينت آياته باللسان الذى نفهمه ، ولقالوا : أكلام أعجمى والمرسل إليهم عرب خلص ؟

ثم بين حال القرآن لدى المؤمنين والكافرين فقال :

(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أى قل لهم ردّا على قولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ : إن هذا القرآن للذين صدقوا بما جاءهم به من عند ربهم — هاد إلى الحق، شاف لما فى الصدور من ريبة وشك ، ومن ثم جاء بلسانهم معجزا بيّنا فى نفسه مبينا لغيره .

ونحو الآية قوله : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) أى والذين لا يؤمنون بالله

ورسوله و بما جاءهم به من عنده فى آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن فلا يستمعون له بل يعرضون عنه ، وهو عليهم عمى فلا يبصرون حججه ومواعظه .

ونحو الآية قوله فى وصفه « وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا » .

ثم مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم له بحال من ينادى من مكان بعيد لا يسمع من يناديه فقال .

(أولئك ينادون من مكان بعيد) قال الفراء تقول العرب للرجل الذى لا يفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد ، ولثاقب الرأى: إنك لتأخذ الأمور من مكان قريب ، شبهت حال هؤلاء المكذبين فى عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا إليه ، بحال من ينادى من مسافة نائية لا يسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه .

ثم بين أن هؤلاء المكذبين ليسوا بدعا بين الأمم فى تكذيبهم بالقرآن ، فقد اختلف من قبلهم فى التوراة فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أى ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة فاختلفوا فيها ، فمن مصدق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك ، فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك واسلك سبيل أولى العزم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين فقد اصطبروا وأوذوا وكان النصر حليفهم والتوفيق أليفهم وكتب الله لهم الفلَج والفوز على أعدائهم المشركين وأهلك الله القوم الظالمين .

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى يوم القيامة بنحو قوله : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » وقوله : « وَلَـٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى » لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة .

ثم بين ما يقتضى إهلاكهم فقال :

(وإنهم لفى شك منه مريب) أى وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا ما قالوا ، بل كانوا شاكين غير محققين لشىء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك .

ثم بين أن الجزاء من جنس العمل وأنه لا يظلم ربك أحداً فقال :

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) أى من عمل بطاعة الله فى هذه الحياة فأتمر بأمره وانتهى عما نهى عنه فلنفسه عمل ، لأنه يجازى عليه الجزاء الذى هو له أهل ، فينجو من النار ويدخل جنة النعيم .

ومن عصى الله فعلى نفسه جنى ، لأنه أكسبها سخط الله وأليم عقابه ، وقد قالوا فى أمثالهم (إنك لا تجنى من الشوك العنب) وما ربك أيها الرسول بحامل عقوبة ذنب على غير مكتسبه ، بل لا يعاقب أحداً إلا على جرم اكتسبه فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » .

اللهم وفقنا لعمل الصالحات ، وأبعدنا عن ارتكاب الآثام والموبقات ، وألهمنا التوفيق لما يرضيك ، والبعد عما يسخطك .

وقد كان الفراغ من تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم قبيل فجر الليلة السادسة عشرة من ذى الحجة سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة النبى الكريم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلّ ربنا على محمد وآله .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	ذكر بعض هفوات للمشركين .
٥	ذكر ما أعد لمؤمنين من ثواب .
٧	يكفي الله المؤمنين ما أهمهم في الدنيا .
٧	من يضلل الله فلا هادي له .
٩	الحديث المأثور عن ابن عباس .
١٠	قطع صلة الروح بالبدن حين الموت .
١١	الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ لا مسيطر.
١٣	تفسير علي كرم الله وجهه للرؤيا الصادقة والكاذبة .
١٥	نعي السيد الألوسي في تفسيره حال المسلمين اليوم .
١٦	دعاء النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتاح صلاته بالليل .
١٧	ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر من الدعاء .
١٨	كان المشركون يلجئون إلى الله حين وقوع الضرر .
٢٠	الله يبسط الرزق لبعض عباده ويضيق على بعض .
٢٢	غفران الذنوب لمن تاب وأخلص العمل .
٢٣	أجمع آية في القرآن بخير وشر « إن الله يأمر بالعدل » وأكثر آية في القرآن فرجا في سورة الغرف .
٢٤	يسروا ولا تعسروا .
٢٦	وجوه المشركين ووجوه المؤمنين يوم القيامة .
٢٩	مقاليد السموات والأرض .
٣٠	ما أوحى به إلى الأنبياء جميعا .
٣٠	ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم .
٣١	يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه .
٣٣	يصعق الخلق حين النفخ في الصور .
٣٤	يوم القيامة توضع صحائف الأعمال بأيدي العاملين .

الصفحة	المبحث
٣٥	يساق المجرمون حينئذ زمرا .
٣٦	تقول الخزنة لأهل النار ألم يأتكم الرسل .
٣٧	تقول خزنة الجنة لأهلها سلام عليكم طبتم .
٣٨	أبواب الجنة ثمانية .
٣٩	الملائكة من حول العرش يسبحون بحمد ربهم .
٤٠	ماتحتوي عليه سورة الزمر من موضوعات.
٤١	آل حم ديباج القرآن .
٤٢	قول العامة: الحواميم ليس من كلام العرب.
٤٣	ذكر حال المجادلين في القرآن لأجل إبطاله.
٤٤	قال أبو الدلية : آيتان ما أشدهما علي.
٤٥	الأمم جميعا جادلت في كتبها بالباطل لتدحض الحق .
٤٦	الملائكة من حول العرش يستغفرون للمؤمنين .
٤٨	يدخل الرجل الجنة فيقول يارب أين أبي وجدي وأمي الخ ؟ .
٥١	يوم القيامة يعترف المجرمون بذنوبهم واستحقاقهم للعذاب .
٥٢	الحكم لله العلي الكبير يوم القيامة .
٥٣	صفات الله الدالة على عظمته وجلاله .
٥٥	في الحديث « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي الخ » .
٥٦	ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع .
٥٧	علمه تعالى شامل لكل شيء .
٥٨	قصص موسى عليه السلام مع فرعون.
٦٠	أمر فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل .
٦١	قال فرعون لقومه: إني أخاف أن يبدل موسى دينكم - تبرئة لنفسه من دعوى سفك الدماء .
٦٢	تعوذ موسى بربه من الجبارين المتكبرين .
٦٣	حديث مؤمن آل فرعون وذكر نصائحه.

الصفحة	المبحث
٦٤	قال على : أشجع الناس أبو بكر .
٦٥	رد فرعون على موسى وتصلبه فى رأيه .
٦٧	إعادة النصح كرة أخرى بضرب الأمثال.
٦٨	توبيخهم بان التكذيب فيهم متوارث .
٦٩	يضل الله عن سبيل الحق المسرف فى المعاصى
٧١	أمر فرعون وزيره هامان أن يبنى له قصرا شامخا .
٧٢	السبب فى تمرد فرعون وصده عن السبيل.
٧٣	إعادة النصح عليهم مرة ثالثة .
٧٥	الأصنام لا تستجاب لها دعوة .
٧٥	تعجبه من دعوته إياهم إلى الهداية ودعوتهم إياه إلى الضلال .
٧٦	اطمئنانه إلى مايجرى به القدر .
٨١	وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائه .
٨٢	فى التوراة هدى لبنى إسرائيل .
٨٣	مايحمل قومك على التكذيب بك إلا الكبر والحسد .
٨٤	البراهين الدالة على إمكان البعث .
٨٥	لايستوى المؤمن والكافر ولا الأعمى والبصير .
٨٨	من الأدلة على وجود المعبود خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فى أحسن صورة
٨٩	قومك أيها الرسول ليسوا بيدع فى الأمم .
٩٠	أمر الله عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه.
٩١	من الأدلة على وجوده تعالى خلق الأنفس على أحسن الصور .
٩٢	مراتب عمر الإنسان ثلاث .
٩٤	يسأل المجرمون سؤال توبيخ عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها .
٩٥	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى المشركين .
٩٦	قص الله سبحانه أخبار بعض الرسل لاجميعهم
٩٧	فوائد الإبل .
٩٩	تهديد الذين يجادلون فى آياته طلبا للرياسة.
١٠٠	يقول المشركون حين يرون العذاب آمنا بالله وحده .
١٠١	لاتقبل التوبة حين معاينة العذاب .
١٠٣	حديث الرسول صلى الله عليه وسلم مع صناديد قريش وتلاوته عليهم أول سورة فصلت.

الصفحة	المبحث
١٠٤	القرآن كتاب فصلت آياته بمقاطع وفواصل .
١٠٥	ذكر المشركون لنفرتهم من القرآن ثلاثة أسباب .
١٠٧	خلاصة الوحى علم وعمل .
١٠٩	خلق السموات والأرض على أطوار .
١١٠	الحكمة فى خلق الجبال الرواسى .
١١١	خلق الأرض وجبالها الرواسى وتقدير أقواتها فى أربعة أيام .
١١٢	عالم السديم .
١١٥	إنذار المشركين بشديد العقاب إن أصروا على عنادهم .
١١٥	ما دار بين أبى جهل وعتبة بن ربيعة من الحديث بشأن النبى صلى الله عليه وسلم .
١١٦	ماقيل عن وصف قوم عاد .
١١٧	مانزل بقوم عاد من العذاب .
١١٩	بيان المراد من شهادة السمع والأبصار والجلود .
١٢١	على المرء فى كل حال رقيب .
١٢٢	الظن قسمان : منج ومرد .
١٢٣	لاتقبل لأهل النار معاذير ولاتقال لهم عثرات .
١٢٤	تشاغل المشركين عن سماع القرآن .
١٢٦	طلب المشركين الانتقام ممن أضلوهم .
١٢٧	بشرى الملائكة للمؤمنين وولايتهم لهم .
١٢٨	قال وكيع : البشرى فى ثلاثة مواطن .
١٣٠	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفع سفاهات المشركين بالحسنى .
١٣١	قال عمر : ماعاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .
١٣٢	ماعوقب الأحمق بمثل السكوت عنه .
١٣٣	الطريق لدفع الغضب إذا بدت بوادره.
١٣٤	الدلائل الفلكية والأرضية على وجوده تعالى .
١٣٥	الرد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب.
١٣٦	تهديد من ينازع فى دلائل الوحدانية والقدرة .
١٣٨	صفة الكتاب الكريم .
١٣٩	قال المشركون : هلا نزل القرآن بلغة العجم .
١٤٠	القرآن هدى وشفاء للذين آمنوا .
١٤٢	من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعلى نفسه جنى .

DATE DUE

JAFET LIB.
1 JUN 1993

297.207:M29tA:v.22-24:c.1
المراغي، احمد مصطفى
تفسير المراغي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010045

297.207:M29tA V.22-24
المراغي، أحمد مصطفى .
تفسير المراغي .
APR 29 A248
MAY 13
13 DEC 77
BIND

297.207
M29tA
V.22-24